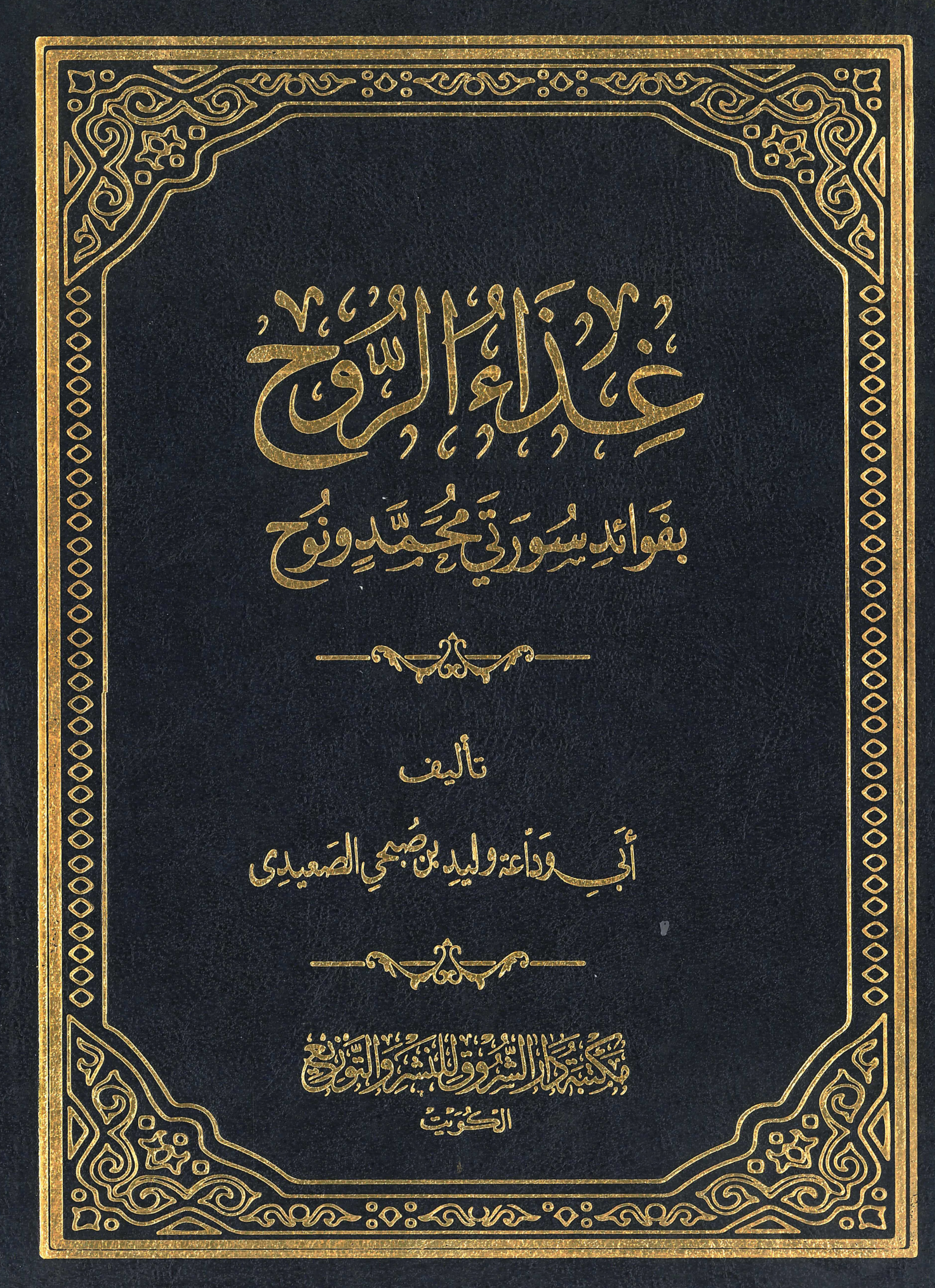
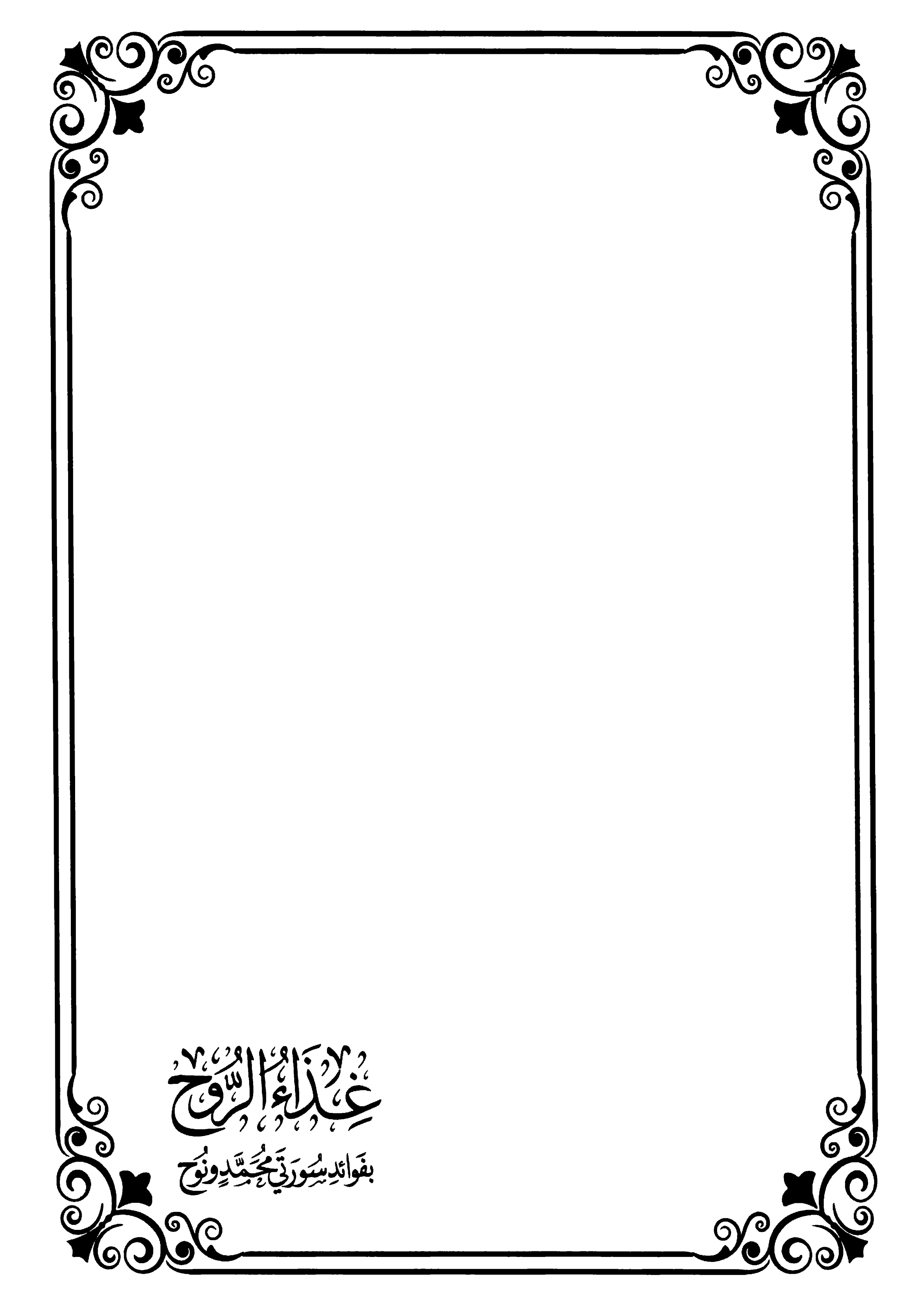

غذاء الروح
بفوائد سورتي محمد ونوح
تأليف
أبي وداعة وليد بن صبحي الصعيدي
مكتبة دار الشروق للنشر والتوزيع
الكويت


غذاء الروح
بفوائد سورتي محمد ونوح

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الكتاب: غذاء الروح بفوائد سورتي محمد ونوح

المؤلف : أبي ودعة وليد بن صبحي الصعيدي

الناشر: مكتبة دار الشروق للنشر والتوزيع -الكويت

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو عادة تنفيذ الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجة أسطوانات ضوئية إلا بموافقة المؤلف خطياً الكتب التي تصدرها المكتبة تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المكتبة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ- ٢٠٢٢م



الكويت - حولي - شارع المثني - مجمع البدري محل رقم (٢٧)

ص . ب: ٧٠٥٩ حولي - ر. ب: ٣٢٠٩١ الكويت

تلفاكس : ٢٢٦١٣٨٨٥ (٠٠٩٦٥) - نقال : ٩٩٨٣٦٣٧٢ (٠٠٩٦٥)

Email: al_shorouk@hotmail.com

رقم الإيداع: 978-99966-748-6-0

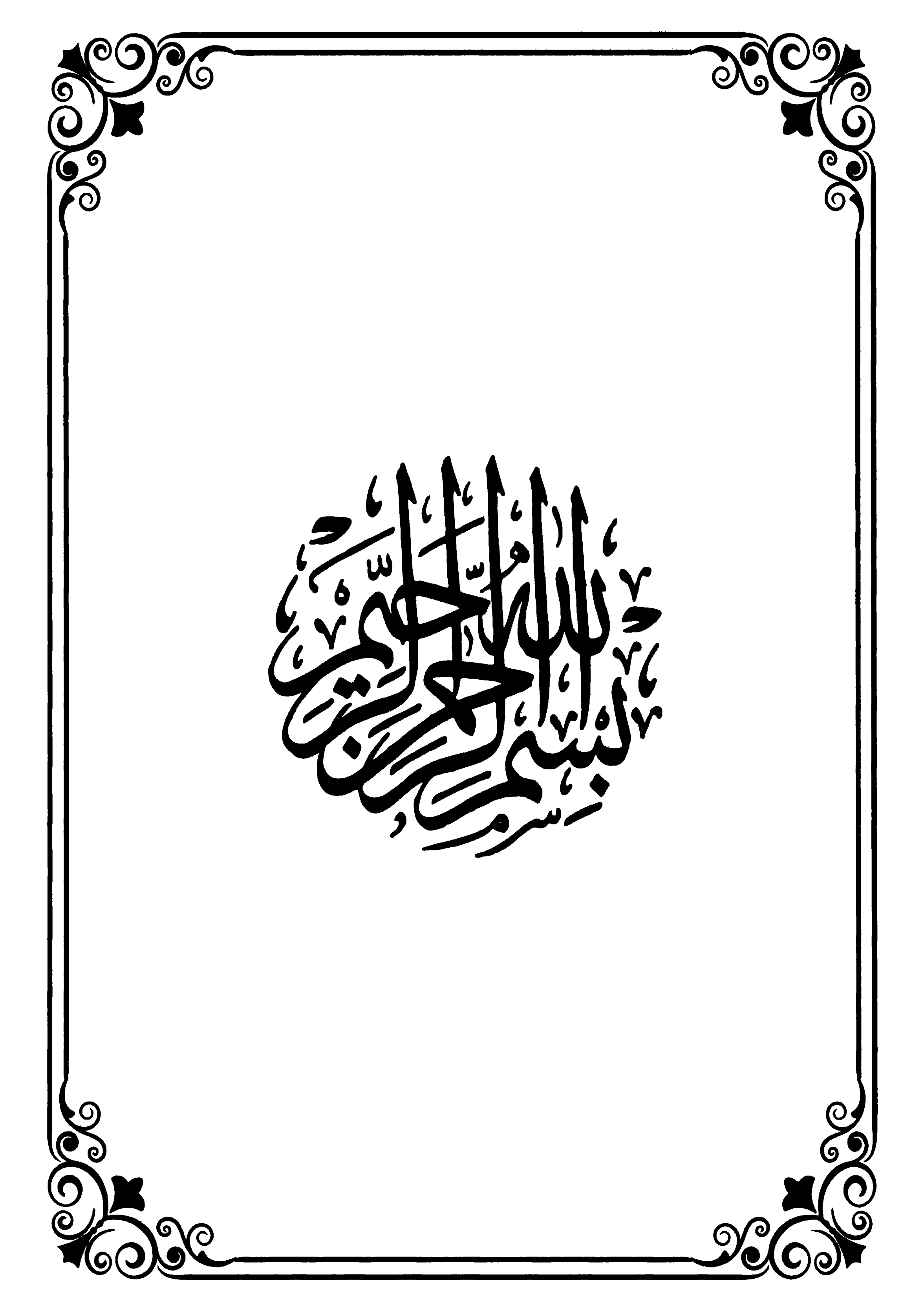
ISBN: 978-99966-748-6-0

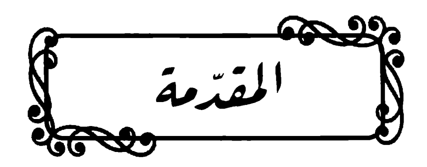


تأليف

أبي وداعة وليد بن صبحي الصعيدي




بسم الله الرحمن الرحيم



المقدّمة

الحمد لله الذي لم يترك عباده سُدىً فأرسل رُسلَه، وأنزلَ معهم الكتابَ والميزانَ ليقوم الناسُ بالقسط، وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادةً تبلغ معتقِدِها أملَه، ويَختمُ الله لقائلها بالسعادة عملَه، وأشهد أن محمدًا عبدُه المنتخبُ من بريَّته، ورسولُه الداعي خلقَه إلىٰ طاعته، أرسله بالحق المبين، وابتعثه بالشرع المتين، فجلَىٰ غوامضَ الشبهات، وأنار حَنادِسَ الظلمات، وأباد حزبَ الكفر وأنصارَه، وشيَّد أعلامَ الدينِ ومنارَه، صلىٰ الله عليه صلاة يُعطيه فيها أمنيتَه، ويرفع بها في الآخرة درجتَه، وعلىٰ إخوانه من النبيين وآله الأخيار المنتخَبين، وتابعيهم بالإحسان أجمعين.

وبعدُ، فقد وصف الله كتابه المجيد بالبركة فقال: «﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، والمبارك: الْمُنْبَثَّةُ فيه البركة؛ وهي الخير الكثير، وكل آيات القرآن مباركٌ فيها لأنها: إما مرشدةٌ إلىٰ خير، وإما صارفةٌ عن شرٍ وفساد، وذلك سبب الخير في العاجل والآجل، ولا بركة أعظم من ذلك. والتدبُّر: التفكر والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني»(١).

---

(١) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، (حـ٢٣/ ٢٥١)، ط: الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤م.

وإنما نزل القرآن من أجل ذلك. ولما كان كتابه مباركًا كما وصف سبحانه فإنه لا يقف الواحد منا على كل ما فيه من بركةٍ إلا إذا تدبره، وكلما تدبر المرءُ كتابَ ربه وتفكَّر فيه كلما نال من بركته بقدر ذلك التدبر والتفكر.

وقال القشيريُّ أيضًا معقبًا على الآية: «البركةَ في تَدَبُّرِهِ والتفكُّرِ في معانيه».

ولقد ذمَّ السلفُ من انشغل بتلاوته عن فَهم معانيه، فقال الحسن البصريُّ: «أُنزل القرآنُ ليُعمَلَ به فاتخَذوا تلاوتَه عملًا»، ولهذا كله فإنه لا يَعمل بالقرآن إلا مَن فَهِمَ مرادَ الله منه، ولا يَتمُّ ذلك إلا بالوقوف على فوائده واجتناءِ فرائِده.

وفي القرآن عدة سُوَرٍ تُسمىٰ بأسماء الأنبياء؛ كسورة يونس وهود وإبراهيم ويوسف، وكان المقصود هو إعداد سلسلةٍ تضم تلك السُّوَرَ، وإيجاد الرابط بينها لعلةِ تسميتها بأسماء الأنبياء. وقد بدأناها قبلُ بسورة يوسف في (إنشاء الموائد بما في قصة يوسف من فوائد).

وهذا الرابط الذي بين تلك السور جميعها، هو الحديث عن المنهج الدعوي لكل نبيٍّ، مما يعطي تصورًا شاملًا وكاملًا لمناهج الدعوة بجميع صورها وأحوال الدعاة والمدعوّين، متمنيًا أن يعين اللهُ على أن أُفْرِد كتابًا حول المناهج الدعوية للأنبياء من خلال هذه السور الست ليكون كمقدمةً لهذه السلسلة المباركة، سائلًا الله أن يمن عليَّ بذلك. وأن ينفع بتلك السلسلة.

وفي هذه الصفحات أُقدِّم الجزء الثاني من هذه السلسلة في رحاب سورتَيْ

محمدٍ ونوح، واللتان تحكيان الحياةَ الدعوية لأول نبيّ وآخر نبيٍّ مع قومهما، وكيف هو منهج دعوتهما؛ ليستفيد الدعاةُ علىٰ مر العصور من ذلك، وقد وسمناه بـ:(غذاء الروح بفوائد سورتيْ محمدٍ ونوح)، فالله نسأل أن يَمُن علينا بالقبول.

وتم تقسيم الكتاب إلىٰ جزئين:

الجزء الأول: حول سورة محمد، مفتتَحُهُ مقدمةٌ تشمل تعريفًا بالسورة تحت عنوان: «بين يدي السورة»، ثم تقسيم السورة إلىٰ مقاطعَ قرآنية مُسمِّيًا ذلك المقطع مائدة، ثم شرح مُبسط لكل مقطع ومائدة، ثم يلي ذلك ذكرُ الفوائد تحت كل آية.

ثم جاء **الجزء الثاني**: حول سورة نوح مُقسَّمًا كما جاء في الجزء الأول.

وفيما يخص مواضع الاستدلال والاقتباس فإذا ذكرْتُ كلام أحد المفسرين حول آية معينة من كلا السورتين ربما أذكر الموضع وربما لا إذِ الكلامُ في تفسيره للسورة التي نحن بصددها، أما إذا كان الاقتباس من موضعٍ آخر من تفسيره فأحرصُ علىٰ ذكر الموضع.

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ونسأله سبحانه أن يقينا شر أنفسنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، إنه ولي ذلك ومولاه.

كتبه

أبو وداعة وليد بن صبحي الصعيدي

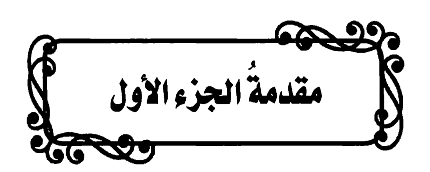
حامدًا الله ومصليًا علىٰ نبيه

وكان الفراغ منه بالمملكة العربية السعودية في غُرّة صفر لسنة ١٤٤٢هـ



الجزء الأول

سورةُ مُحمد



مقدمةُ الجزء الأول

الحمد لله الذي اصطفىٰ من الملائكة رُسلًا ومن الناس، وأشهد أن لا إله إلا الله هادي الأبرار وقاهر الكفارِ والفجار، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، وصفيُّه وخليلُه، فهو أشرف المرسلين مَحْتِدا، وأكرمهم نسبًا ومَوْلِدًا، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله الأطهار وصحبه الأخيار، صلاةً دائمةً ما تعاقب ليلٌ ونهار، وعُمِّر الليلُ بالعباد والسُمَّار.

وبعد،، فالمتأمل في سورة محمدٍ يرىٰ أنها لم تتعرض لذكر النبيّ ﷺ كما هو الحال في سورة نوح -مثلًا-، فسورة نوحٍ وصفت الفترة الدعوية لنبيّ الله نوح، وكيف كان جهاده مع قومه، ولكن الناظر بعينٍ تأمليةٍ ثاقبةٍ يجد أن سورة محمد رغم عدم تعرضها لذكر النبيّ محمد إلا ضمنًا فقد وصفت هي الأخرىٰ الحالةَ الدعوية التي عاشها النبيُّ محمدٍ في مجتمع يَعُجّ بالكافرين والمنافقين، لذلك فهي تسمىٰ سورة القتال، وهذا هو المنهج الواضح من السورة فقد كانت حياته ﷺ حياةً مليئة بصنوف الجهاد، بالسِّنان مع المشركين والكافرين، وباللسان مع المنافقين.

أما المواضيع الرئيسة التي تناولتها السورة فتتلخص في جملة القضايا التي اتسم بها القرآن المدنيُّ؛ فالسورة تُلخص قضية الجهاد بين المسلمين والكافرين ثم جولة المؤمنين مع المنافقين وجزاء كل فريق من الفرق الثلاث؛

فأبطل أعمال الكافرين، وأنعم على المؤمنين، وفضح المنافقين الذين وصفتهم الآيات بأن النبيَّ ﷺ يعلَمُهُم بأوصافهم ومن زلات ألسنتهم، فالجهاد الذي فرضه الله هو الذي يميز الصف، فيتبين المنافق من المؤمن.

ثم أعادت السورة في نهايتها ما ابتدأت به فأعادت الحديثَ عن الكافرين ثم دعوة المؤمنين بألا يتشبهوا بهم، وكذلك كان ختامها الدعوة إلى الجهاد كما بدأت به، فدَعَتْ إلى الإنفاق في سبيل الله، والتحذير من التولي عن نصرة الدين وإلا حدث التبديل: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾.

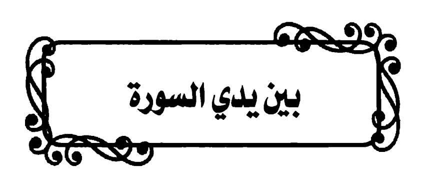
ومما يدل على قيمة هذه السورة واهتمام النبيّ ﷺ بها أنه كان يُكثر من قراءتها في الصلاة، فعن ابن عمر «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِهِمْ فِي الْمَغْرِبِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ١]»(١).

وفي هذه الصفحات نقف على الفوائد التي تضمنتها الآيات النيِّرات من هذه السورة.

رزقنا الله وإياكم فَهْمَ مراده وأوزعنا من الاعتقاد أرصَنه، ومن العمل أحصَنَه، وجعلنا من الَّذِينَ يَستمعونَ القول فيَتبعون أحسنَه وصلى الله على محمد وآله.



(١) قال الهيثميُّ في مجمع الزوائد (جـ٢/ ١١٨): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الثَّلَاثَةِ وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ».



بين يدي السورة

أسماء السورة:

قال البقاعي[(١)]: تسمىٰ سورة «محمد»؛ لأن الجهاد كان خلقه ﷺ، إلىٰ أن توفاه الله تعالىٰ، وهو نبي الملحمة؛ لأنه لا يكون حمد وثَمَّ نوع ذم، ومتىٰ كان كَفٌّ عن أعداء الله كان ذم.

أما اسم «مُحَمَّدٍ» فقد قال صاحب (إعراب القرآن)[(٢)]: «مُحَمَّد» اسم عربي وهو مُفَعَّل من الحمد، والتكرير فيه للتكثير؛ كما تقول: كرّمته؛ فهو مكرّم، وعظمته؛ فهو معظّم إذا فعلت ذلك مرة بعد مرة، وهو منقول من الصفة علىٰ سبيل التفاؤل أنه سيكثر حَمْدُه وكان كذلك ﷺ، وقد رُوي فيما حكاه ابن دُرَيد: أنه لما حضرت رجالُ قريش طعامَ مولودِ عبد المطلب وطعِموا قالوا لعبد المطلب: ما سمّيت ابنك هذا؟

قال: «سمّيته مُحمدًا قالوا: ما هذا من أسماء آبائك! قال: أردت أن يحمد في السموات والأرض». اهـ.

---

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (حـ١٨/ ١٩٤)، طـ دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

(٢) محيي الدين بن أحمد مصطفىٰ درويش، إعراب القرآن وبيانه (حـ٩/ ١٩٧) ط٤/ ١٤١٥هـ، دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص- سورية.

وتسمىٰ سورة «القتال»؛ لأن مقصودها قتال أهل الضلال.

وقال ابن عاشور[(١)]: «وأما تسميتها سورة القتال فلأنها ذكرت فيها مشروعية القتال، ولأنها ذكر فيها لفظه في قوله تعالىٰ: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾، مع ما سيأتي[(٢)] أن قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾...إلىٰ قوله: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾... أن المعنِيَّ بها هذه السورة فتكون تسميتُها سورة القتال تسميةً قرآنية». اهـ.

وتسمىٰ سورة «الّذين كفروا»، لأن الله أمر المؤمنين بجهاد الكافرين.

نزولها:

وسورة محمد من السور التي اختلف في مكان وزمان نزولها، فروىٰ البيهقيُّ في دلائل النبوة عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن أنها مدَنِيَّة[(٣)]، وقال الضحاك، وابن جبير، والسدي: السورة مكية. وقال ابن عطية: مدنية بإجماع، وليس كما قال، والصحيح من كلام أهل العلم أنها مدنية، ويرىٰ ابن عباس وقتادة أن آية: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ نزلت في مكة بعد حجة الوداع، لذلك

---

(١) التحرير والتنوير (حـ٢٦/ ٧١).

(٢) وقد ذكر أثناء شرح الآيات ما نصه: «فلا جرم أن هذه السورة هي التي نزلت إجابة عن تمني الذين آمنوا. وإنما قال: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾... لأن السورة ليست كلها متمحضة لذكر القتال فإن سور القرآن ذوات أغراض شتىٰ».

(٣) الإمام البيهقي، دلائل النبوة (حـ٧/ ١٤٣)، باب: «جماع أبواب كيفية نزول الوحي علىٰ رسول الله...»، ط١/ ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، ودار الريان للتراث.

قال الماوردي[1]: «هي مدنيّة في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا: إلا آية نزلت منها بعد حجة الوداع حيث خرج من مكة وجعل ينظر إلىٰ البيت وهو يبكي حزنا فنزل قوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ...﴾ [محمد:١٣].

فنقول: هي علىٰ ذلك كلها مدنية أيضًا علىٰ قول القائلين أن كل ما نزل بعد الهجرة هو قرآنٌ مدنيٌّ حتىٰ لو كان نزل بمكة. كما نقله الزركشي في البرهان، وقال: وهو المشهور[2].

عدد آياتها:

قال البقاعي[3]: آيها ثلاثون وثمان في الكوفي، وتسع في المدني والمكي والشامي. وأربعون آية في البصرىٰ.

وكلماتها: خمسمائة وتسع وثلاثون كلمة، ألفان وثلاثمائة وتسعة وأربعون حرفا.

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، تفسير الماوردي = النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود (حـ٥/ ٢٩٠)، ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

(٢) بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، البرهان في علوم القرآن (حـ١: ١٨٧)، طـ١: ١٣٧٦هـ، دار إحياء الكتب العربية.

(٣) إبراهيم بن عمر البقاعي، مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ السِّوَرِ (حـ٢/ ٤٨٦)، ط١/ ١٤٠٨هـ، مكتبة المعارف - الرياض.

مقصودها:

قال البقاعي[١]: ومقصودها: التقدم إلىٰ المؤمنين في حفظ حظيرة الدين، بإدامة الجهاد ضد الكفار حتىٰ يُلزِموهم الصَّغار، أو يبطلوا ضلالهم، كما أضل الله أعمالهم، لا سيما أهل الرِّدة الذين فسقوا عن محيط الدين إلىٰ أودية الضلال المبين، والتزام هذا الخُلُق الشريف، إلىٰ أن تضع الحربُ أوزارها، بإسلام أهل الأرض كلهم، بنزول عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

مناسبتها لما قبلها:

ومناسبتها للسورة التي قبلها أن حديثها عن الكفار الذي بُدئت به متصلٌ بما خُتمتْ به سابقتُها التي ذَكرت حالهم يوم يعرضون علىٰ النار، بسبب كفرهم وإيذاءِ الرسول وإنكارِ البعث، وقررت مصيرَهم بقوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٥] حتىٰ قال ابن كثير: «لا يخفىٰ قوة ارتباط أولِها بآخر السورة قبلها واتصاله وتلاحمه بحيث لو سقطت من البين البسملة لكانا كلامًا واحدًا لا تنافر فيه، كالآية الواحدة آخذًا بعضها بعنق بعض»[٢].

سبب النزول:

لم يذكر أهل العلم سببًا لنزول السورة كاملةً، حيث أنها نزلت مُنَجَّمةً،

---

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (حـ١٨/ ١٩٤).

(٢) مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ط١/ ١٣٩٣هـ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.

إلا أنهم ذكروا أسبابَ نزول بعض الآيات منها، فقال السيوطي[1]:

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، قال: هم أهل مكة نزلت فيهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ قال: هم الأنصار.

وأخرج عن قتادة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ..﴾ قال: ذُكر لنا أن هذه الآية نزلت يومَ أحدٍ ورسول الله ﷺ في الشِّعْب، وقد نشبت فيهم الجراحات والقتل وقد نادىٰ المشركون يومئذ: أُعْلُ هُبَل، ونادىٰ المسلمون: اللهُ أعْلَىٰ وأجلّ، فقال المشركون: «إن لنا العُزَّىٰ ولا عُزَّىٰ لكم»، فقال رسول الله ﷺ: **«قولوا: الله مولانا ولا موْلَىٰ لكم»**.

وأخرج أبو يعلي عن ابن عباس قال: «لما خرج رسول الله ﷺ تلقاء الغار نظر إلىٰ مكة فقال: **«أنت أحب بلاد الله إليَّ ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج عنك»** فأنزل الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ ...﴾ الآية».

وأخرج ابن المنذر عن ابن جُرَيج قال: «كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلىٰ النبي ﷺ فيسمع المؤمنون منهم ما يقول ويَعُونه، أي ويسمعه المنافقون فلا يَعُونه، فإذا خرجوا سألوا المؤمنين: ماذا قال آنفًا؟، فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ...﴾ الآية.

---

(١) جلال الدين السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول (ص:١٧٧)، طـ دار الكتب العلمية بيروت.

وأخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي في كتاب (الصلاة) عن أبي العالية قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يَرَون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنبٌ، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزل: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، فخافوا أن يُبطِل الذنبُ العملَ[1]. اهـ.

---

(١) نقلتها كما أوردها، ولم أتفرغ لتخريجات تلك الروايات.

مائدة

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾

المعنى الإجمالي:

هذا هو مطلع سورة محمد أو سورة القتال، وآيات السورة بكاملها تؤكد على المعنى الذي في هاتين الآيتين، كما أن هذه الآيات بهذا الأسلوب بما يتضمنه من شدة على الكافرين ورِقَّةٍ للمؤمنين لَدليلٌ على مشاركتها هي الأخرى في هذه المعركة بين الحق والباطل، فتبدأ بهذا الهجوم القوي دون مهاودة ولا تفصيل، وبدون إطناب في الكلام عن الكافرين، فهي قضية محسومة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، ثم تُردفُ الآياتُ الحديثَ عن المؤمنين بالثناء والتمجيد مع الإطناب والإطالة في الكلام في حق المؤمنين، فالذين كفروا على ضلالٍ بيِّنٍ خلافًا لأهل الإيمان الذين تنتظرهم جوائزُ الله الدنيوية والأخروية، فتكفيرٌ لذنوبهم كنتيجة حتمية لإيمانهم؛ لينالوا درجةً رفيعةً في الآخرة، وكذلك إصلاح الحال في الدنيا كنتيجة حتمية لقيامهم بالأعمال الصالحة، وهذا وذاك ما هو إلا نعمةٌ من الله ومنّةٌ عليهم، وما كانت

هذه المفارقةُ بين الفريقين في الجزاءين إلا لاختلاف مشاربِ الفريقين: فالـذين كفروا اتبعوا غير ما أراد الله، غير أن أهل الإيمان اتبعوا ما أتاهم مِن ربهم، وكان هذا سبب اختلاف الجزاء... ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ..﴾.

[فائدة]

في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ **فوائد:**

منها: أن أي عملٍ لا يُبْتَغىٰ به وجهُ الله فإن الله يبطله؛ لأنه لم يكن لله، ولا بأمره إنما فُعِلَ رياءً واتباعًا للهوىٰ.

ومنها: أنه لا يبقىٰ مع الصدّ عن سبيل الله عملُ عاملٍ مهما عظُمَ شأنه، بل يحبِطُ اللهُ بسبب ذلك كلَّ شيء.

ومنها: أن قوله: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **فيها وجهان**[1]:

فالأول: صَدُّوا أنفسهم، معناه أنهم صدوا أنفسهم عن السبيل، ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل.

وثانيهما: صَدُّوا غيرهم ومنعوهم، كما قال تعالىٰ عن المستضعفين: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٣١].

---

(١) أبو عبد الله فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، (حـ ٢٨/ ٣٢)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣- ١٤٢٠هـ.

ومنها: ما هو المصدود عنه؟ **وفيه وجوه**(١):

الأول: صدوا عن الإنفاق على محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصحابه، **الثاني**: عن الجهاد، **الثالث**: عن الإيمان، **الرابع**: عن كل ما فيه طاعة الله تعالى وهو اتباع محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ». اهـ.

وأضاف «ابنُ عاشور» إلى صوَرِ الصدِّ صورًا أُخرى، **فقال**(٢): ومِن الصدِّ عن سبيل الله صدُّهم المسلمين عن المسجد الحرام قال تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الحج:٢٥].

ومن الصَدِّ عن المسجد الحرام: إخراجُهم الرسولَ ﷺ والمؤمنين من مكة، وصدهم عن العمرة عام الحديبية.

ومن الصد عن سبيل الله: صدُّهم الناس عن سماع القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

ومنها: قال ابن عاشور: «وأضيف «السَّبيل» إلى الله؛ لأنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، واستعير اسم السبيل للدين؛ لأن الدين يوصل إلى رضى الله كما يوصل السبيلُ السائرَ فيه إلى بغيته».

ومنها: من عمل وتعب من غير سَبْقِ الإيمان فهو المضيِّعُ تَعَبُه لا الله

---

(١) السابق (حـ ٢٨/ ٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (حـ ٢٦/ ٧٤).

تعالىٰ، فأعمال الكافرين ولو عَظُمتْ لا يقبلها الله. فما عُمِلَ في الكفر مما كان الكفار يسمونه مكارم: من صلة الأرحام وفك الأُسارَىٰ وقِرَىٰ الأضياف وحفظ الجوار. كل هذا مما يضيع فيه الثواب والأجر.

ومنها: أن العمل لا يتميز إلا بمَنْ له العملُ لا بالعاملِ ولا بنفسِ العملِ.

ومنها: العبرة بالباعث الذي يصدر عنه العمل لا بشكل العمل، فالمقصود الأول والأخير هو الإخلاص.

ومنها: معنىٰ الضلال في قوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: **قال الرازي**[1]: معناه علىٰ وجوه:

الوجه الأول: المراد منه الإبطال، فإن قيل كيف يبطل الله حسنةً أوجدها؟ نقول إن الإبطال **على وجوه:**

أحدها: يوازن بسيئاتهم الحسنات التي صدرت منهم ويسقطها بالموازنة، ويبقي لهم سيئات محضة.

وثانيها: أبطلها لفقد شرط ثبوتها وإثباتها؛ وهو الإيمان لأنه شرط قبول العمل.

وثالثها: لم يعمل الكافر عمله لوجه الله تعالىٰ فلم يأت بخير فلا يرد علينا قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧]، لأن العمل لا يتميز إلا بمن له العمل لا بالعامل ولا بنفس العمل.

---

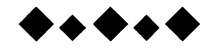
(١) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب (حـ ٢٨/ ٣٣)، طـ٣/ ١٤٢٠، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

الوجه الثاني: الإضلال: هو جعْلُه مُسْتَهْلِكًا؛ لأنه مَن منع نفسه عن سبيل الحق وبَذَلَ الأعمال لغير الله لم يبق لنفسه حرمة، وفعله لا يبقىٰ مُعتبرًا بسبب كفره.

الوجه الثالث: أضلَّه: أي: أهمله وتركه، كما يقال أضلّ بعيرَه إذا تركه مُسَيَّبًا فضاع.

ومنها: أن في تصدير السورة بهذه الجملة وتوضيحِ أمر الكافرين إثارةً لحنَق وكراهية المسلمين علىٰ الكافرين لتثور فيهم همة الإقدام علىٰ قتالهم، وعدم الاكتراث بما فيهم من قوة، فكما يقول ابن عاشور: «هو تمهيدٌ لقوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾».

ومنها: يقول ابن عاشور[1]: «وفي الابتداء بالموصول والصلة المتضمنة كفر الذين كفروا ومناوأتهم لدين الله تشويق لما يَرِد بعده من الحُكْم المناسب للصلة، وإيماءٌ بالموصول وصلته إلىٰ علةِ الحكم عليه بالخبر، أي: لأجل كفرهم وصدهم، وبراعة استهلال للغرض المقصود».



وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ **فوائد:**

منها: أن المغفرة والأجر مترتبان علىٰ الإيمان والعمل الصالح، كما أن

(١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (حـ٢٦/ ٧٣).

المغفرة ثواب الإيمان، والأجر على العمل الصالح.

ومنها: يقول الرازي[١]: «قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هل يمكن أن يكون ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ وصْفًا فارقًا؟، كما يقال: رأيت رجلًا من بغداد، فيصير وصفًا للرجل فارقًا بينه وبين من يكون من الموصل وغيره؟

نقول: لا؛ لأن كل ما كان من الله فهو الحق، فليس هذا هو الحق من ربهم، بل قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ خبرٌ بعد خبر، كأنه قال: وهو الحق، وهو من ربهم، أو إن كان وصفًا فارقًا، فهو على معنى أنه الحق النازل من ربهم؛ لأن الحق قد يكون مشاهدًا».

ومنها: أن قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فيه تنويهٌ على مكانة القرآن الكريم.

ومنها: أن فيها الثواب على الإيمان والعمل الصالح، قال الرازي: «قوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ إشارة إلى ما يُثِيبُ على الإيمان، وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ إشارة إلى ما يُثِيبُ على العمل الصالح».

ومنها: أن العلمَ العملُ، والعملَ العلمُ، فالعلم يُحَصَّلُ ليُعْمَل به، لِمَا جاء: «إِذَا عَمِلَ الْعَالِمُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ عَلِمَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ».

ومنها: الإيمان الأول يشمل الإيمانَ بما نُزِّلَ على محمد.

ومنها: أن المكلف إذا آمن بمحمدٍ ﷺ بالبرهان وبالمعجزة، وعمل صالحا؛ حملَه عِلمُه على أن يؤمن بكل ما قاله محمد ولم يجد في نفسه شكًّا.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (حـ٢٨/ ٣٥).

ومنها: أن العمل الذي لا يقوم على الإيمان يكون فلتةً عارضةً أو نزوةً طارئة، يقول سيد: «فلا بد من الإيمان ليشُدَّ النفسَ إلىٰ أصلٍ تَصْدُر عنه في كل اتجاهاتها، وتتأثر به في كل انفعالاتها. وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه. ويكون له هدفه، ويكون له اطراده، وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهي الذي يربط أجزاء هذا الكون كله في الناموس ويجعل لكل عمل ولكل حركة وظيفة». فقوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ...﴾ في مقابل إبطال أعمال الذين كفروا ولو كانت حسنات في شكلها وظاهرها، وبينما يبطل العمل ولو كان صالحًا من الكافرين، فإن السيئة تغفر للمؤمنين، وهو تَقابلٌ تام مُطلَقٌ يبرز قيمة الإيمان وقدره عند الله، وفي حقيقة الحياة». اهـ.

ومنها: أن سنَّه الله في الخليقة أن الحقَّ منصورٌ، والباطلَ مخذول.

ومنها: أنه لا ينفك الإنسان عن خطأ ومخالفةٍ حتىٰ وإن كان مؤمنًا، فإن الله قضىٰ لهم بالإيمان ورغم ذلك تَصْدُر منهم مخالفاتٌ ومعاصي، والله عَزَّوَجَلَّ يغفرها، فإن لم تكن موجودة فماذا سيغفر. فليس معصوم إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومنها: أن ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، فإيمانهم وعملهم الصالح كان سببًا في إذهاب مَغَبَّةِ السيئات عنهم.

ومنها: أن كلمة «البال» تأتي علىٰ معان، ذكرها ابن عاشور فقال: «والبال: يُطلق علىٰ القلب، أي العقل وما يخطر للمرء من التفكير وهو أكثر

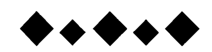
إطلاقه، ولعله حقيقةٌ فيه، قال امرؤ القيس:

فَعَادَىٰ عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ وَكَانَ عِدَاءُ الْوَحْشِ مِنِّي عَلَىٰ بَالِ

وحكىٰ الأزهري عن جماعة من العلماء أن معنىٰ لا أبالي: لا أكره». اهـ.

وأحسبهم أرادوا تفسير حاصل المعنىٰ ولم يضبطوا تفسير معنىٰ الكلمة، ويطلق البال علىٰ الحال والقدر، وَفِي الْحَدِيثِ «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ**»[1]، وإصلاح البال يَجمع إصلاحَ الأمور كلها؛ لأن تصرفات الإنسان تأتي علىٰ حسب رأيه، فالتوحيد أصل صلاح بال المؤمن. اهـ.

ومنها: أن إصلاح البال نعمة كبرىٰ تلي نعمة تكفير الذنوب في القدر والقيمة والأثر، ولا يحس بها إلا من وهبه الله تعالىٰ إياها، فإن خزائن الأرض لا تنفع صاحبها إذا كان مشتتَ القلب، ممزقَ النفس، مضطربَ المشاعر والأحوال، أما الذي ينفعه فهو راحة البال، وطمأنينة النفس، ورضا القلب، والشعور بالأمان والسلام.



(١) الحديث رواه ابن ماجة رقم (١٨٩٤) في النكاح، باب خطبة النكاح، وأحمد في المسند (٢/ ٣٥٩)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٥٧٨) موارد، وغيرهم، واختلف أهل العلم فيه، والراجح من كلامهم التضعيف، فقد رُوِيَ مرفوعًا ومرسلًا من طريق الزهري، ورُوِيَ بأكثر من لفظ، وقال الدارقطني في علله: «وَالصَّحِيحُ عَنِ الزُّهْرِيِّ الْمُرْسَلُ» وضعفه الشيخ الألبانيّ في الإرواء (١، ٢).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ **فوائد:**

منها: أن كل أمر اتُّبِع فيه الحق كان مقبولًا مثابًا عليه، وكل أمر اتُّبِع فيه الباطل كان مردودًا معاقبًا عليه.

ومنها: أن في المقابلة بين الآيتين دليلًا علىٰ أن من خلَط عملًا صالحًا وآخر سيئًا إذا سبقه إيمانٌ فإن سيئاتِه تذوب في بحار حسناته، قال تعالىٰ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء:٩٩]، أما إذا لم يكن مع هذا الخلط بين حَسَنِ الأعمال وسيئِها إيمانٌ فإن الله يجعلُ أعماله الصالحة هباءً منثورًا.

ومنها: أن في قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ صورة من صور لطف الله بعباده حيث أنه يضرب الأمثال لهم ليتعظوا ويعتبروا بها، فهنا جعل الله تعالىٰ اتباع الباطل مثلًا لعمل الكفار، والإضلال مثلًا لخيبتهم، واتباع الحق مثلًا للمؤمنين، وتكفير السيئات مثلًا لفوزهم.



مائدة

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾

المعنى الإجمالي:

وفي هذا المشهد يُطلُّ علينا التوجيهُ الربانيُّ الإرشادي في كيفية التعامل مع من نَبذوا الحق وراء ظهورهم واتبعوا ما بطل، وصدوا الناس عن هذا الحق، فهؤلاء جزاؤهم القتل، فشرع الله للمؤمنين مقاتلة الكافرين لإنهاء كِلا المفسدتين: كفرِهم، وصدِّهم غيرهَم عن الإسلام، وأحل الله لهم رقابَهم فدعاهم إلىٰ حَصْد رقابِهم، فهؤلاء المشركين في هذه الحرب ليس لهم إلا أحد أمرين: إما أن يُقتَلوا أو يُؤسَروا، فمن أَسرْتم منهم فقيِّدُوهم، حتىٰ يرىٰ صاحبُ الحُكْم الرأيَ فيهم إما بقتلٍ، أو إطلاق سراحهم دون فدية، أو دفع الفدية لإطلاق صراحهم، وإنما جعل الله هذه الأمور بين أهل الحق وأهل الباطل للتمحيص، وتحقيقِ سُنَّة الدفع: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ ...﴾ وإلا فإن الله قادرٌ علىٰ إهلاكهم بقوله: ﴿كُن﴾، وحتىٰ لا يتباطأ أحدٌ عن القتال خوفًا من القتل، وفوات حظِّه من الغنيمة، فإن الله يُطَمْئن عباده أنه من قُتل في هذه الطريق فله الرضوان الأعظم

من الله، ومآله إلىٰ جنات ونَهَر ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أي: لن يذهبها بل يُكثِّرها ويُنَمِّيها ويضاعفها، ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه.

فائدة

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾

فوائد:

منها: وجوب قتال الكافرين بكل شدة وقوة، حتىٰ تضعفَ شوكتُهم، وتدولَ دولتُهم، ويخضعوا لحُكْم شريعة الإسلام فيهم، وفي هذا المعنىٰ وردت آيات كثيرة، منها قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣، التحريم:٩].

ومنها: وجوب بُغض من يناوئون الدين، ويقفون حيال نشره، فالآية تُحْدِثُ بغضًا خاصًّا للذين لا يقبلون الدين الإسلامي؛ لتعلم أن هذا هو منهج الإسلام.

ومنها: مَن هم الكفار المأمور جهادهم؟

قال القرطبيُّ(١): «قال ابن عباس: الكفار المشركون عبدة الأوثان. وقيل: كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابي إذا لم يكن صاحبَ عهدٍ

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي (حـ١٦/ ٢٢٥)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢/ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، دار الكتب المصرية، القاهرة.

ولا ذمة، ذكره الماوردي، واختاره ابن العربي وقال: وهو الصحيح لعموم الآية فيه».

ومنها: أن الإسلام لا يطالبنا بأن نقاتلَ أهلَ الكتاب أو الوثنيين أو المجوس مثلا من غير سبب، وإنما يطالبنا بأن ندعوهم إلىٰ الإسلام، فإن تركونا أحرارًا في بث الدعوة وإقامة البراهين عليها فلا نقاتلهم، وإن قاوموا الدعوة، أو اعتدوا علىٰ الدعاة قاتلناهم؛ تقريرًا لمبدأ الحرية الدينية وحماية للدعوة وكفًا لأذاهم، وقد طبق الإسلام هذا المبدأ مع المخالفين جميعًا كتابيين ووثنيين.

ومنها: الإحسان في القتل وعدم التجاوز والتعدي في القتال بالحرق والتمثيل بالقتلىٰ وما شابه؛ وذلك لِمَا ورد «أنه لا يعذب بالنار إلا خالقها»[(١)]
قال السمعاني ؒ[(٢)]: «وَفِي التفسير: «أَن قومًا من المُسلمينَ كان بَعثَهم النَّبِي لِقِتَال قوم من الكفَّار، فأحرقوا بعض الكفَّار؛ فبَلغ النَّبيّ فَأنكرهُ، وَقَالَ: «إِنِّي مَا بُعثتُ لأُعذِّب بِعَذَاب الله أحدًا» فَأنْزل الله تعالَىٰ هذه الآيَة، وعلمهم كَيْفيَّة القَتْل».

---

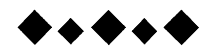
(١) رواه ابن أبي شيبة من حديث عبد الله بن مسعود، بلفظي: «إلا خالقها» (١٩٦)، و«إلا ربها» (٣٣١٤٤)، ورواه بلفظ: «لا يُعذب بالنار إلا رب النار» سعيد بن منصور(٢٦٤٣)، وعبد الرزاق (٩٤١٨)، وأحمد (١٦٠٣٤)، وأبو داود (٢٦٧٣)، من رواية حمزة بن عمرو الأسلميّ بأسانيد صحيحة، والبزار (٢٠٠٩) من حديث عبد الله بن مسعود، ورواه ابن حبان (٥٦١١) بلفظ: «لا يُعذب بالنار إلا الله» من حديث أبي هريرة بسندٍ صحيحٍ أيضًا.

(٢) تفسير أبي المظفر، منصور بن محمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي، ط١/ ١٤١٨هـ، دار الوطن (حـ٥/ ١٦٨).

ومنها: «قال القشيريُّ - بتصرف-: «العبد إذا ظفر بنفسه فلا ينبغي أن يُبْقِيَ بعد انتقَاش شَوْكها بقيةً، ولا في قلع شجرها مستطاعًا وميسورًا فالحيّة إن بقيت منها بقية من الحياة مَنْ وضع عليها إصبُعَه بَثَّتْ سُمَّها فيه».

ومنها: «في قوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أن حذف الفعل وتقدّيم المصدر -أيْ: ضَرْب- نيابةً عنه مضافًا إلىٰ المفعول -وهو الرقاب- فيه اختصار مع إعطاء معنىٰ التوكيد». قاله الزمخشريِّ.

ومنها: أن قوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ من باب التعويض، **والتَّعْوِيض**: من سُنن العرب، وهو إقامة الكلمة مقامَ الكلمة. وله صورٌ عِدّة: من ذلك إقامة المصدر مقامَ الأمر، كقوله جلّ ثناؤه: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم:١٧]، **والسُّبْحة**: الصلاة. يقولون: سَبّحْ سُبْحةَ الضحىٰ. فتأويلُ الآية: سَبِّحُوا للهِ جل ثناؤه، فصار في معنىٰ الأمر والإغراء، كقوله جلّ ثناؤه: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾[1].



(١) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها (ص ١٨٠)، الناشر: محمد علي بيضون، ط١/ ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ **فوائد**:

منها: أن الله قدم المنَّ علىٰ الفداء؛ لأنه من مكارم الأخلاق، ولهذا كانت العرب تفتخر به:

ولا نقتلُ الأسْرَىٰ ولكِن نَفُكُّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حِملُ المغارم[1]

ومنها: تعريف الأوزار: قال ابن الجوزيِّ: «وفي معنىٰ الكلام قولان:

أحدهما: حتىٰ يضعَ أهلُ الحرب سلاحَهم، قال الأعشىٰ:

وَأَعْـدَدْتُ لِلْحَـرْبِ أَوْزَارَهَـا رِمَاحًـا طِـوَالًا وَخَـيْلًا ذُكُـوراَ

وأصل «الوِزْرِ» ما حملته، فسمّىٰ السلاح «أوزارًا»؛ لأنه يُحْمل، هذا قول ابن قتيبة.

والثاني: حتىٰ تضعَ حربُكم وقتالُكم أوزارَ المشركين وقبائحَ أعمالِهم بأن يُسْلِموا ولا يعبُدوا إلاَّ الله، ذكره الواحدي». اهـ.

ومنها: أن هذه الآية كانت سببَ نجاةِ ما يقرب من الألْفَيْ رَجُل.

قال القرطبيُّ[2]: رُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ وَاقِفًا عَلَىٰ رَأْسِ الْحَجَّاجِ حِينَ أُتِيَ بِالْأَسْرَىٰ مِنْ أَصْحَابِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ وَهُمْ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَثَمَانِمِائَةٍ فَقَتَلَ مِنْهُمْ نَحْوٌ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ حَتَّىٰ قُدِّمَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ

(١) أبو الطيب محمد صديق خان الحسيني البخاري القِنَّوجي، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، (ص:٤٢٠) تحقيق: محمد حسن إسماعيل، أحمد فريد المزيدي، ط دار الكتب العلمية-٢٠٠٣.

(٢) تفسير القرطبيّ (جـ١٦/ ٢٢٦).

فَقَالَ: يَا حَجَّاجُ، لَا جَازَاكَ اللهُ عَنِ السُّنَّةِ وَالْكَرَمِ خَيْرًا! قَالَ: وَلِمَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ فِي حَقِّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَاللهِ مَا مَنَنْتَ وَلَا فَدَيْتَ!، وَقَدْ قَالَ شَاعِرُكُمْ فِيمَا وَصَفَ بِهِ قَوْمَهُ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ:

وَلَا نَقْتُلُ الْأَسْرَىٰ وَلَكِنْ نَفُكُّهُمْ ... إِذَا أَثْقَلَ الْأَعْنَاقَ حِمْلُ الْمَغَارِمِ

فَقَالَ الْحَجَّاجُ: أُفٍّ لِهَذِهِ الْجِيَفِ! أَمَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُحْسِنُ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ!؟ خَلُّوا سَبِيلَ مَنْ بَقِيَ. فَخُلِّيَ يَوْمَئِذٍ عَنْ بَقِيَّةِ الْأَسْرَىٰ، وَهُمْ زُهَاءُ أَلْفَيْنِ بِقَوْلِ ذَلِكَ الرجل.

ومنها: الحكم الفقهي في الآية، وهل الآية منسوخة أم محكمة:

ذكر القرطبي فيها خمسة آراء -بتصرف-:

الأول: أنها منسوخة، وهي في أهل الأوثان، لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليهم. والناسخ لها عندهم قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥]، وغيرها من الآيات، وكذلك فِعْلُ أبي بكر في أسير من المشركين، قاله قتادة والضحاك والسُّدِّي وابن جريج والعوفي عن ابن عباس، وقاله كثير من الكوفيين.

الثاني: أنها في الكفار جميعًا، وهي منسوخة علىٰ قول جماعة من العلماء وأهل النظر، منهم قتادة ومجاهد، قالوا: إذ أُسر المشرك لم يجز أن يُمَن عليه، ولا أن يُفادَىٰ به فيرد إلىٰ المشركين، ولا يجوز أن يفادَىٰ عندهم إلا بالمرأة؛

لأنها لا تُقتل، والناسخ لها ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة، وهو قول الحكم.

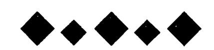
الثالث: أنها ناسخة، قاله الضحاك وغيره كعطاء والحسن.

الرابع: قول سعيد بن جبير: لا يكون فداءٌ ولا أسرٌ إلا بعد الإثخان والقتلِ بالسيف، لقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ..﴾ [الأنفال:٦٧]. فإذا أُسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره.

قال الطبري: «عن الحسن: «لا تُقتَل الأُسارَىٰ إلا في الحرب يهيب بهم العدوّ».

الخامس: أن الآية محكمة، والإمام مخيَّرٌ في كل حال، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء، وهو مذهب مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأبي عبيد وغيرهم. حكاه الطحاوي مذهبًا عن أبي حنيفة، والمشهور عنه ما قدمناه.

قال القرطبيُّ: «وهو الاختيار، لأن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك». وقال الطبريُّ: «والصواب من القول عندنا في ذلك، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة لأنه غير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المَنّ والقتل والفداء إلىٰ الرسول ﷺ وإلىٰ القائمين بعده بأمر الأمة. وإن لم يكن القتل مذكورا في هذه الآية، لأنه قد أذن -سبحانه- بقتلهم في آيات أخرىٰ منها: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]».



وفي قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾

فوائد:

منها: توجيه كلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾: قال القرطبيُّ: «هي في موضعِ رفعٍ علىٰ ما تقدم، أي الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت، وقيل: هو منصوب علىٰ معنىٰ افعلوا ذلك، ويجوز أن يكون مبتدأ، المعنىٰ ذلك حكم الكفار. وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلىٰ كلام، وهو كما قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ [ص:٥٥]. أي هذا حق وأنا أعرفكم أن للظالمين كذا». اهـ.

ومنها: ما قاله ابن عطاء: «لولا ميادينُ النفوس ما تَحقق سيرُ السائرين»، فإن مواقفَ الشدَّة امتحانٌ لطاقة الإنسان ومعدنه.

ومنها: أن التكليف بالقتال والجهاد إنما هو محض ابتلاء الله تعالىٰ عباده، واختبارهم ببذلهم -في طاعته- النفوس والأموال.

ومنها: أن الابتلاء حتميٌّ قبل التمكين.

ومنها: أن الله لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، فلو شاء لانتصر منهم، وإنما لله سبحانه حِكَمٌ في أفعاله.

ومنها: أن لله سبحانه مشيئةً نافذة، لا يردها شيءٌ، وله قدرة لا يعجزها شيء فجميع الحوادث وقعت بمشيئة الله وقدرته فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

يقول ابن القيم(١): «والمسلمون من أولهم إلىٰ آخرهم مجمعون علىٰ أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وخالفهم في ذلك من ليس منهم في هذا الموضع، فجوزوا أن يكون في الوجود ما لا يشاء الله، وأن يشاء ما لا يكون، وخالف الرسلَ كلَّهم وأتباعَهم مَنْ نفىٰ مشيئةَ اللهِ بالكلية ولم يُثْبِتْ له سبحانه مشيئة واختيارًا أوجد بها الخلق، كما يقوله طوائف من أعداء الرسل من الفلاسفة وأتباعهم» اهـ.

ومنها: أن الآية بيان لحكمةِ شرعيةِ القتال مع القدرة علىٰ استئصالهم بلا تجشم قتال من المؤمنين، فمن سنة الله البالغة أن يسلِّط الأشرار علىٰ الأخيار؛ فقد سلط الأشرار علىٰ الرسل فما دونهم، وليس هوانًا بالأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ وأتباعهم، ولكن ليقوم الأخيار بالجهاد فتعظم الدرجة ويعظم الأجر وينالوا المراتب العالية؛ لأن الجنة غالية لا تُنال إلا بالصبر علىٰ المصاعب والمشاق. فالمجاهدون أرفع الناس درجة في الدنيا والآخرة.

ومنها: معنىٰ الابتلاء: **قال الرازي**: «الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء بالنظر إليه قصدا إلىٰ ظهوره».

ومنها: أن في عدم انتصار الله منهم بخسفٍ أو وباء أو صواعقَ من السماء هو محض رحمة الله سبحانه بهم، إذ انتصارُ المسلمين عليهم ووقوعُهم تحت سلطانهم يساعدهم علىٰ التوبة إلىٰ الله والرجوع إلىٰ الحق فيسلموا فيفلحوا

---

(١) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص:٤٣)، ط ١٣٩٨هـ، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

بالنجاة من النار ودخول الجنة بدلًا من الهلاك الذي لا رجعة فيه ولا توبة بعده. سبحان من في شدائده أنواع لطف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «فالجهاد للْكفَّار أصلح من هلاكهم بِعَذَاب سَمَاء، من وُجُوه، ثم قال: **الثَّانِي**: أَن ذَلِك أَنْفَع للْكفَّار أَيْضا فَإِنَّهُم قد يُؤمنُونَ من الْخَوْف وَمن أسر مِنْهُم وسِيمَ[٢] من الصغار يُسلِم أَيْضا».

ومنها: الفرق بين دخول (لو) الامتناعية علىٰ المضارع والماضي.

قال بهاء الدين السُّبْكي[٣]: ذكر الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره ما نصه: «فإن قلت: هل من فرق بين دخول (لو) الامتناعية علىٰ الماضي ودخولها علىٰ المضارع؟ **قلت**: قد تتبعت مواقعها فوجدتها إذا دخلت علىٰ مضارع كان ممكنًا متوقعًا، أو كالمتوقع، ويكون المقصود إثبات الجواب، والمقصود في هذه المواضع كلها إثبات الثاني علىٰ تقدير الأول، والأول ممكن، وإن لم يكن واقعًا، وحيث دخلت علىٰ الماضي تارة يكون المقصود امتناعه، كقوله تعالىٰ:

---

(١) تقي الدين أبو العَباس أحمد ابن تيمية، جامع الرسائل (حـ٢/ ٣٣٨)، طـ١/ ١٤٢٢هـ، دار العطاء – الرياض.

(٢) سِيم: أمِنَ، قوم سُيُوم آمِنُونَ، وفي حديث هجرة الحَبَشَة:، قال النجاشي لمن هاجر إلىٰ أَرضه: «امْكُثوا فأَنتم سُيُوم بأَرْضي» أَي آمنون، وقال عمرو بن سالم يوم قدِم علىٰ النبيّ ﷺ يخبره بأمر خزاعة قبل الفتح:

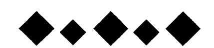
إنْ سِيمَ خَسفًا وَجهُهُ تَرَبَّدَا ... في فَيْلَقٍ كالبحرِ يجري مُزبِدَا

(٣) أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (حـ١/ ٣٥٩)، طـ١/ ١٤٢٣هـ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ...﴾ [الأنبياء: ٢٢]، والمقصود في هذا كله الحكم بانتفاء الأول ممكنًا كان أم ممتنعًا، وتارة يكون المقصود إثبات الثاني، كقوله: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا...﴾ [التوبة: ٤٧]، **والمقصود في هذه المواضع:** إثبات الثاني على تقدير الأول، مع العلم بأن الأول غير واقع، ومتى كان الفعل ماضيا يراد به حقيقته من المضي في الزمان إما حقيقة، كقوله: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم...﴾، وإما فرضًا كقوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ...﴾ [الأنعام: ٢٨]- الأحسن في هذا أنه لا يراد به الزمان الماضي، بل الملازمة بين الرد متى كان، والعود، مثل قوله:

ولو أنّ ليلى الأخيليّة سلّمتْ ... عليّ وَدُوني جَنْدَلٌ وصفائِحُ

النُّحاة يعدونه قليلًا؛ لكونه مستقبلًا، وحُسْنه ما أشرنا إليه من الغرض الذي يجعله كالواقع. ومتى كان الفعل الذي دخلت عليه مضارعا؛ فظاهر كلام النحاة أنها تقلبه ماضيا، وما ذكرناه من مواقعه يفهم منه أنه باق على حقيقته. **فالوجه أن يقال:** إنه قصد بصيغة المضارع التنبيه على أن ذلك وإن كان ماضيًا فهو دائم غير منقطع، بخلاف ما إذا أتى بلفظ الماضي؛ فإنه يحتمل الانقطاع وعدمه؛ وبذلك يحصل المحافظة على قلبه ماضيًا، ولا يعرض عن لفظه بالكلية. اهـ كلام الوالد -رحمه الله تعالى-.



وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ الۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ **فوائد:**

منها: أن من بذل شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه. فانظر للأجر العظيم لمن صَبَرَ ساعة.

ومنها: يقول القشيريُّ[١]: «الذين اشتغلوا بطاعة الله، ولم يعملوا شيئا مما خالف الله -فلا محالة- نقوم بكفاية اشتغالهم بالله» اهـ، فالذين اشتغلوا بالجهاد وبذلوا أموالهم وأنفسهم كفاهم الله ما أهمهم مِن أمر الدنيا والآخرة.

ومنها: على قراءة من قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾ أي: المجاهدين، نرى أن الحسنة تجُرُّ إلى أختها، يقول شيخ الإسلام[٢]: «أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى؛ وكذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ اهـ. فإن هدايتهم وإصلاح بالهم إنما هو ثوابٌ لجهادهم.

ومنها: أن الهدى والإضلال بيد الله سبحانه لا بيد العبد، وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والإضلال فعل العبد وكسبه.

ومنها: أن الهداية في الآية معناها هداية جزاء، وإلا فكيف يهدي الله من قُتِل، فليس هناك تكليف بعد القتل.

---

(١) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات = تفسير القشيري (حـ٣/ ٤٠٤) ط٣: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية، الحسنة والسيئة، (ص:٢٥)، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

وقال ابن زياد[١]: سيهديهم إلىٰ محاجة منكر ونكير في القبر، وعلىٰ تأويل قراءة العامة «قاتلوا» خلافًا لأبي عمرو وحفص يكون المعنىٰ كما ورد عن ابن عباس قال[٢]: «سيهديهم إلىٰ أرشد الأمور، ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا».

ومنها: أن الهداية في الآية هي أحد مراتب الهداية الأربع، **قال ابن القيم**[٣]: «**ومراتب الهدى أربعة**:

إحداها: الهُدىٰ العام وهو هداية كلّ نفس إلىٰ مصالح معاشها وما يقيمها. وهذا أعم مراتبه.

المرتبة الثانية: هداية الإرشاد والبيان للمكلفين، وهي التي أثبتها الله لرسوله. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾.

المرتبة الثالثة: هداية التوفيق والإلهام، وتستلزم أمرين: **أحدهما**: فعل الرّبّ تعالىٰ وهو الهُدىٰ. **والثاني**: فعل العبد وهو الاهتداء، وهو أثر فعله سبحانه فهو الهادي المهتدي، قال تعالىٰ: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾، وهي التي نفاها الله عن رسوله، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾.

المرتبة الرابعة: الهداية إلىٰ الجنة والنار يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿ٱحْشُرُوا۟

---

(١) تفسير القرطبي (حـ١٦/ ٢٣٠).

(٢) أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (حـ٤/ ١١٩)، ط١/ ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

(٣) ابن قيم الجوزية، شفاء العليل (ص:١٤١-١٧٩)، باختصار.

ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾، وقـال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.

ومنها: أن اللفظة الواحدة في لغة العرب قد تشرك في معانٍ كثيرة، فليس كل ضلال في القرآن يُحمل علىٰ ما هو خلاف الهدىٰ، فقد وردت هذه الكلمة في القرآن علىٰ معانٍ كثيرة، فالتي معنا المقصود بها: إحباط الأعمال، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: يعني بطل عملهم في الحياة الدنيا.

ومما ورد فيها[1]:

- **الإغواء** في قوله تعالىٰ إخبارًا عن إبليس: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾: يعني لأغوينهم عن الهدىٰ.

- **الصدُّ** بقوله تعالىٰ: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾: أي يصدونك.

- **الخسارة** وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾: أي في خسارة.

- **الشقاء والعناء** وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾: يعني في شقاء وعناء.

- **الخطأ** وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ

(١) أبو الحسين يحيىٰ بن أبي الخير بن سالم العمراني اليمني الشافعي، الانتصار في الرد علىٰ المعتزلة القدرية الأشرار (حـ١/ ٢٧٩)، ط١/ ١٤١٩هـ، دار أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

سَبِيلًا﴾: يعني أخطأ طريقًا.

- **النسيان** وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، أي تنس إحداهما.

ومنها: أن من أسماء الله الهادي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١]، فإذا عرف الإنسان المكلف ذلك وجب عليه أن يؤمن بأن الله هو الهادي الذي خلقه وهداه، ورزقه وأعطاه، وأنه يهدي من يشاء برحمته وفضله، ويضل من يشاء بحكمته وعدله، فهو الذي يحول بين المرء وقلبه، وأن من عرف بأن الله هو الهادي لخلقه المضل لمن كذب وأسرف واختار سبيل المفسدين الضالين من عباده، فإنه يخاف بطش الله وعقابه وخسفه وعذابه وإضلاله المسرفين المكذبين» كما يقول القاضي حسن المهدي(١).

ومنها: أن قوله تعالىٰ ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ **على توجُّهين:**

الأول: أن التعريف إنما هو في الآخرة: وهذا على معان:

- **إما من التعريف**، وهو التحديد بحيث يكون لكل واحد جنة مفرزة، قال مجاهد: يهدىٰ أهل الجنة إلىٰ بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله تعالىٰ لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا... وذلك بإلهام منه عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) القاضي: حسين بن محمد المهدي - عضو المحكمة العليا للجمهورية اليمنية، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، (حـ١/ ٢٥٧).

وفي البخاري[١] ما يدل على صحة هذا القول، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ أَهْدَىٰ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**».

- وإما من **العَرْف**، وهو طِيب الرائحة قال ابن عباس: «عرَّفها لهم بأنواع الملاذ»، وطعام مُعرّف أي مطيّب، تقول العرب: عرَّفت القدر إذا طيبتها بالملح والأبازير.

فتُدخَلُ أيدٍ في حناجرَ، أُقْنِعَت لِعادَتِها من الخَزِير المُعرَّف

- **وقيل**: تعريفها تحديدها يقال: عرَّف الدار وأرَّفها أي حددها أي حددها لهم بحيث يكون لكل جنة مفرزة.

- **وقيل**: أي شرَّفها لهم ورفعها وعلاها على أن عرَّفها من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها.

الثاني: أن التعريف إنما كان في الدنيا:

قال الرازي: «*ووجه ثان:* معناه ويُدخلهم الجنة ولا حاجة إلى وصفها فإنه تعالى: عرفها لهم مرارًا ووصفها».

---

(١) البخاري (٦٥٣٥) المكنز.

وقال **الألوسي**[١]: «وعن الجبائي أن التعريف في الدنيا، وهو يذكر أوصافها، والمراد أنه سبحانه لم يزل يمدحها لهم، حتىٰ عشقوها، فاجتهدوا في فعل ما يوصلهم إليها»...

ومنها: بشارة الشهداء بالثواب الجزيل، والأجر العظيم. ومما ورد ما أخرجه الإمام أحمد[٢] عن قيس الجذامي قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُعْطَىٰ الشَّهِيدُ سِتَّ خِصَالٍ عِنْدَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ: يُكَفَّرُ عَنْهُ كُلُّ خَطِيئَةٍ، وَيُرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُؤَمَّنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيُحَلَّىٰ حُلَّةَ الْإِيمَانِ**».

ومنها: أن الآية من الأدلة التي استخدمها ابن القيم في إثبات اتباع أقوال الصحابة، فبعد أن ساق جملةً من الآيات ومنها هذه الآية قال: «وكُلٌّ مِنْهُمْ -يعني الصحابة- قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَجَاهَدَ إِمَّا بِيَدِهِ أَوْ بِلِسَانِهِ، فَيَكُونُ اللهُ قَدْ هَدَاهُمْ، وَكُلُّ مَنْ هَدَاهُ فَهُوَ مُهْتَدٍ فَيَجِبُ اتِّبَاعُهُ بِالْآيَةِ». اهـ[٣].



---

(١) شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (حـ١٣/ ٢٠٠)، ط١/ ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) مسند الإمام أحمد (١٧٧٨٣) حديث قيس الجذامي.

(٣) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين (حـ٤/ ٩٩)، طـ١/ ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

فائدة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢ ﴾.

المعنىٰ الإجمالي:

وفي هذا المشهد يوعد الله المؤمنين بنصرتهم في معركة البقاء إن هم قاموا بواجباتهم تجاه دينه، فذكر أولًا جزاء المؤمنين إن نصروا الدين في أنفسهم أولًا، فجعل لهم نصرًا وتثبيتًا لهم، فالثبات أداة البقاء، ثم لما ذكر جزاء المؤمنين أردفه بجزاء الكافرين وذلك أنْ جعل لهم الخزي والشقاء في الدنيا وقبل الآخرة، كما أنه أبطل أعمالهم التي لم يبتغوا بها وجه الله، إنما عملت من أجل الهوىٰ والشيطان، ولم يكن ربك ظالمًا لهم في ذلك، ولكن الجزاء من جنس العمل، فإنهم لما كرهوا ما أنزله الله هدىً ورحمة لم يجعل لهم حظًا في هذا الخير، فجعل ما قاموا به من أعمال كأن لم تكن. وهذا الطرد واللعن من رحمة الله لم يكن لهم وحدهم، فلو كانوا عقلاء لاعتبروا بأخبار السالفين الذين يمرون علىٰ بقاياهم وأطلالِهم خلال رحلاتهم، فقد أهلك الله

مِن قبلهم أممًا كثيرةً لسلوكهم طرق الغواية والبعد عن سبيل الله، فمن فعل فعلهم على مدار الزمن ابتلي بما ابتلوا به ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ ما بقيت السموات والأرض، وإنما دعاهم ربهم للتأمل والنظر في سِيَرِ السالفين لِمَا للمشاهدة الحسية مِن أثرٍ في الاتعاظ. وإنما حدث التمكينُ للمؤمنين والخزيُ والضياعُ للكافرين؛ لأن الله وليُّ مَن يُطيعه، وناصرُ من يتولاه، فمن كان الله معه فمن عليه؟! خلافًا للكافرين الذين ليس لهم ناصرٌ ولا معينٌ يدفع عنهم العقوبة ولا العذاب الذي ينزل بهم. فالله وليُّ الخلقِ أجمعين من حيث تدبير شؤونهم، ومالك أمورهم، أما ولاية العِزَّة والنصرة فلا تكون إلا للمؤمنين. ولم يكن فضل الله على المؤمنين مقتصرًا على عطية الدنيا وفقط، ولكن لهم من النعيمِ الأُخرَويِّ ما حكاه الله هنا وفي غيره من المواضع من كتابه، فإن الله يجعل لهم جناتٍ ونَهَر، فقد عرفوا أن الدنيا ظِلٌّ زائل فتخلوا عن شهواتهم وأقبلوا على ما ينفعهم، أما الكافرون الذين لا يعرفون إلا شهوات أنفسهم، فلا يمارسون إلا ما هو من صفات الحيوانات من المأكل والتمتع الذي لا يَتْبَعُهُ شكرٌ ولا هو من الحلال المحض، فهم كالحيوانات التي تَرعَىٰ وتسرح ولا تعلم أن الذبح ينتظرها، كذلك الكافرون لا يعلمون أن هناك عذابًا ينتظرهم. وكما جعل الله للمؤمنين الجنةَ جعل لهؤلاء الكافرين النار مثوىً لهم.

﴿ فائدة ﴾

في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾: **فوائد:**

منها: أنَّ نصرة الدين والرسولِ وعبادِ الله المؤمنين إنما هي نصرةٌ لله.

ومنها: «أن نصرة الله من العبد نصرةُ دينه بإيضاح الدليل وتبيينه، ونصرة الله للعبد بإعلاء كلمته، وقمع أعداء الدين ببركات سعيه وهمّته». قاله القشيريّ في تفسيره .

ومنها: من نصر الله في نفسه نصره الله على أعدائه، وثبَّت أقدامه في المعارك عند القتال. وقيل: على محجة الإسلام. وقيل: على الصراط. وقيل: المراد تثبيت القلوب بالأمن.

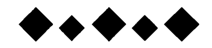
ومنها: «أنَّ في معناها ترغيبًا وتنشيطًا لأهل الوعظ والتذكير، الداعين إلى الله، الذين يسعون في إظهار الدين، وإرشاد عباد الله إلى محبة الله وطاعته، وفي الحديث عنه ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لئن شئتُم لأُقسِمَنَّ لكم، إنَّ أحبَّ عبادِ اللهِ إلى الله الذين يُحَبِّبُون الله إلى عباده، ويُحَبِّبُون عبادَ الله إلى الله، ويمشُون في الأرضِ بالنَّصيحَة**»[(١)]».

---

(١) ذكره ابن عجيبة في أكثر من موضعٍ، وربما نقله عن بعضهم دون تحقيق، كما ذكره في تفسير سورة الأنبياء، فقال: «قال السهروردي في العوارف: ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال...» فذكره.

ولم أقف على هذا الحديث مرفوعًا، بل وجدته موقوفًا على أبي الدرداء في كل المواضع، فعند ابن أبي شيبة (٣٤٦٠٣) بلفظ: «عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: «إِنْ شِئْتُمْ لَأُقْسِمَنَّ لَكُمْ: إِنَّ أَحَبَّ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ وَيُحَبِّبُونَ اللهَ إِلَى عِبَادِهِ وَالَّذِينَ يُرَاعُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ وَالْأَظِلَّةَ لِذِكْرِ اللهِ»، وقريب من لفظ المؤلف ذكره ابن أبي الدنيا في (الأولياء، رقم ٣٦) بلفظ: «قال الحسن: سمعتُ رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لئن شئتم لأُقْسمنَّ لكم بالله، أن أحب عباد الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويسعون في الأرض بالنصيحة**»، ونحوه في الزهد لابن أبي الدنيا (١٣٠٣)، والحاكم في المستدرك (١٦٤)، وفي

ومنها: أنه حق على الله أن يُعْطِي من سَأَلَهُ وَأَن ينصر من نَصره. قاله قَتَادَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ **فوائد:**

منها: أن فيها تخصيصًا وتصريحًا بسببية الكفر بالقرآن للتعس والإضلال، **قال ابن فارس**[1]: «دخلتِ الفاء لأنه جعل الكفر شريطة، كَأَنَّه قال: ومن كفر فتعسًا لَهُ» اهـ.

ومنها: معنى التَّعْس: **قال البغويُّ**[2]: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بُعْدًا لَهُمْ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: سُقُوطًا لَهُمْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: خَيْبَةً لَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: شَقَاءً لَهُمْ. قَالَ الْفَرَّاءُ: هُوَ نَصْبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، عَلَى سَبِيلِ الدُّعَاءِ. -يعني: أتعسه الله- وَقِيلَ: فِي الدُّنْيَا الْعَثْرَةُ، وَفِي الْآخِرَةِ التَّرَدِّي فِي النَّارِ. وَيُقَالُ لِلْعَاثِرِ: «تَعْسًا» إِذَا لم يريدوا قيامَهُ، وضده «لعًا» إِذَا أَرَادُوا قِيَامَهُ». اهـ.

السنن الكبرى للبيهقي (١٧٨٢).

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها (ص:٧٢).

(٢) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي (حـ٤/ ٢١١)، ط١/ ١٤٢٠هـ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

كَمَا قَالَ الأعشىٰ:

بِــذاتِ لَــوْثٍ عَفَرْنــاةٍ إذا عَثَــرَتْ

فـالتَّعْسُ أَدْنَـىٰ لها مـن أنْ أقـولَ لَعَـا[١]

وقـال أبـو السـعود[٢]: «ورجـلٌ تـاعسٌ وتَعِسٌ وانتصـابُه بفعلِـه الواجـبِ حذفُه سماعًا، أي فقالَ تعسًا لهم أو فقضىٰ تعسًا لهم» اهـ، ومـن الخطـأ أن يقـال إنَّ اسم الفاعل: «متعوس»، كما ذكره صاحب أوهام الخواص[٣].

ومنها: أن العقيدة هي جِماع الأمر ومِلاكه، فليس يسبق العقيـدة شـيء في منهج الدين، وليس يقوم مقام التوحيد شيء في سـلوك التـديّن، وصـلاح القلـب والعمل. فكل بناء لا تكون العقيدة أُسّه، إِنما هو بناء بـلا أسـاس لـه، فالتوحيـد هو سبيل النجاة الأوحد، والكفر باب الضياع والهلاك.

ومنهـا: أنـه لا تصِـحُّ إضـافة الـتعس بغيـر لام؛ لأنـك لـو قلـت فتعسَـهم أو بعدَهم لم يصلح، كقوله سبحانه: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[هود: ٦٨]، خلافًـا لويحـك

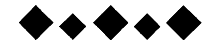
---

(١) اللَّـوْث: القـوة، والعَفَرْنـاة: الناقـة الشـديدة، ولَعَـا: ارتفاعـا. الزاهـر في معـاني كلمـات النـاس للأنباري (٢/ ٢٤٨).

(٢) أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ، تفسير أبي السعود = إرشاد العقـل السـليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم (حـ٨/ ٩٣)، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٣) القاسم بن علي أبو محمد الحريري البصـري، درة الغـواص في أوهـام الخـواص (ص:٩٧)، ط١/ ١٤١٨هـ.

وويلك، فلك أن تقول: ويحك وويح زيدٍ، وويلك وويل زيد بالإضافة[(١)].



وفي قوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ **فوائد:**

منها: كفر من كره الدين وأهلَه، وأحب الشرك وأهله وإن كان مسلما.

ومنها: أن مِن مفهوم الآية يتبين أن مَن أحب اللهَ ورسولَه محبةً صادقة من قلبه، أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضىٰ بما يرضىٰ به الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضىٰ هذا الحب والبغض.

ومنها: أن تقديمَ آراءِ الغير وعقولِهم وأذواقِهم ووجداناتهم وسياستِهم المخالفةِ المنابذةِ للسياسةِ الشرعية الحقة الصحيحة مُحبطا للعمل البتة، وربما كان رِدة ومُرُوقا عن الأمة الإسلامية والملة الحنفية أعاذنا الله من ذلك.

ومنها: يقول الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «وقد أجمع العلماء كافة علىٰ أنه لا يجوز لأحد التكذيب بشيء مما أنزل الله أو دفعه، وعدم الرضىٰ به أو العدول عمّا شرع، وذكروا أن ذلك كفرٌ صريحٌ وردةٌ عن الإسلام». اهـ

---

(١) محمد بن مكرم بن علىٰ، أبو الفضل ابن منظور، لسان العرب (حـ٢/ ٦٣٨)، طـ٣/ ١٤١٤هـ دار صادر- بيروت.

(٢) عبد العزيز بن عبد الله بن باز، حكم الإسلام فيمن زعم أن القرآن متناقض، (ص:٣٨)، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة السنة السابعة، العدد الأول، رجب ١٣٩٤هـ.

وكـان قـد نَقـلَ بعـضَ كـلام أهـل العلـم في ذلـك فقـال: «قـال الإمـام إسـحاق ابن راهُويَـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أجمـع المسـلمون علىٰ أن مـن سَـبَّ الله، أو سَـبَّ رسـولَه ﷺ، أو دفع شيئا مما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ أو قَتل نبيًا من أنبياء الله عَزَّوَجَلَّ أنه كافر بذلك».

ومنها: أنهم لـم يكرهـوه لكونـه نـزل مـن عنـد الله، ولكـن وجـه كـراهتهم للدين الجديد أنه جاء بتكاليف، وهم قوم أَلِفوا الإهمال وإطلاقَ العنان للنفس والهوىٰ، فلمـا جـاء القـرآنُ بـالتكليفِ وتـركِ الملـذات كرهـوه؛ لأنـه جـاء بمـا يخالف ما شيدوه من أباطيل.

ومنها: أن في قولـه: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ إشـعارًا بـأن ذلـك مـن لـوازم الكفـر لتكراره في أكثر من موضع.

ومنها: أن لكـل شـيءٍ سببًا، فإحبـاط أعمـالهم بسـبب كـراهيتهم مـا أنـزل الله، فالأسباب ثابتة شرعًا وقدرًا ردًا علىٰ من أنكر ذلك.

ومنها: أن قوله: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يقتضي أن أعمالَهم في كفرهم التي هـي بِرٌّ مقيـدةٌ محفوظـةٌ، ولا خـلاف أن الكـافر لـه حَفَظَـةٌ يكتبـون سيئاته، واختَلَـفَ النـاسُ في حسناتهم، **فقالت فرقة**: مُلْغَـاةٌ يثـابُونَ عليهـا بِنِعَـمِ الـدنيا فقـط، وقالـت فرقة: هي مُحْصَاةٌ من أجل ثواب الدنيا، ومن أجل أنه قـد يُسْـلِمُ فينضـاف ذلـك إلـىٰ حسـناته في الإسـلام، وهـذا أحـد التـأويلَيْنِ في قـول النبـي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لحكـيم ابن حِزام: «أَسْلَمْتَ علىٰ مَا سَلَفَ لك مِن خَيْر»[1]، **فقوم قـالوا تأويلـه**: أسـلمت

---

(١) البخاري (٢٢٢٠) باب «بَابُ شِرَاءِ المَمْلُوكِ مِنَ الحَرْبِيِّ وَهِبَتِهِ وَعِتْقِهِ».

علىٰ أن يُعِدْ لك ما سلف من خير، وهذا هو التأويل الذي أشرنا إليه. وقالت فرقة معناه: أسلمت علىٰ إسقاط ما سلف لك من خير، إذ قد ثوبت عليه بنعم دنياك» اهـ. قاله ابن عطية[١].

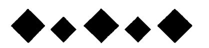
ومنها: لا يُحبَطُ العملُ إلا بالكفر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

ومنها: أن فيها دلالة علىٰ أن الكافر إذا أوصىٰ بقُربة من القُرَبِ لم ينفعه ذلك؛ لأن الكفرَ مانعٌ لحبوط العمل بالكفر، قال تعالىٰ ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ فأثبت لهم عملًا وقال ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. فلا ينفع الكافر ما عمله، ولا ما أوصىٰ بفعله؛ وكذلك ما فعله له قرابتُه المسلمون من أي قُرْبةٍ من القُرَبِ كالصدقة والحج والعتق وغير ذلك، ولا يلزم تنفيذ وصيته، وأما صحتها فتصح وصيةُ الذميِّ عند جمهورِ أهل العلم؛ أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم، ولم يتعرض في هذا الخبر لعدم صحتها، وإنما ذكر عدم القبول، فتصح بالمباح إذ لا مانع، فلا تصح وصيةُ مسلمٍ ولا كافرٍ لكنيسةٍ وبيتِ نارٍ وبيعةٍ وصومعة، ولا أي مكان من أماكن الكفر أو عمارتها أو

---

(١) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (حـ٥/ ١١٢)، طـ١/ ١٤٢٢هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

سدَنَتها، ولا لشيء من الإنفاق عليها لأنه معصية، ولا لكتب التوراة والإنجيل وبدع ونحوها»[١].



وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾ **فوائد:**

منها: أن الله ضرب الْأَمْثَال وَبعث الرُّسُل ليعقل الناسُ عَن الله أمره.

ومنها: مَن ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كانوا يرون عاقبة كفرهم؟

إنهم أهل سبأ وقوم ثمود، **يقول الطبريُّ:** «كانوا يسافرون إلىٰ الشام، فيرون نقمة الله التي أحلها بأهل حِجْر ثمود، ويرون في سفرهم إلىٰ اليمن ما أحل الله بسبأ».

ومنها: يقول ابن القيم[٢] ونقله الشنقيطي[٣]: «إن حُكْمَ الشيء حكمُ مثله».

وكذلك كل موضع أمر الله سبحانه فيه بالسَّيْر في الأرض، سواء كان السير الحِسّي علىٰ الأقدام والدوابِّ، أو السير المعنوي بالتفكر والاعتبار، أو كان

---

(١) الإحكام شرح أصول الأحكام، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي القحطاني الحنبلي النجدي (حـ٣/ ٤١٧)، ط٢/ ١٤٠٦هـ.

(٢) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين (حـ٢/ ٢٥٠).

(٣) محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (حـ٤/ ١٨٤)، طـ دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع - ١٤١٥هـ، بيروت - لبنان.

اللفظ يَعمُّهما وهو الصواب، فإنه يدلُّ علىٰ الاعتبار والحذر أن يحل بالمُخَاطَبين ما حل بأولئك، ولهذا أمر الله سبحانه أولي الأبصار بالاعتبار بما حَلَّ بالمكذبين، ولولا أن حكم النظير حكم نظِيرهِ حتىٰ تَعْبُر العقولُ منه إليه لَما حَصَلَ الاعتبار، وقد نفىٰ الله سبحانه عن حُكْمه وحِكْمته التسوية بين المختلفين في الحكم، فقال تعالىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥-٣٦]، فأخبر أن هذا حكمٌ باطل في الفِطَر والعقول، لا يليق نسبته إليه سبحانه.

ومنها: أن قدرةَ الرب علىٰ الفعل الموعود نظيرُ قدرته علىٰ الفعل المشهود، فالقدرة علىٰ إذهاب المخاطبين كالقدرة علىٰ إذهاب السابقين إذا ساووهم في العلة والمعنىٰ والأعمال.

ومنها: أن في الآية دليلًا علىٰ أن العرب كانوا يسافرون ويتحركون، كما قال تعالىٰ: ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ فكانت لهم رحلات إلىٰ الشام وإلىٰ غيره من البلدان، فيمرون علىٰ ديار من كان قبلهم من الأمم الماضية المكذبة.

ومنها: أن قوله: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ نستلهم منها أنه لا ينبغي ولا يشرع لنا أن نسمي الله سبحانه بأسماء نشتقها من الأفعال التي حكاها عن نفسه وفيها نوع ذم، كالمدمّر وكالخادع وما ماثل، **ذلك لأمرين:**

الأمر الأول: أنه لم يرد بها النص في الكتاب أو السنة.

الأمر الثاني: أن من هذه الأسماء «كالخادع أو المخادع، والماكر، والكايد، والمستهزئ، والغاضب، والناسي، والمدمر وما ماثلها» ليست ممدوحة علىٰ

إطلاقها، بل تمدح في مواضع، وتذم في مواضع أخرىٰ، ومن ثم لا يجوز أن تطلق أفعالها علىٰ الله مطلقًا.

ومنها: في قوله ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ جاء في (الشهاب): ومعنىٰ ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ﴾ أهلكه، **ودمّر عليه:** لكل ما يختص به من المال والنفس، والثاني: أبلغ؛ لما فيه من العموم، بجعل مفعوله نسيًا منسيًا، فيتناول نفسه، وكل ما يختص به من المال، ونحوه. والإتيان بعلىٰ؛ لتضمينه معنىٰ أطبق عليهم؛ أي: أوقعه عليهم محيطًا بهم[1].

ومنها: استخدام أسلوب الترهيب والترغيب في الدعوة، فهنا حكىٰ الله ما يرهبهم من تدمير الأمم السابقة التي كذبت رسلها، وهذا الأسلوب نافع مع أكثر الناس الذين لا يأتون إلىٰ الحق إلا بتخويفهم عواقب كفرهم.

ومنها: أن قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ دليلٌ علىٰ أن سنةَ الله في المكذبين والكافرين واحدةٌ لا تتغير، فإن الله عَزَّوَجَلَّ بالمرصاد لكل من طغىٰ واعتدىٰ وتكبر.

ومنها: أن في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ بجمع أمثال، بدلًا من قوله «مثلها» إشارة إلىٰ أن ما يُرمَىٰ به الكافرون من مُهلكات، ليس علىٰ صورة واحدة، بل إن لكل أمةٍ، ولكل جماعة لونا من ألوان الهلاك...

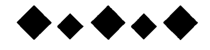
---

(١) الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (حـ٢٧/ ١٧٢)، طـ١/ ١٤٢١هـ، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان.

ومنها: أنه وإن كان الله يهلك ويدمر من شاء إلا أن الأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية كإعداد العدّة واتقاء التنازع الذي يولّد الفشل ويفرّق الكلمة كل ذلك واجبٌ على المتوكل، ثم بعد ذلك يكل الأمر إليه فيما لا تصل إليه الأيدي من الأسباب ويتوقف عليه حصول النجاح.

ومنها: أنه إذا كان كلُّ فسادٍ ونقص في الأرض مطلقًا سببه المعاصي، فكل خير ونمو وبركة وإجابةِ دعوات ودفعِ نِقْمات وإعطاءِ طلبات، فإنما سببه تقوى الله تعالى، والقيامُ بحقه، فبكفرهم هلكوا؛ وكذلك لو آمن الناس لفتح لهم من كل خير.

ومنها: دور دراسة وتحليل حوادث التاريخ في التوصل إلى الحقيقة، وأنه الطريق الأهم الذي يأخذ بأيديهم من سَفْحِ الجاهلية الهابط إلى قمة الهداية السامقة.



في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ **فوائد:**

منها: «رحمة الله ولطفه بالمؤمنين فإنه سبحانه لم يقل: مولى الزهّاد والعبّاد وأصحاب الأوراد والاجتهاد فالمؤمن -وإن كان عاصيًا- من جملة الذين آمنوا، لا سيما و﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل، والفعل لا عموم له». قاله القشيريُّ[1].

---

(١) تفسير القشيري (حـ٣/ ٤٠٦).

ومنها: قال الجزري في النهاية[1]: «المولىٰ» اسم يقع علىٰ جماعة كثيرة فهو الرب والمالك والسيد والمنعم والمعتق والناصر والمحب والتابع والجار وابن العم والحليف والصهر والعبد والمعتق والمنعم عليه»[2].

ومنها: أن الولاية نوعان:

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «**الولاية تنقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: ولاية مطلقة وهذه لله عَزَّوَجَلَّ كالسيادة المطلقة، وولاية الله بالمعنىٰ العام شاملة لكل أحد قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢]، فجعل له سبحانه الولاية علىٰ هؤلاء المفترين، وهذه ولاية عامة، وأما بالمعنىٰ الخاص فهي خاصة بالمؤمنين المتقين قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ وهذه ولاية خاصة.

القسم الثاني: ولاية مقيدة مضافة، فهذه تكون لغير الله، ولها في اللغة معان كثيرة منها: الناصر، والمتولي للأمور، والسيد، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ...﴾ [التحريم:٤].

---

(١) مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (حـ٥/ ٢٢٨)، ط المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ.

(٢) وقد ساق الأدلة من القرآن والسنة وأشعار العرب علىٰ كل لفظة أبو المنذر سلمة بن مسلم العُماني في كتابه: (الإبانة) (حـ٤/ ٤٠٥-٤٠٦).

(٣) محمد بن صالح بن محمد العثيمين، مجموع فتاوىٰ ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، الطبعة: الأخيرة - ١٤١٣هـ، دار الوطن - دار الثريا.

ومنها: أن الوليّ والمولي في كلام العرب واحد.

ومنها: **قال ابن أبي العز**(١): هذه الولاية من رحمته وإحسانه، ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجة إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء:١١١]. فالله تعالىٰ ليس له وَلِيٌّ من الذل، بل لله العزةُ جميعًا، خلاف الملوك وغيرهم ممن يتولاه لذُلِّه وحاجته إلىٰ وليٍّ ينصره.

ومنها: التوفيق بين قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠].

قال الزمخشريُّ: «لا تناقض بينهما، لأن الله مولَىٰ عباده جميعًا علىٰ معنىٰ أنه ربُّهم ومالكُ أمرهم، وأما علىٰ معنىٰ الناصر فهو مولىٰ المؤمنين خاصة»، وقال **الألوسي**(٢): «ولا يناقض هذا قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢]؛ لأن المولىٰ هناك بمعنىٰ المالك، فلم يتوارد النفي والإثبات علىٰ معنىٰ واحد». اهـ.

وأخرج أبو الشيخ عن السُّدّي في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢] قال: نسَخَها قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

ومنها: التوفيق بين قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا

---

(١) صدر الدين محمد بن علاء الدين ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية (ص:٣٥٨)، ط١/ ١٤٢٦هـ، دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة.

(٢) شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (حـ١٣/ ٢٠٢).

جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:٢٧]، ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف:٣٠]. وفي الأنفال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال:٧٣].

والإجابة على ذلك من خلال:

الأول: أن المقصود لا مولىٰ لهم علىٰ الحقيقة، لأن مرجع الولاية إلىٰ النصرة والعون في محبة وعطف، فلا ناصر لهم ولا معين. ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ [الحشر:١٦].

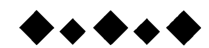
الثاني: أن المقصود لا مولىٰ لهم ولاية كاملة، فهذا الضرب من الولاية موالاة دنيوية غير خالصة ولا نافعة في الأخرىٰ؛ لقوله تعالىٰ في أهلها: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر:١٤] «فإن نفعتهم هذه الولاية في الدنيا فيما يبدو للناس فلن تنفعهم في الآخرة ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الدخان:٤١].

ومنها: لماذا لم يقل سبحانه: «ولستُ مولىٰ الذين كفروا»؟

لأنه سبحانه لا هو مولىٰ للكافرين، ولا أولياؤهم الذين يتخذونهم آلهة من دون الله موالي لهم؛ لأنهم يوم القيامة يتبرؤون منهم، كما قال تعالىٰ علىٰ لسان إبليس: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ...﴾ [إبراهيم:٢٢].

ومنها: أنه إذا تولاَّك الله برعايته وبتوفيقه وهدايته في الدنيا والآخرة؛ فإنَّك تسعد سعادةً لا شقاءً بعدها أبدًا، في الدنيا يتولاَّك بالهداية والتوفيق والسير على المنهج السليم، وفي الآخرة يتولاَّك بأن يُدخلك جنته خالدًا مخلَّدًا فيها لا خوفٌ ولا مرضٌ ولا شقاء ولا كرب ولا مكاره، وهذه ولاية الله لعبده المؤمن في الدنيا والآخرة.

ومنها: **قال شيخ الإسلام**[1]: «إن الولاية تَثبت من الطرفين، وإن كان أَحَدُ المتوالِيَيْن أعظم قدرًا، وولايته إحسانٌ وتفضل، وولاية الآخر طاعةٌ وعبادة كما أن الله يحب المؤمنين، والمؤمنون يحبونه، فإن الموالاة ضد المعاداة والمحاربة والمخادعة، والكفار لا يحبون الله ورسوله، ويحادُّون الله ورسوله ويعادونه». اهـ.



في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ **فوائد**:

منها: أن هذه الآية تحكي صورة من صور ولاية الله للمؤمنين التي ذكرها في الآية السابقة، فذكر الإمام الشوكاني في هذا الجزء من الآية أنه مسوق لبيان ولاية الله تعالى لهم، أي للمؤمنين.

---

(١) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، (حـ٧/ ٣٢٢)، ط١/ ١٤٠٦هـ)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ومنهــا: قــال الــرازي[1]: «قــال في حــق المــؤمن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ...﴾ بصيغة الوعد، وقال في حق الكـافر: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ بصيغة تُنبئ عن الاستحقاق لما ذَكَرْنا أن الإحسان لا يستدعي أن يكون عن استحقاق، فالمحسن إلىٰ مَنْ لم يوجد منه ما يوجب الإحسان كريمٌ، والمعذِّبُ من غير استحقاق ظالم».

ومنها: «أنه ليس هناك خُسران أشد من أن يخسر الإنسان آدميته ويندرج في عالم البهيميّة، وهذا هو الذي يقع حتمًا بمجرد التملص من الدَّيْنُونة لله وحده، والوقوع في الدينونة للهوىٰ والشهوة».

ومنها: «أن من لم يكن الله مولاه وُكِلَ إلىٰ نفسه، فلم يتَّصِف بصفات المروءة، ولا الصفات الإنسانية، بل ينزل عنها دَرَكات، ويصير كالأنعام، التي لا عقل لها ولا فضل». كما يقول السعدي[2]. فاللهم لا تحرمنا ولايتك.

ومنها: أن الكفار لهم حظٌ في الدنيا ربما لا يكون للمؤمنين فهم يتمتعون بها كما وصف الله، وذلك لئلا يكون لهم حظٌ في الآخرة.

ومنها: أن كثرة الأكل والتمتع الباطل الذي لا فائدة فيه ولا نيةَ معه مذمومٌ.

ومنها: أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولو تزن ما سقَىٰ الكافر منها شربة ماء.

ومنها: أن ذكر ما عند الكفار من أخلاق محمودة علىٰ وجه الإعجاب

---

(١) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب (حـ٢٨/ ٤٥).

(٢) تفسير السعدي (ص:٧٨٦).

بهم، وتعظيم شأنهم، والمدح لهم بلا موجِبٍ شرعي حرامٌ؛ لأن ذلك مناقِض لحُكمِ الله فيهم، والله قد ذمهم وتوعدهم وشبههم بالأنعام، فالمدح والثناء فَرْعُ المحبة، ومحبة المؤمن لا تكون إلا لأخيه المؤمن.

ومما ورد في ذلك[١]: ما قاله العلامة صديق حسن خان في كتابه (العبرة فيما ورد في الغزو والشهادة والهجرة).

«مَدْحُ الكفارِ لكفرهم ارتدادٌ عن دين الإسلام، ومدحُهُم مجردًا عن هذا القصد كبيرةٌ يعزَّرُ مُرتكِبُها بما يكون زاجرًا له». وقال العلامة الأهدل: «أما حكمُ مَن يمدحهم فهو فاسقٌ عاصٍ مرتكبٌ لكبيرة، يجب عليه التوبة منها، والندم عليها، هذا إذا كان مدْحُه لذات الكفار من غير ملاحظةِ صفة الكفر التي فيهم، فإنْ مَدَحَهم مِن حيث صفة الكفر فهو كافر، كأنه مَدَحَ الكفرَ».

ومنها: أن العقيدةَ الإسلامية تجعل المسلمَ يوازنُ بين عقلِه وروحه وجسمه، فلا يهتم بجانب علىٰ حساب الآخَر.

ومنها: أن هناك شَبهًا بين أكل الكافرين وأكل الأنعام:

- فالأنعام تأكل من أيِّ موضع بلا تمييز، وكذلك الكافر لا تمييز له بين الحلال والحرام.

- كذلك الأنعام ليس لها وقت لأكلها بل في كل وقت تَقْتَاتُ وتأكلُ،

---

(١) أبو فيصل البدراني، الولاء والبراء والعداء في الإسلام (ص:٦٤).

وكذلك الكافر، وفي الخبر: «إنه يأكل في سبعة أمعاء»[١]، أمّا المؤمن فيكتفي بالقليل كما في الخبر: «إن كان ولا بد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس»[٢] و«ما ملأ ابن آدم وعاء شرّا من بطنه»[٣]. قاله القشيري[٤].

- «وكذلك الذين كفروا يَأكلُونَ غافلين غير مفكرين في العاقبة كَما تَأكلُ الْأنعامُ في مسارحها ومعالفها، غافلةً عما هي بصدده من النحر والذبح». قاله الزمخشريُّ.

ومنها: من كان في حالِ أكلِه ناسيًا ربَّه فأكلُه كأكل الأنعام.

ومنها: أن الكفار ليس لهم هَمٌّ في دنياهم إلا الانكباب علىٰ الأكل والتمتع في الدنيا، ويوم القيامة النار تكون جزاءً لهم.

ومنها: أن قوله: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾ في مقابلة قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دليلٌ علىٰ أن الدنيا إنما جعلت لجنْيِ الحسنات وعمل الصالحات، ولم تجعل للهو واللعب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...﴾ فنعيم الدنيا خيال باطل، وظل زائل.

وقيل: إن هذا ليس من المقابلة، ولكن هو من قبيل «الاحتباك»[٥] فَذِكْرُ

---

(١) البخاريّ (٥٣٩٣)، مسلم (١٨٢-٢٠٦٠) من حديث ابن عمر وأبي هريرة وغيرهما.

(٢) سنن ابن ماجة (٣٣٤٩) بهذا اللفظ، وقال الأرناؤوط في تحقيقه: صحيح بطرقه.

(٣) هذه الجملة وما قبلها حديثٌ واحد أخرجه الحاكم في مستدركه (٧٩٤٥) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقيُّ في الشعب (٥٢٦١).

(٤) تفسير القشيري (٣/ ٤٠٧).

(٥) هو عند أهل البلاغة من أنواع الحذف، وقال الأندلسي في شرح البديعة: «ومن أنواع البديع=

الأعمال الصالحة، ودخولِ الجنة أولا دليلٌ على حذف الأعمال الفاسدة، ودخول النار ثانيًا، والتمتع والمثوىٰ ثانيًا دليلٌ علىٰ حذف التمتع والمثوىٰ أوّلًا.

ومنها: أن المثوىٰ: مكان الثَّواء، والثَّواء: الاستقرار، وتقدم في قوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ [الأنعام:١٢٨]. وعدل عن الإضافة فقيل: ﴿مَثْوًى لَّهُمْ﴾ بالتعليق باللام التي شأنها أن تُنوَّن في الإضافة ليفاد بالتنوين معنىٰ التمكن من القرار في النار مثوىٰ، أي مثوًىٰ قويًا لهم؛ لأن الإخبار عن النار في هذه الآية حصل قبل مشاهدتها، فلذلك أضيفت في قوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾؛ لأنه إخبار عنها وهم يشاهدونها في المحشر(١).



= الاحتِباك وهو نوعٌ عزيز: وهو أن يُحذف من الأول ما أُثبِتَ نظيره في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول»، وذكره الزركشي في البرهان ولم يسمّه هذا الاسم بل سمّاه الحذف المقابلي، وأفرده بالتصنيف العلامة برهان الدين البقاعي.

(١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (حـ٢٦/ ٩٠) الدار التونسية للنشر- تونس - ١٩٨٤هـ.

مائدة

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾.

المعنى الإجمالي:

وتبدأ الآيات في هذا المشهد بتسلية النبيّ ﷺ على ما يلاقي من عِناد قَومه وجحودِهم، بأن الله قد أهلك مِن قبلهم قرونًا كانت أشدَّ قوةً وأكثر جمعًا، فإن كانوا أخرجوك فإنما ذلك لأجَلٍ، وينتظرهم العقاب الذي يُذهِبُ غيظَ قلبِك وقلوبِ المؤمنين، فليس من يُقيم على منهج الله وتوحيده ويستمد قوته من منهج الله فيسير على بصيرة ليس كحال الكافرين الذين يتَّبعون أهواءهم، فلا يستوي الفريقان لا في العمل ولا في الجزاء. ثم ذكر سبحانه صورة الجزاء الأُخرَوي مُفصَّلًا هنا، فيصف لهم الجنةَ، وما أعد الله فيها من النعيم لأوليائه، ففيها من كل ما يُشتهَىٰ، من شرابٍ وطعامٍ وغيره، ففيها أنهارُ الماء الذي يتميز بوصفه عن ماء الدنيا؛ فهو غير آسن، وكذلك اللبن الذي لا تُؤثِّر

فيه الظروف فيتغير طعمُه؛ وكذلك الخَمْر التي لا تُذهِب العقلَ ولا تُفسدُ الطبعَ، فهو لذة للشاربين؛ وكذلك أنهارُ العسلِ المُصفَّىٰ، فكل ذلك صَنَعَهُ اللهُ لأوليائه، وليس هذا وفقط، بل جعلَ لهم من كل الثمرات التي لا تَخطُر علىٰ قلبِ بشر، وهذه لذات الجسد، أما لذاتُ الروحِ فجعل لهم الرِّضوان الدائم بمغفرة ذنوبهم، وإن كان هذا الجزاء لمن أطاع الله ورسوله، فما هو جزاء مَن عصىٰ الله واتبع غير سبيله وعادىٰ أولياءه؟ إنما جزاؤهم الخلود في العذاب المقيم، ولهم من السقاية كما للمؤمنين من أنهار إلا أن الكافرين لا يُسْقَوْنَ إلا الماءَ الحميم الذي يُقطِّعُ الأمعاءَ ويذيب الأحشاء -عافانا الله وإياكم-.

فائدة

في قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ ... ﴾

فوائد:

منها: علىٰ المحب أن يُسلِّي حبيبه، فهنا تسليةُ اللهُ تعالىٰ رسولَه الكريم، فيخبره أن كثيرًا من أهل القرىٰ السابقين كانوا أشدَّ بأسًا وقوة من مكة التي أخرجك أهلُها، ومع ذلك فقد أهلكهم الله بأنواع العذاب، فلم ينصُرهم أحد، ولم يمنع العذابَ عنهم أحد.

ومنها: أنه علىٰ العبد أن يَتصبَّر لمُصابه بمصائب الآخرين، ففيها ما هو أشد من مصيبته، وفي هذا المعنىٰ قال بعضهم:

وإذا ذكرتَ مصيبةً تَسْلُو بها … فاذكُرْ مُصابَك بالنبيِّ محمدِ

ومنها: أن اتباع الهوىٰ، والفساد في الأرض، يَجُرَّان دائما إلىٰ الخراب والدمار.

ومنهـا: أن كلمة ﴿وَكَأَيِّن﴾ مركبة من كاف التشبيه وأي الاستفهامية المنوَّنة، ثم هُجِر معنىٰ جُزأيها وصارت كلمةً واحدة بمعنىٰ كم الخبرية الدالة علىٰ التكثير، ويُكنَىٰ بها عن عدد مُبهَمٍ فتحتاج إلىٰ تمييز بعدها. وهي مبتدأ... وقوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ خبرها. ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ تمييزٌ لها[1].

ومنها: من كان علىٰ عِظام الأمور قادرًا فهو علي أصغرها أقدر، فالذي أهلك أشد الأمم لمخالفتهم هو قادرٌ علىٰ من هم دونهم.

ومنها: أنه جاء استعمال العرب للقرية: تارة للمكان، وتارة للسكان، وقد جاء القرآن بذلك كله، قال تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف:٤]، فالمراد بالقرية هنا السكان؛ وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ [الكهف:٥٩]، والمراد السكان.

وقد أطلق لفظ القرية، وأريد به المكان، قال تعالىٰ: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ [البقرة:٢٥٩] الآية.

فالحاصل: أن العرب تطلق هذا اللفظ، وتريد به تارة المكان، وتارة السكان، والسياق هو الذي يحدد ذلك، فهو أسلوب من أساليب العربية المعروفة.

---

(١) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم (حـ١٣/ ٢٢٨)، ط١/ ١٩٩٨م، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة.

ومنها: أنه كان هناك من هو أشد قوةً من أهل مكة في جبروتها وعنادها.

ومنها: أن الشيء ربما يُنسب لمن كان سببًا فيه، وإن لم يفعله هو، فمشركو قريشٍ لم يُخرِجوا النبيَّ ﷺ، إنما هو مَن خَرَجَ، وقد أمره الله بالهجرة، إلا أن أفعالهم واضطهادهم للنبيِّ ﷺ وصحابتِه كان سببًا في خروجه، رغم أن النبيَّ ﷺ أسند الخروجَ لهم في حديثه عند خروجه: «... وَلَوْلَا أَن أهلك أَخرجُونِي مِنْك لم أخرج مِنْك...»؛ وكذلك حديث ورقة ابن نوفل: «يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قال: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ»[١]، والمعنىٰ: أي كانوا سببًا في خروجك. وعلىٰ هذا يكون التوفيق بين قوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ...﴾، وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ...﴾ علىٰ رأي القائلين بأن المقصود بالأرض في الآية الثانية مكة؛ وكذلك التوفيق بين الأحاديث المثبِتة والآيات النافية، فالآية الأولىٰ تُخبر أنهم أخرجوه، والثانية تثبت عكس ذلك، فأُجيب: بأنهم هَمُّوا بإخراجه وهو ﷺ ما خرج بسبب إخراجهم، وإنما خَرَجَ بأمر الله تعالىٰ، وحينئذٍ فلا تناقض. كما يقول الخطيب الشربيني[٢].

وقد جاء التصريح بالْهَمِّ في سورة التوبة، قال تعالىٰ: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا

---

(١) البخاري (٣)، باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله، مسلم (٢٥٢-١٦٠) باب بدء الوحي إلىٰ سول الله.

(٢) شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (حـ٢/ ٣٢٥)، مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة، ١٢٨٥هـ.

﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ ...﴾ [التوبة:١٣].

ومنها: ضرورة النظر في أخبار السالفين وأخذ العبر والعظات، فمَن تأمَّل حال سابِقِيه تبين له طريق الصواب، وعرف مواطن الزلل.

ومنها: الحديث حول مكية ومدنية الآية:

قال محمد صديق خان(١): «قال الماوردي: سورة محمد سورةٌ مدنية في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا: إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلىٰ البيت وهو يبكي حزنًا عليه، فنزل قوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ...﴾، وهذا مبنيٌّ علىٰ أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمشهور أن المكيَّ ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، ولو في مكة، فعليه تكون هذه الآية مدنية، وهذا كله مَبنِيٌّ علىٰ هذا النقل الذي نقله الماوردي هنا، ونقله القرطبي أيضًا هنا.

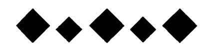
والذي نقله الخازن والخطيب وغيرهما بل والقرطبي أنها نزلت لمَّا خرج من مكة إلىٰ الغار مُهاجرًا، والنقل الثاني هو الصحيح؛ لأنه هو الذي يناسبه التوعد بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾، وأما علىٰ النقل الأول فلا يظهر هذا الوعيد؛ لأنه في حجة الوداع فارقها مختارًا بعدما صارت دارَ إسلامٍ وأسلم جميع أهلها».

ومنها: لطف الله بأمة النبيِّ ﷺ وخاصة قريش التي منعت النبيّ ﷺ مِن

---

(١) أبو الطيب محمد صديق خان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن (حـ١٣/ ٤٦)، ط المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا - بَيروت - ١٤١٢ هـ.

نَشْرِ دعوته، ووقفت في طريق الدين الجديد، فقد كانوا أهلًا للهلاك إلا أن الله أمهلهم، ولم ينزل بهم من العذاب والاستئصال والإبادة ما نزل بغيرهم من الأمم السابقة.



وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ **فوائد:**

منها: معنىٰ «البيِّنة»: هي الضياء والحجّة، والاستبصار بواضح المحجة. وهي كتابه الذي أنزله علىٰ رسوله، وسائر الحجج التي أقامها في الآفاق والأنفس.

ومنها: أن فيها دليلًا علىٰ عِلة وسبب إثابة المؤمن وتعذيب الكافر، فاتباعُ الهُدىٰ نجاةٌ واتباعُ الهوىٰ ضياع.

ومنها: أن هذه الآية تَستَحِثُّ العقلَ وتستنهضُ الفكرَ إلىٰ ضرورة النظر، والتمييز بين الحق والباطل، والصحيح والفاسد، والضار والنافع، والتسامي عن الانقياد الأعمىٰ للآباء، واتباع الشهوات، بعد بيان نعيم المؤمنين، وشقاء الكافرين[1].

ومنها: «أنها دليل علىٰ عِظَمِ التفاوتِ بين أهل الحقِّ وأهل الباطل والبغي، فلا يستوي من هو علىٰ بصيرة من أمر دينه، عِلمًا وعملًا قد عَلِمَ الحق واتبعه، ورجا ما وعده الله لأهل الحق، كمن هو أعمىٰ القلب، قد رفض الحق وأضله،

---

(١) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (حـ٩/ ٩٥٦)، ط١/ ١٣٩٣هـ.

واتبع هواه بغير هدىٰ من الله، ومع ذلك يرىٰ أن ما هو عليه من الحق، فما أبعد الفرق بين الفريقين! وما أعظم التفاوت بين الطائفتين، أهل الحق وأهل الغَي» قاله السعدي[١].

ومنها: «أن في التعبير بوصف الرب وإضافته إلىٰ ضمير الفريق تنبيهًا علىٰ زُلفَىٰ الفريق الذي تَمَسَّك بحجة الله». قاله ابن عاشور[٢].

ومنها: أن هناك فرقًا بين أخذ العلم عن مُتضلِّعٍ فيه وأخذه عن مستضعف فيه وإن كان مصيبا. قاله ابن عاشور.

ومنها: «أنه إنما بُنِيَ فعلُ زُيِّنَ للمجهول ليشمل المزيِّنين لهم من أئمة كفرهم، وما سوَّلته لهم أيضا عقولُهم الآفنة من أفعالهم السيئة اغترارًا بالإِلْف، أو اتباعًا للذات العاجلة، أو لجلب الرئاسة». قاله ابن عاشور.

ومنها: أن قوله: ﴿زُيِّنَ﴾ ثم بعد ذلك قال: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ إشارةً إلىٰ أن القبيحَ يكون أولًا قليلًا جدًّا، فمتىٰ غفل عنه فلم تحسم مادته دَبَّ وانتَشَر» قاله البقاعي.

فكان في أول أمره تزيينًا ثم صار ممارسة لهذا التزيين؛ وكذلك بداية الآية بالضمير المفرد في قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ﴾ ثم ختمها بضمير الجمع في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ فيه لفتةٌ بلاغية علىٰ معنىٰ التدرج أيضًا.

ومنها: أن من زُينَ له شيءٌ فلم يردّه بالبينة والحجة هلك.

---

(١) تفسير السعدي، (ص:٧٨٦).

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (حـ٢٦/ ٩٣).

ومنها: أن من تزين له شيءٌ يصعب أن يرجع عنه، يقول صاحب (المنار)[١]: «وقد يُحبُّ الإنسانُ الشيءَ وهو يراه من الشَّيْن لا من الزَّيْن، ومن الضار لا من النافع، ويَوَدّ لذلك لو لم يكن يحبه، ومن أحب شيئًا ولم يزين له يوشك أن يرجع عن حبه يومًا، وأما مَن زُيِّن له حبُّه الشيءَ فلا يكاد يرجِعُ عنه؛ لأن ذلك منتهىٰ الحب، وصاحبه لا يكاد يَفْطِنُ لقُبحه وضرَره إن كان قبيحًا أو ضارًا، ولا يحب أن يرجعَ وإن تأذىٰ به.

قال قيس بن الملوح:

وَقَالُوا لَوْ تَشَاءُ سَلَوْتَ عَنْهَا فَقُلْتُ لَهُمْ وَإِنِّي لا أَشَاءُ

ومنها: أن الآية من الاحتباك[٢]، فذِكْرُ البينةِ أولًا دليلٌ علىٰ ضدها ثانيًا، والتزيين واتباع الهوىٰ ثانيًا دليلٌ علىٰ ضدهما أولًا.

ومنها: أن الوقوف علىٰ البينة والحجة هو الأصل الجامع للخير، وتزيين العمل هو الأصل الجامع للشر.

ومنها: مدىٰ سوء وضرر اتباع الهوىٰ، لأن من راجت الشبهة عليه قد يتفكر في الأمر ويرجع إلىٰ الحق، فيكون أقرب إلىٰ من هو علىٰ البرهان، أما اتباع الهوىٰ يجعل صاحبه لا يتدبر في البرهان ولا يتفكر في البيان فيكون في غاية البعد.

---

(١) محمد رشيد بن علي رضا، تفسير المنار (حـ٣/ ١٩٦)، طـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

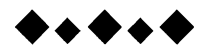
(٢) الاحتباك: وَهُوَ أَن يُحذف من الأول مَا أثبت نَظِيره فِي الثَّانِي، ويحذف من الثَّانِي مَا أثبت نَظِيره فِي الأول... وقد سبق ذكره.

ومنها: أن قوله: ﴿وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ يفيد معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ...﴾ [النساء:٧٩]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، فإنما يهلك من يهلك بما كسبت يداه.

ومنها: أن اتباع الأهواء هو طاعتها كأنها تذهب إلىٰ ناحية والمرء يذهب معها.

ومنها: أن الأهواء المعوجّة، والأفهام المنحرفة، وإن أُعجِبَ بها أهلُها لا تَثبُت أمامَ الحق المبين المعتمد علىٰ العلم والفهم الصحيح المستمد من كتاب الله تعالىٰ، والسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ.

ومنها: استحالة اجتماع الحكمة والهوىٰ، فمن أراد الحكمة فعليه بمفارقة الهوىٰ، وليلزمْ ما أمرَ اللهُ به.



وفي قوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ **فوائد:**

منها: كيف عادل الله بين الجنة التي فيها أنهار وبين من هو خالد في النار؟؟

قال الزمخشريُّ: «هو كلام في صورة الإثبات ومعناه النفي والإنكار، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار، ودخوله في حيزه، وانخراطه

في سلكه، وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، فكأنه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد في النار، أي كمثل جزاء من هو خالد في النار. فإن قلت: فلم عرّىٰ في حرف الإنكار؟ وما فائدة التعرية؟ قلت: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوّىٰ بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجرىٰ فيها تلك الأنهار، وبين النار التي يسقىٰ أهلها الحميم».

قال ابن المنير السكندريُّ في حاشيته (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف) معلقًا علىٰ هذا الكلام: «بعد نقله كمْ ذَكَرَ الناسُ في تأويل هذه الآية، فلم أرَ أطلَىٰ ولا أحلَىٰ من هذه النكت التي ذكرها، لا يعوزها إلا للتنبيه علىٰ أن في الكلام محذوفا لا بد من تقديره لأنه لا معادلة بين الجنة وبين الخالدين في النار إلا علىٰ تقدير مثل ساكن فيه يقوم وزن الكلام ويتعادل كفتاه».

ومنها: أن الجنة لها أحكامها الخاصة، فلا تخضع لقوانين الدنيا، فلا آفات فيها.

ومنها: أن أنهار الجنة ليست ماءً فحسب، بل منها الماء، ومنها اللبن، ومنها الخمر، ومنها العسل المصفىٰ، وقد ورد أيضا في السنة فعند الترمذي[1]، وغيره بسندٍ صححه الألبانيُّ من حديث حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **«إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَحْرَ المَاءِ وَبَحْرَ العَسَلِ وَبَحْرَ اللَّبَنِ وَبَحْرَ الخَمْرِ، ثُمَّ تُشَقَّقُ الأَنْهَارُ بَعْدُ»**.

(١) سنن الترمذيّ (٢٥٧١) باب ما جاء في صفة أنهار الجنة.

ومنها: أن الذي ذُكر في الآية الكريمة هو آية من آيات الرب سبحانه، توضح لنا قدرته من خلال: نفي آفات هذه الأشياء الأربع؛ وكذلك أنه سبحانه أجرىٰ أنهارًا من أشياء لم تكن بالدنيا.

قال ابن القيم(١): «فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة ونفىٰ عن كل واحد منهما الآفة التي تعرض له في الدنيا، فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلىٰ الحموضة وأن يصير قارصا، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها، وآفة العسل عدم تصفيته، وهذا من آيات الرب تعالىٰ أن يجريَ أنهارًا من أجناسٍ لم تجر العادةُ في الدنيا بإجرائها، ويجريها في غير أخدود، وينفىٰ عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها، كما نفىٰ عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو ونزف المال وتصدع الرأس، وهي كريهة المذاق، وهي رجس من عمل الشيطان توقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وتدعو إلىٰ الزنا، وربما دعت إلىٰ الوقوع علىٰ البنت وذوات المحارم، وتذهب الغيرة، وتورث الخزي والندامة والفضيحة، وتلحق شاربها بأنقص نوع الإنسان وهم المجانين، وتسلبه أحسن الأسماء والصفات، وتكسوه أقبح الأسماء والصفات...» اهـ.

ومنها: أن كل نعيم الجنة خالٍ من المنغصات، فكل ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة.

---

(١) محمد بن أبي بكر؛ ابن قيم الجوزية، حادي الأفراح إلىٰ بلاد الأفراح (ص:١٧٩)، ط مطبعة المدني، القاهرة.

ومنها: إعراب كلمة «مَثَلُ»: كلمة ﴿مَّثَلُ﴾ في الآية مبتدأ خبره محذوف مقدَّم تقديره «فيما يتلىٰ عليكم صفة الجنة» كما أعربه الإمام سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وذهب الفَرَّاءُ إلىٰ أن كلمة ﴿مَّثَلُ﴾ مبتدأ، وقوله تعالىٰ في نفس الآية: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ﴾ جملة خبرية هي خبر عن ﴿مَّثَلُ﴾.

ومنها: معنىٰ الـ«مَثَل» في الآية يدل علىٰ أن معناها كلما وردت ليس يُراد بها ضرب المثل فقط، بل لها معان:

فهي في القرآن على أربعة أوجه[1]:

الأول: الشبه، قال الله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾.

الثاني: العِبْرة، قال الله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾.

الثالث: علىٰ ما قيل الصفة، قال الله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: صفتها أن فيها أنهارا.

الرابع: السُّنَن، قال الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ يعني: سنن الذين من قبلكم». اهـ.

ومنها: أن الآية قررت حقيقةً علمية قبل أن يكشف العلم بوسائله وأدواته عالم الميكروبات، أي الجراثيم التي توجد في الماء الراكد الذىٰ يصير

---

(١) أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (المتوفىٰ: نحو ٣٩٥هـ)، الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري (معتزلي) (ص:٤٥٣)، ط١- ١٤٢٨هـ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

مستودَعًا لملايين البكتيريا والطفيليات الضارة التي تصيب الإنسان والحيوان بالأمراض، فقد رؤيَ كيف أن الماء الراكد يموج بملايين الكائنات الدقيقة التي لا تُرَىٰ بالعين المجردة وتتكاثر بسرعةٍ هائلةٍ فتُفسِد الماءَ وتجعله متغير الرائحة والطعم، وسببًا في الأمراض والأوبئة التي ما كان أحد يعرف مصدرها قبل اكتشافها»[١].

ومنها: أن ما ذكره الله في الآية وإن كان معلومًا لنا في الدنيا إلا أنها تختلف اختلافًا جذريًا عما في الجنة: «فما ذكره الله في الآخرة من أنواع المطاعم والمشارب، والمناكح والملابس، والمساكن، يشبه ما في الدنيا من هذه الأنواع في الاسم وفي المعنىٰ العام، وهذا التوافق في الاسم وفي الحقيقة من حيث العموم لم يوجب أن تكون حقائقُ الآخرة مثل حقائقِ الدنيا مِن كل وجه، بل بينهما بَوْنٌ شاسع وفَرقٌ بعيد، وقول ابن عباس: «ليس في الدنيا شيءٌ مما في الجنةِ إلا الأسماء» معناه أن التفاوت بينهما كبير في اللذة والكمال والعظمة...».

ومنها: أن المراد بالمغفرة هنا ستر ذنوبهم وعدم ذكرها لهم؛ لِئَلا يستحيوا فتتنغَّصُ لذتُهم، والمغفرة السابقة ستر الذنوب وعدم المؤاخذة بها. قاله الألوسي[٢].



---

(١) محمد إسماعيل إبراهيم، القرآن وإعجازه العلمي (ص:١١٧)، طـ دار الفكر العربي – دار الثقافة العربية للطباعة.

(٢) روح المعاني للألوسي (حـ١٣/ ٢٠٥).

فائدة

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾.

المعنى الإجمالي:

وبعد المقارنات السابقة بين المؤمنين والكافرين انتقلت الآياتُ هنا للمقارنة بين المؤمنين المهتدين والمنافقين، فالموازنةُ والمقارنة بين الأضداد تبيّن الفرق، فالمنافقون طَبع الله علىٰ قلوبهم بكفرهم واتبعوا أهواءهم في الكفر، فلا يخرج باطلهم الذي في قلوبهم ولا يدخل الهدىٰ إلىٰ قلوبهم؛ فقد طُبع عليها، أما المؤمنون فزادهم الله هدىً فوق هداهم فهم يستمعون للذكر ليتعلَّموا ويعملوا، وكلما عِلموا ازدادوا هداية، فيزيدهم الله هداية فوق هدايتهم جزاءً وفاقا، وفوق ذلك ألهمهم التقوىٰ، ووفقهم للعمل الذي فرض عليهم.

والعاقل هو من ينظر في مآلات الأمور، وهؤلاء المنافقون لم ينظروا في

عاقبة أمرهم، فقد جاءهم من الأدلة علىٰ صدقِ ما جاء به الرسولُ ﷺ ما فيه الكفاية؛ وكذلك ما أصاب المكذبين من ويلٍ وثبور، فأيّ شيءٍ يحتاجونه بعد ذلك ليتعظوا؟! فإنه لم يبق للاتعاظ سوىٰ مجيءِ الساعة بغتة، ومجيؤها سيُذهِب كل آمالهم ويضعهم في موقفٍ شديد يوم تُبلىٰ السرائر، فقد جاء أشراطها؛ فهي ليست ببعيدة، ويوم أن تأتيَ ليس يُجدِي وعظٌ ولا نُصحٌ ولن تقبل توبة ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾، وبهذا فهم قد وصلوا إلىٰ سقف العناد ومنتهىٰ الكِبْر، وإن كان هذا حالهم فيجب أن يكون حالك أيها النبيّ وكذلك أُمّتك هو الثبات علىٰ التوحيد، والإذعان، والخضوع لله رب العالمين الذي لا إله إلا هو، ولا يتوقف التسليم علىٰ القول باللسان؛ ولكن يجب أن يَتْبَعَ ذلك العملُ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ كشكل من أشكال الأعمال وكذلك الاستغفار للمؤمنين، فالحقوق إذن ثلاثة:

- حق الله: والمتمثل في قوله: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.
- ثم حق النفس: والمتمثل في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.
- والحق الثالث: هو حق المؤمنين، والمتمثل في قوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

والله بعد ذلك مَن يعلم أحوالكم في الدنيا ومآلكم في الآخرة. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾.

﴿ فائدة ﴾

في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ **فوائد:**

منها: أن الفعل إذا صادف محلًا قابلًا تم، وإلا لم يتم، فالفعل من النبيِّ ﷺ قد تم، وهو الإبلاغ، إلا أن قلوبهم ليست بمحلٍ قابلٍ لهذا العلم، كما حكى عنهم القرآن: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ [البقرة:٨٨]، وقال هنا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾، «فإن تمام التأثير موقوفٌ على مؤثرٍ مقتضٍ، ومحلٍّ قابلٍ، وشَرْطٍ لحصول الأثر، وانتفاءِ المانع الذي يمنع منه» كما يقول ابن القيم في مُفتتح كتابه (الفوائد).

ومنها: ليس كل مستمعٍ مستفيد، **فالناس ثلاثة**: فسامعٌ عامل، وسامعٌ غافل، وسامعٌ تارك، كما نقله الطبريُّ في تفسيره.

ومنها: العلم بالمحبوب يوَرِّثُ طلَبَه، والعلم بالمكروه يوَرِّثُ تركَه.

ومنها: أن ابن مسعود وابن عباس ممن أوتوا العلم بنص هذه الآية، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وقد سُئلتُ فيمَنْ سُئل». حكاه الطبري[١].

ومنها: أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا يستفيد.

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن (حـ٢٢/ ١٦٩) المحقق: أحمد محمد شاكر، ط١/ ١٤٢٠هـ، مؤسسة الرسالة.

ومنها: معنىٰ الاستماع: يقول ابن عاشور(١): **الاستماع**: أشد السمعِ وأقواه، أي يستمعون باهتمام يظهرون أنهم حريصون علىٰ وعْيِ ما يقوله الرسولُ ﷺ وأنهم يلقون إليه بالَهم، وهذا من استعمال الفعل في معنىٰ إظهاره لا في معنىٰ حصوله. وحَقُّ فِعلِ استمَعَ أن يُعَدَّىٰ إلىٰ المفعول بنفسه كما في قوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف:٢٩]، فإذا أريد تعلقه بالشخص المسموع منه يقال: استمع إلىٰ فلان كما قال هنا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وكذا جاء في مواقعه كلها من القرآن». اهـ.

ومنها: أن السؤال ليس مذمومًا في ذاته، فإنما شفاء العيِّ السؤال، ولكن قد تُذمُ هيئةُ السؤال أو سببُه.

ومنها: أنه مذمومٌ من ليس حظُّه من سماعِ المواعظ والآيات إلا سماع الصوت دون فهم المعنىٰ واتباعه، فالسماعُ النافع للمستمع هو ما عقل به ما يسمعه وَفَقِهَهُ وعمل بمقتضاه، فمَن فَقَدَ هذا كان كالأصمِّ الذي لا يسمع.

ومنها: أن صاحب الهوىٰ أعمىٰ أصمٌ أبكم، لا يرىٰ خيرًا ولا يسمع نُصحًا، ولا ينطق خيرًا، وصاحب الهوىٰ منافق؛ لأنه يميلُ حيث يميلُ هواه فيظهر بمظهر الجِد والحزم أمام الناس، ولكنه يفعل ما يمليه عليه هواه.

ومنها: الإعراض عن الدليل والاعتماد علىٰ أصحاب الهوىٰ سبب في حدوث البدع، والخروجِ عن منهج الصحابة والتابعين والسلف الصالح،

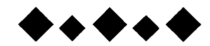
---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (حـ٢٦/ ٩٩).

فإنهم لما اتبعوا أهواءهم بغير علم ضلوا عن سواء السبيل(١).

ومنها: أن فيها الخوف على من لم يفهم القرآنَ أن يكون من المنافقين. بوَّبَه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في فضائل القرآن وساق هذه الآية.

ومنها: أن الله عَزَّوَجَلَّ ختم على قلوب قوم، وطبع عليها، ولم يُرِدْها لعبادته، وأرادها لمعصيته، فأعماها عن الحق فلم تبصره، وأصمَّها عن الحق فلم تسمعه، وأخزاها ولم يُطهِّرها، يفعل بخلقه ما يريد لا يجوز لقائل أن يقول: لِمَ فعل ذلك بهم؟! فمن قال ذلك، فقد عارض الله عَزَّوَجَلَّ في فعله، فضَلَّ عن طريق الحق، ثم اختص من عباده مَن أحب فشرح قلوبهم للإيمان وزينه في قلوبهم.



وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ **فوائد:**

منها: «في إسناد ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ إلى الله تعالى، وإسناد متابعة الهوى إليهم في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾: إيماءٌ إلى معنى قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠]، وتلويحٌ إلى أن متابعةَ الهوى مرضٌ روحانيٌّ، وملازمةَ التقوى دواءٌ إلهيٌّ، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾ [الإسراء:٨٢]». قاله الطيبيُّ في حاشيته على الكشاف(٢).

---

(١) عبد الله بن عبد العزيز بن أحمد التويجري، البدع الحولية (ص:٤٧)، ط-١-١٤٢١هـ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، الرياض.

(٢) شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، (حـ١٤/ ٣٤٣)، ط١/ ١٤٣٤هـ، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.

ومنها: إذا كان الله يزيدهم هدىً «فإن أهلَ السنة والهداية هم أكملُ الناس عقلا، وأعدلُهم قياسًا، وأصوبُهم رأيًا، وأَسدُّهم كلامًا، وأصحُّهم نظرًا، وأهداهم استدلالًا، وأقومُهُم جدلًا، وأتمُّهم فراسة، وأصدقُهم إلهامًا، وأحَدُّهمْ بَصرًا أو مكاشفة، وأصوبُهم سمعًا ومخاطبةً، وأعظمُهم وأحسنُهم وَجْدًا وذَوقًا، وهذا للمسلمين بالنسبة إلىٰ سائر الأمم، ولأهل السُنة والحديث بالنسبة إلىٰ سائر المِلل؛ وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقويِّ الإدراك»[١].

ومنها: قال ابن الوزير[٢]: «من قَبِلَ أمرَ الله، وآثر طاعته، وعَلِمَ اللهُ منه صدقَ النية في ذلك كلِّه، كان له من الله العونُ، والمنُّ الزائد، والتوفيقُ الزائد، وبذلك سَعِدَ، ومن علم اللهُ منه المعصيةَ، وركوب ما نهاه عنه، وإيثار هواه علىٰ طاعة الله، استوجب من الله الخذلان والترك، وبذلك شَقِيَ، ولم يكن له علىٰ الله هدايةٌ ولا منٌّ ولا توفيق.

ومنها: أن فعل الخير يؤدي إلىٰ التمادي في فعل الخير، فالحسنة تجلِبُ أُختَها.

ومنها: أن الله يَمُنَّ علىٰ من يشاء من عباده، ويتفضل عليه بتوفيقه ويهديه بامتنانه.

---

(١) سليمان بن سحمان الخثعمي التبالي العسيري النجدي، كشف غياهب الظلام عن أوهام جلاء الأوهام وبراءة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن مفتريات هذا الملحد الكذاب، (حـ١/ ١٧٠)، طـ١، أضواء السلف.

(٢) ابن الوزير؛ أبوعبد الله؛ محمد بن إبراهيم، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، تحقيق الأرناؤوط، (حـ٥/ ٣١٣)، طـ٣/ ١٤١٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

ومنها: مِن فَضْلِ الله ورحمته أن الذي يختارُ الخيرَ ويتجهُ إليه يُعينه الله عليه، وييسره له، يقول بعض أهل العلم: «من عمِل بما علِم أورثه الله علمَ مالم يعلَم، ومن لم يعمل بما علِم أوشك الله أن يسلبه ما علم».

ومنها: **أن الهدى قسمان: الأول**: هدىً هو فعل الله عَزَّوَجَلَّ لجميعِ المكلَّفين، ويشمل هدىٰ الدلالة، وهدىٰ اللطف والتثبيت والعصمة.

والقسم الثاني: هدىً هو فعل العبد، وهو المتوقف علىٰ اختياره، وهو العمل بمقتضىٰ هدىٰ الدلالة، وهو المعبر عنه بالاهتداء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾ [الأعراف:١٧٨]، وغيره من الآيات، فَفِعْلُ العبد هو قبول الهدىٰ»[١].

ومنها: أن هذه الآية ومثيلتها تفرق بين الهُدَىٰ الاختياري؛ وهو الأول، وبين الهُدَىٰ الاضطراري؛ وهو الثاني الذي وقع جزاءً علىٰ الأول.

ومنها: أنها دليلٌ علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري[٢]: «مذهب جماعة أهل السنة ممن سَلَف من الأمة وخَلَفها أن الإيمان قولٌ وعملٌ يزيد وينقص، والحُجَّة علىٰ زيادته ونقصانه ما أورده

---

(١) ابن الوزير، السابق (حـ٦/ ٦٣، ٦٤).

(٢) ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، شرح صحيح البخاري لابن بطال (حـ١/ ٥٦)، ط٢/ ١٤٢٣هـ، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض.

البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ من كتاب الله من ذكر الزيادة في الإيمان»[(١)].

ومنها: أنها ترغيب جليلٌ من الله سبحانه لعباده المؤمنين في عمل الطاعة، والاستجابة لهداية الأنبياء، فمن اهتدَىٰ زيد هدىً.

ومنها: أنه لا يُسلَّم أن الذين اهتدوا قبل الزيادة اهتدوا بأنفسهم، بل الله الذي هداهم ثم زادهم هدىٰ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾ [الأعراف:١٧٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦]، وهذا ردٌّ علىٰ القائلين بأن الزيادة في الهدي تختص بالمؤمنين الذين اهتدوا بالهدي العام، استنادًا علىٰ قوله: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم:٧٦].

ومنها: أن الهدىٰ من الإيمان، وقد جاء ذلك في القرآن في ثلاثة مواضع، وهي:

قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم:٧٦]. وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد:١٧]، وقوله في أصحاب الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ

---

(١) يعني الآيات التي ذكرها البخاري في ترجمة الباب: يَعْنِي قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾، وَقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾، وَقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ ﴾، وَقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ ﴾، وَقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾، وَقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾، وَقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ وَقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾.

هُدًى﴾ [الكهف:١٣]. فهذه الآيات فيها تصريح الحق سبحانه بزيادة الهُدىٰ، والهُدَىٰ من الإيمان، كما دل علىٰ ذلك كتابُ الله في نحو قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [البقرة:١٣٧]، وقوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران:٢٠] اهـ[١].

ومنها: أن في معنىٰ قوله: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ معانٍ: فقيل: أعانهم عليها. وقيل: آتاهم جزاء تقواهم، قاله سعيد بن جبير. وقيل: بيَّن لهم ما يتقون، قاله السُّدِّيّ. وقيل: التوفيق للعمل الذي يرضاه، قاله مقاتل. وقيل: خَلَقَ التقوىٰ فيهم بإِلْهَامِهِم إياها، قاله محمد صديق خان.

فقال أبو بكر الجزائريُّ: «أي ألهمهم ما يتقون وأعانهم علىٰ ذلك فهم يتقون مساخطَ الله تعالىٰ ومن أعظمها الشرك والمعاصي». وقال الشعراوي: «فإياك أن تظن أن التقوىٰ لن تنال ثوابَها وجزاءَها إلا في الآخرة؛ لأنه كلما فعلت أمرًا وتَلَفَّتَّ وجدتَ آثارَه في نفسِك».

ومنها: أن في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ -بعد ذكره لهدايتهم التي هي نور العلم؛ إشارة إلىٰ أن التقوىٰ التي يبلغها المؤمن بإيمانه هي مطلب أعظم من مطلب العلم، وأنها إنما تُنال بعد جهد ومصابرة»[٢].

---

(١) عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه (ص:٤٣)، ط١/ ١٤١٦هـ، مكتبة دار القلم والكتاب، الرياض، المملكة العربية السعودية.

(٢) عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن (حـ١٣/ ٣٣٧)، دار الفكر العربي – القاهرة.

ومنها: قال عبد الكريم الخطيب[1]: أن في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ -ما يشير إلىٰ أن تحصيل العلم ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة إلىٰ تحصيل الهدىٰ، وبالهدىٰ يكون تحصيل الصفات الطيبة، التي تكمّل الإنسان، وتُجمّله، وإنه لا أكملَ ولا أجملَ من التقوىٰ... كما يقول سبحانه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]، وقوله سبحانه. ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

ومن أجل هذا- والله أعلم- جاء فعل الهُدىٰ محمولا علىٰ فاعله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟...﴾ علىٰ حين جاء إتيان التقوىٰ مسنَدًا إلىٰ الفعّال المريد اللهِ ربِّ العالمين: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾؛ لأن التقوىٰ مطلب عسير، ومقام كريم، تمتد به يد الرحيم الكريم، إلىٰ من أخذوا بالأسباب إلىٰ التقوىٰ.

ومنها: أن التقوىٰ حالة في القلب تجعله أبدًا واجفًا من هيبة الله، شاعرًا برقابته، خائفًا من غضبه، متطلعا إلىٰ رضاه، متحرجًا مِن أن يراه الله علىٰ هيئة أو في حالة لا يرضاها...

ومنها: أنَّ ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ قرأها ابن مسعود والأعمش: «وأنطاهم تقواهم»، وهذا يسمىٰ الاستنطاء.

يفسر اللغويون هذه الظاهرة بأنها عبارة عن جعل العين الساكنة نونًا إذا جاورت الطاء، كقولهم: «أنطىٰ» بدلًا من أعطىٰ. ومن شواهدها: ما روته

---

(١) السابق، التفسير القرآني للقرآن (حـ١٣/ ٣٣٨).

أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن رسول الله ﷺ أنه قرأ «إنا أنطيناك الكوثر»، قال الخليل: «الإنطاء لغة في الإعطاء»، وقال الجوهري: «الإنطاء: الإعطاء بلغة اليمن». وعزاها ابن الأعرابي وابن الجوزي إلىٰ حِمْيَر. وقال التبريزي: «هي لغة العرب العاربة»، وعزاها السيوطي والزَّبيدي إلىٰ سعد بكر، وهذيل، والأزد، وقيس، والأنصار، وهم بطن من الأزد[1].



وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ **فوائد:**

منها: أنَّ ﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنىٰ: ينتظرون، فهو تهديدٌ ووعيدٌ كما تقول لمن أصرَّ علىٰ الذنوب والكفر: هل تنتظر إلا العذاب، **يقول الشنقيطي**[2]: «وكون ﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنىٰ ينتظرون معروف في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس:

فإنَّكُما إنْ تُنظِراني ساعةً مِن ... الدَّهرِ تَنْفعُنِي لَدَىٰ أمِّ جُندب

ومنها: معنىٰ الساعة: فهي اسم ليوم القيامة، قال ابن الأثير[3]: قال

(١) أحمد بن سعيد قشاش، الإبدال في لغات الأزد دراسة صوتية في ضوء علم اللغة الحديث (ص:٤٣٦)، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة (٣٤) - العدد (١١٧) - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(٢) أضواء البيان (حـ٧/ ١٣٩).

(٣) ابن الأثير ؛مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، (حـ٢/ ٤٢٢)، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ.

الزجاج: «معنىٰ الساعة في كل القرآن: الوقت الذي تقوم فيه القيامة، يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمرٌ عظيم، فلِقِلَّةِ الوقت الذي تقوم به سماها ساعة». انتهىٰ.

وقال ابن عثيمين في (شرح العقيدة السفارينية): «وسميت الساعة؛ لأنها ساعة مشقة وإنذار، وساعة عظيمة ومفزعة، وكل شيء يكون عظيمًا فإنه يسمىٰ ساعة». اهـ.

وقيل: سميت بذلك لسرعة الحسابِ فيها، أو لأنها تفاجئ الناس في ساعةٍ فيموت الخلقُ كلُّهم بِصَيْحة واحدة.

ومنها: أن الساعة تأتي بغتةً بنص الآية، وقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يقول أبو السعود[1]: «هي تعليلٌ لمفاجأتِها لا لإتيانِها مُطلقًا علىٰ معنىٰ أنَّه لم يبقَ من الأمورِ الموجبةِ للتذكرِ أمرٌ مترقبٌ ينتظرونَهُ سوىٰ إتيانِ نفسِ الساعةِ إذْ قد جاءَ أشراطُها». اهـ.

ومنها: أن مجيء أشراطها مؤذن باقترابها، والله تعالىٰ قد نبه إلىٰ قرب الساعة في مواضع من القرآن: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣].

ومنها: تعريف الأشراط. يقول عمر الأشقر[2]: الأشراط جمع شَرَط

---

(١) أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ، إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، (حـ٨/ ٩٧)، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، القيامة الصغرىٰ، (ص:١٢٧)، طـ٤- ١٤١١هـ، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، مكتبة الفلاح، الكويت.

«بفتحتين» وتعني: العلامة، وأشراطها: علاماتها. وفي (فتح الباري): «**المراد بالأشراط**: العلاماتُ التي يَعقبُها قيام الساعة». وقد أطلق بعضُ العلماء على هذه الأشراط اسم: «الآيات». و«**الآيات**»: هي الأمارات الدالة على الشيء، كالأمارات التي تُنصَبُ في الصحراء دالةً على الطريق، أو العلامات التي تُرفع على شواطئ البحر، تَهدي السفن، أو تلك التي تُوضع قريبًا من المدن لتَدل المسافرَ على قُربِ وصولِه إلى الديار التي وُضعت بقُربِها. يقول **الطيبي**: «**الآيات**: أمارات للساعة، إما على قربها، وإما على حصولها. **فمن الأول**: الدجال، ونزول عيسى، ويأجوج ومأجوج، والخسف. **ومن الثاني**: الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس». اهـ.

ومنها: أن الآية تدعو إلى الزهد وقِصَرِ الأمل، فإن أجَلَ الدنيا قريب، وإذا كان أَجَلُ الجماعة قريبًا، قَبُحَ من الواحد أن يُطيل أَملَه، فإن إطالتَه خداعٌ من المرء لنفسه، وسوءُ نظرٍ لأمرِه وأهلِه وولدِه وسائرِ من يعنيه شأنُه؛ لأنه لا ساعة إلا ويمكن أن يكون فيها انقضاء أجله، ويُدعَى فيها ولا يَجد بدًا من أن يجيبه، وفي الصحيح[1] عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ**».

ومنها: أن فيها تسليةً لقلوب المؤمنين، بأنه سيعذِّبُ مَن اعتدَى عليهم وتطاول، كأنه تعالى لما قال: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾، فُهِمَ منه تعذيبُهم.

---

(١) البخاري (٦٤١٦).

ومنها: أن الإيمان بأشراط الساعة يدخل في الإيمان باليوم الآخر وهو مما يجب الإيمان به، وأهل السنة والجماعة يثبتونها ويؤمنون بها. والإيمان باليوم الآخر أصل من أصول الدين، ومن لا يؤمن باليوم الآخر لا يؤمن بالله.

ومنها: هل جميع علامات الساعة ظهرت طالما عُبِّر عن ذلك بالفعل الماضي «جاء»؟ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورىٰ:١٧]، وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف:٦٦] والآيات في ذلك كثيرة. وأما الأحاديث فلا تكاد تُحصَىٰ. **والجواب**: أن الشيءَ إذا مضىٰ أكثره يجوز القول بأنه قد مضىٰ. وقد كانت بعثةُ النبي ﷺ من أشراط الساعة.

يقول السفاريني(١): وهو يجيب علىٰ قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر:١]: فإن قيل كيف يوصف بالاقتراب ما قد مضىٰ قبل وقوعه ألف ومائة ونيف وسبعون عاما؟، الأجل إذا مضىٰ أكثره وبقي أقله حسُنَ أن يقال فيه اقترب الأجل، ولا ريب أن أجل الدنيا قد مضىٰ أكثره وبقي أقلُّه، ولقرب قيام الساعة عنده تعالىٰ جعلها كغدٍ الذي بعد يومك فقال: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧]. ورُوىٰ البخاريّ من حديث سهل بن سعد، ومسلمٌ والترمذي وصححه مرفوعًا من

---

(١) شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، (حـ٢/ ٦٥)، ط٢/ ١٤٠٢هـ، مؤسسة الخافقين ومكتبتها – دمشق.

حديث أنس «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» وأشار بالسبابة والوسطىٰ فأفْضَلَ إحداهما علىٰ الأخرىٰ[1].

ومنها: أنواع أشراط الساعة[2]**: الأشراط قسَّمها العلماءُ قسمين:**

١- **علامات صغرى**: وهي التي تسبق مجيء الساعة بزمن، وتكون في الغالب من جنس أمورٍ معهودٍ أصلُها بين الناس.

٢- **علامات كبرى**: وهي أمور عجيبة وغريبة تظهر آخر الزمان، فيها إيذان بخراب العالم وانتهائه وقرب قيام الساعة وانقضاء الدنيا، مثل طلوع الشمس من مغربها، وخروج يأجوج ومأجوج، والدخان، والدابة.

ويقسِّم أهل العلم هذه الأشراط تقسيمًا آخر، بحسب ظهورها وعدمه، إلىٰ ثلاثة أقسام:

١- **قسم ظَهَرَ وانقضى.** ومنه بعثة النبيّ وانشقاق القمر.

٢- **قسم ظَهَرَ ولا يزال يظهر ويتتابع.** وهذان القسمان خاصان بالعلامات الصغرىٰ.

٣- **قسم لم يظهر بعد.**

ومنها: أن التهديد في الآية إنما هو دعوة لهؤلاء المشركين إلىٰ الاستجابة للرسول ﷺ إذا دعاهم لما يصلحهم، من قبْلِ أن يأتيَ يومٌ لا بيع فيه ولا خلال.

---

(١) البخاريّ (٤٩٣٦) ط المكنز، مسلم (٥٢٤٧)، الترمذيّ (٢٣٧٥) المكنز.

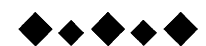
(٢) عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، تذكرة المؤتسي شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي، (ص:٣٢١)، ط١/ ١٤٢٤هـ، غراس للنشر والتوزيع.

ومنها: أن الذكرىٰ والاتعاظ لا ينفعان حال مجيء الساعة، كقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:٢٣].

ومنها: قال القرطبيُّ في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾، **التقدير**: فمن أين لهم التذكُّر إذا جاءتهم الساعة، قال معناه قتادة وغيره. **وقيل**: فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرىٰ عند مجيء الساعة، قاله ابن زيد.

وفي الذكرى وجهان: أحدهما: تذكيرهم بما عملوه من خير أو شر.

الثاني: هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيرًا وتخويفًا، روىٰ أبان عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**أحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلىٰ نورك يا فلان قم لا نور لك**»[1] ذكره الماوردي.



في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ **فوائد**:

منها: أن مرتبةَ العلم مقدمةٌ علىٰ مرتبة العمل.

ومنها: «أنه لا نِزاع بين العلم وبين الدين في الإسلام، وإنما يتصور وجود النزاع بينهما في الأديان الباطلة القائمة علىٰ الخرافات وأمزجة أصحاب الجاه؛ كالدين النصراني الذي وقف ضد العلم بكل قسوة وشراسة؛ لأن

---

(١) الحديث رواه الديلميّ في كتابه الفردوس بمأثور الخطاب (رقم ٣١٩، من حديث أنس).

القائمين عليه كانوا يخافون أن يَذهبَ نفوذُهم من قلوب العامَّة الذين استعبدهم رجال الدين النصراني شرَّ استعباد باسم الدين.

أما الدين الإسلامي فليس فيه شيء من هذا، ولهذا سار العلم والدين في اتجاه واحد هو إثبات عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وخلقه لهذا الكون وما فيه، ووجوب التفكر فيه. ففيه ردٌّ علىٰ ضُلَّال الملاحدة أن بين الدين والعلم جفاءً أو نفورًا»[١].

ومنها: مناسبتها للآية التي قبلها: يقول الرازي[٢]: «ولبيان المناسبة وجوه:

الأول: هو أنه تعالىٰ لما قال: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ قال: فاعلم أنه لا إله إلا الله يأتي بالساعة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧-٥٨].

وثانيها: فقد جاء أشراطها وهي آتية، فكأن قائلا قال متىٰ هذا؟ فقال: فاعلم أنه لا إله إلا الله فلا تشتغل به واشتغل بما عليك من الاستغفار، وكن في أي وقت مستعِدًا للقائها، ويناسبه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

الثالث: فاعلم أنه لا إله إلا الله ينفعك» انتهىٰ.

وقيل[٣]: إذا علمت حال الفريقين فاثبت علىٰ التوحيد، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ

---

(١) غالب بن علي عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها (جـ٢/ ١١٤٨) ط ١٤٢٧:١هـ، المكتبة العصرية الذهبية - جدة.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، (جـ٢٨/ ٥٢).

(٣) محمد بن عبد الرحمن الإيجي الشافعيّ، تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (جـ٤/ ١٤٢)، طـ١/ ١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

﴿لِذَنۢبِكَ﴾، ذَكَرَهُ للتوطئة والتمهيد لقوله: ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، فالمقصود الاستغفار لهم، وأَمَرَهُ به لِتَستن به أمته.

ومنها: قال البخاري رحمه الله تعالىٰ: باب العلم قبل القول والعمل. فقدم الله سبحانه العلم في الآية قبل العمل، وعليه بوب البخاري بابه في الصحيح. وعليه فإن أول واجب أمر الله به الإنسان أن يتعلم العلم.

ومنها: أن العبد يعلم أولا ربّه بدليل وحجّة ثم ينبني عليه كل علم استدلالي، ثم تزداد قوة علمه بزيادة البيان وزيادة الحجج.

ومنها: قيمة العلم، حيث أن الله قدمه في هذه الآية علىٰ العمل الذي هو الاستغفار، فذكر الزمخشريُّ[1] ونقله القرطبيُّ كذلك عن سفيان بن عيينة: «أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ﴾، فأمر بالعمل بعد العلم وقال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [الحديد:٢٠] إلىٰ قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد:٢١]، وقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ...﴾، ثم قال بعدُ: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾[2]،

---

(١) أبو القاسم محمود بن عمرو، الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (جـ٤/ ٣٢٤)، ط٣/ ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.

(٢) قلت: تم الخلط بين الآيتين من سورة التغابن، فالأولىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾ [التغابن:١٥- ١٦]، والثانية: قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ...﴾ [التغابن:١٤]، فربما يكون المقصود هو الآية الثانية، والله اعلم. أما الذي فيها: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فإنما هي في الأنفال، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال:٢٨].

وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال:٤١] ثم أمر بالعمل بعد.

ومنها: معنىٰ «لا إله إلاَّ الله»، وهي متركِّبةٌ من نفي وإثبات، **فمعنىٰ النفي منها**: خَلْعُ جميعِ أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت، **ومعنىٰ الإثبات منها**: إفراد الله جَلَّوَعَلَا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، علىٰ الوجه الذي شرعه علىٰ ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام[1].

ومنها: التوحيد أصل الدين.

ومنها: أنه ليس المقصود الجهر بكلمة التوحيد وفقط ولكن العمل بمقتضاها أيضًا باطنًا وظاهرًا، كما دل عليه قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]. أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع»[2].

ومنها: أن كلمةَ التوحيد مشتملةٌ علىٰ الكفر بالطاغوت وعلىٰ الإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله كنت ممن كفر بالطاغوت، وآمن بالله. **وقال ابن رجب رحمه الله تعالىٰ**: «الإله هو الذي يطاع فلا يُعصىٰ هيبة له وإجلالا ومحبةً وخوفًا ورجاءً وتوكلًا عليه وسؤالا منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عَزَّوَجَلَّ، فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من

---

(١) محمد الأمين، أضواء البيان (حـ٣/ ١٨).

(٢) سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذىٰ هو حق الله علىٰ العبيد (ص:٥١)، ط١/ ١٤٢٣هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق.

خصائص الإلهية كان قدحًا في إخلاصه في قول لا إله إلا الله، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك[١].

ومنها: أن الله قدم النفي على الإثبات في كلمة التوحيد ليعلم أن الإثبات لا يحصل إلا بصيانته عن كل ما يتضمن مخالفته، ومن لم يتحقق له معرفة نفي صفة الباطل لم يتحقق له معرفة إثبات صفة المعرفة بالحق.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الحق لصحة الاعتقاد والمعرفة وعن الباطل والشر للتمكن من المجانبة، حتى قال حذيفة بن اليمان: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ: عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ، عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي...»، وإنما كان يفعله لتصح له مجانبته؛ لأن من لم يعرف الشر يوشك أن يقع فيه»[٢].

ومنها: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ**[٣] **عَلَىٰ قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»[٤].

---

(١) عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، كتاب التوحيد وقرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين (ص:١٤)، ط١/ ١٤١١هـ، مكتبة المؤيد، الطائف، المملكة العربية السعودية.

(٢) طاهر بن محمد الإسفراييني، أبو المظفر، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص:١٥)، ط١/ ١٤٠٣هـ، عالم الكتب - لبنان.

(٣) قال النووي في شرح مسلم (حـ٩/ ٦٥): «"لَيُغَانُ" قال أهل اللغة: الغين والغيم بمعنى واحد والمراد هنا ما يتغشى القلب، قال القاضي: قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي شأنه الدوام عليه فإذا افتر عنه أو غفل عَدَّ ذلك ذنبا واستغفر منه».

(٤) مسلم (٤١-٢٧٠٢)، باب اسْتِحْبَابِ الِاسْتِغْفَارِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ.

قال البقاعي: يعني: أنه ﷺ إذا ارتقىٰ من مقام أكمل، إلىٰ مقام أكمل منه، رأىٰ أن الأول بالنسبة إلىٰ الثاني ذا غَيْن فيستغفر منه، فيرتقي إلىٰ أكمل منه، وهكذا، والله أعلم.

ومنها: أن فيها كرامةَ الله للمؤمنين حيث يأمر نبيه بالاستغفار لهم، ذلك لأنه شفيعٌ مُجابٌ.

ومنها: هل في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ دليلٌ علىٰ أن الأنبياء تصدر منهم المعصية؟

ذهب أهل السنة أنه لا يجوز أن تصدر منهم أي معصية كبيرة ولا صغيرة، خلافًا لمن قال تصدر منهم الصغائر والكبائر عمدًا، ومن قال تصدر منهم الصغائر عمدًا دون الكبائر، يقول ابن حزم[1]: «اختلف الناس في هل تعصي الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أم لا؟

- فذهبت طائفة إلىٰ أن رسل الله صلىٰ الله عليهم وسلم يعصون الله في جميع الكبائر والصغائر عمدًا حاشىٰ الكذب في التبليغ فقط، وهذا قول الكرامية من المرجئة، وقول ابن الطيب الباقلاني من الأشعرية ومن اتبعه، وهو قول اليهود والنصارىٰ، وهذا كله كفر مجرد وشرك محض ورِدة عن الإسلام قاطعة للولاية مبيحة دم من دان بها وماله، موجبة للبراءة منه في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

---

(١) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، الفصل في الملل والأهواء والنحل (حـ٤/ ٢)، ط مكتبة الخانجي - القاهرة.

- وذهبت طائفة إلىٰ أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يجوز عليهم كبيرة من الكبائر أصلا، وجوزوا عليهم الصغائر بالعمد، وهو قول ابن فَوْرك الأشعري.

- وذهب جميع أهل الإسلام من أهل السنة والمعتزلة والنجارية والخوارج والشيعة إلىٰ أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبي أصلا معصيةٌ بعمدٍ لا صغيرة ولا كبيرة، وهو قول ابن مجاهد الأشعري؛ شيخ ابن فَوْرك والباقلاني المذكورَين.

قال أبو محمد: «وهذا القول الذي ندين الله تعالىٰ به، ولا يحل لأحد أن يدين بسواه، ونقول أنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد، ويقع منهم أيضًا قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالىٰ والتقربَ منه فيوافق خلاف مراد الله تعالىٰ، إلا أنه تعالىٰ لا يقرهم علىٰ شيء من هذين الوجهين أصلًا، بل ينبههم علىٰ ذلك إثر وقوعه منهم، ويظهر عَزَّوَجَلَّ ذلك لعباده، ويبين لهم كما فعل نبيه ﷺ في سلامه من اثنتين وقيامه من اثنتين، وربما عاتبهم علىٰ ذلك بالكلام كما فعل نبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ في أمر زينب؛ أمِّ المؤمنين وطلاق زيد لها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا...». اهـ.

ومنها: أن الاستغفار خير الدعاء، فعَن عُبَيْدٍ أَبِي الْمُغِيرَةِ، عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ ذَرِبَ اللِّسَانِ عَلَىٰ أَهْلِي قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ خَشِيتُ أَنْ يُدْخِلَنِي لِسَانِي النَّارَ، قَالَ: «**فَأَيْنَ أَنْتَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ؟ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ**

اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي بُرْدَةَ، فَقَالَ: «وَأَتُوبُ»[١].

ومنها: أن الاستغفار في الآية المقصود به الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات، وهو إما واجب وإما مستحب، **وهو علىٰ نوعين:** عام وخاص، **أما العام:** فظاهر، كما في هذه الآية، **وأما الدعاء الخاص:** فالصلاة علىٰ الميت، فما من مؤمن يموت إلا وقد أمر المؤمنون أن يصلوا عليه صلاة الجنازة، وهم مأمورون في صلاتهم عليه أن يدعوا له، كما روىٰ أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا صلّيتم علَىٰ الميِّت فأخلِصُوا لهُ الدُّعَاء**»[٢] قاله ابن أبي العز[٣].

وقال ابن عبد الهادي في (الصارم المُنْكِي)[٤]: «وهذه كانت عادة الصحابة معه ﷺ أنّ أحدهم متىٰ صدر منه ما يقتضي التوبةَ جاء إليه فقال: يا رسول الله فعلتُ كذا وكذا فاستغفر لي، وكان هذا فرقًا بينهم وبين المنافقين». اهـ.

---

(١) الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء (١٨٨٢)، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه هكذا.

(٢) سنن أبي داود (٣٢٠١)، باب الدعاء للميت، سنن ابن ماجة (١٤٩٧)، كتاب الجنائز.

(٣) صدر الدين محمد بن علاء الدين ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية (ص:٣٧٧)، ط١/ ١٤٢٦هـ، دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة.

(٤) شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي (المتوفىٰ: ٧٤٤هـ)، الصَّارِمُ المُنْكِي في الرَّدِّ عَلَىٰ السُّبْكِي (ص:٣١٧)، ط١ - ١٤٢٤هـ، مؤسسة الريان، بيروت - لبنان.

ومنهــا: أن طلـب الغفـران لـه وجهـان: أن لا تفضـحنا، وذلـك قـد يكـون بالعصـمة منه فـلا يقـع فيـه كمـا كـان للنبـي ﷺ، وقـد يكـون بالسـتر عليـه بعـد الوجود، كما هو في حق المؤمنين والمؤمنات. قاله الرازي.

ومنها: يقول الرازي(١): «وفي هذه الآية لطيفة وهي أن النبي ﷺ له أحـوال ثلاثة حال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره، فأما مـع الله وحِّدْهُ، وأمـا مـع نفسك فاستغفر لـذنبك واطلـب العصـمة مـن الله، وأمـا مـع المـؤمنين فاستغفر لهم واطلب الغفران لهم من الله».

ومنها: قـال البغـوي(٢): «هـذا إكـرام مـن الله تعـالىٰ لهـذه الأمـة حيـث أمـر نبيهم ﷺ أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم».

ومنها: أنه لا يجوز الاستغفار لغير المـؤمنين، فـالله قـال لنبيـه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ فالمنافقون والمشركون لا يغفـر الله لهـم باسـتغفار النبيِّ لهم، لقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٨٠].

ومنها: أنـه لا يَكمُـل الإنسـان إلا إذا سعىٰ في تكميـل إخوانـه، لـذلك قـال لنبيه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾.

ومنها: سعة علـم الله سبحانه فهـو يعلـم أمـور الـدنيا والآخـرة، فقـد نقـل صاحب الدر المنثور عن ابْن عَبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾ فِي

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (حـ٢٨/ ٥٢).

(٢) أبـو محمـد الحسـين بـن مسـعود البغـوي، معـالم التنزيـل في تفسـير القـرآن = تفسـير البغـوي (حـ٧/ ٢٨٥)، طـ٤/ ١٤١٧هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع.

الدُّنْيَا ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ فِي الْآخِرَة، وقيل غير ذلك، واختار القرطبي أن ذلك على العموم، وقال المظهريُّ في تفسيره: «والمعنى أنه عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها فاحذروه والخطاب للمؤمنين وغيرهم».

وعلى قول ابن عباس يكون قد خص المتقلَّب في الدنيا، والمثوى في الآخرة؛ لأن الدنيا دار حركة دائبة، وتقلب مختلف لطلب الرزق وغيره، أما الآخرة فدار سكون واستقرار، لا تقلب فيها ولا مدار، فالرزق فيها موفور والنعيم مقيم.



مائدة

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾

المعنى الإجمالي:

بعد أن بينت الآيات السابقة حال كلٍ من المؤمنين والمنافقين في مسائل الاعتقاد من توحيدٍ وبعثٍ وحشر، فإنه سبحانه في هذا المقطع من السورة يتكلم عن مدىٰ استجابةِ كل فريقٍ منهم للآيات العملية كالجهاد وغيره، فالمؤمنين ينتظرون نزول أوامر الحق لتنفيذها والتقرب إلىٰ الله بها، أما المنافقون الذين في قلوبهم مرض؛ الذين يستحبون الحياة الدنيا علىٰ الأخرة، ويفضلون الراحة عن الجهاد هؤلاء قلوبهم مريضةٌ فلا تقوَىٰ علىٰ تَقبُّلِ التكاليف، ونزول التكاليف عليهم بمثابة نزول الموت، ولما كان هذا حالهم طردهم الله من رحمته فقال: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: فويلٌ لهم، وقيل: فالموت أولىٰ لهم، وقال الأصمعي معناه: قاربَه ما يُهلكُه، أي نَزل به، وقيل: فأولىٰ لهم طاعة

منهم لله ولرسوله، وقد كانت طاعة الله والاستجابةُ لأوامره أَولىٰ مما يصيبُهم من الهَلَعِ والخوف من مواجهة العدو، ولو صَدَقُوا في إيمانهم لما جَزَعوا عند لقاء العدو ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾، فالزُّلفَىٰ من الله والفوز بالجنة هو الخير الأعم، فما عند الله خيرٌ وأبقىٰ.

ثم خاطبهم سبحانه خطاب توبيخٍ وتأنيبٍ مفادُه أن من كان هذا حاله يحب الدنيا علىٰ الآخرة، ويَستمرِئ الدَّعة علىٰ الجهاد ولا يَذُودُ عن حياض الدِّينِ إذا ولِيَ أمرَ الناس أعاد لهم الجاهلية الجهلاء ثانيةً، من تقطيعٍ للأرحام وإفسادِ الحرث والنسل، فالجهاد وإن كانت صورتُه القتل؛ فهو لبقاء الدنيا، ونشرِ الحق في طول الأرض وعرضِها، وقتالِ مَن يَحُولُ دون انتشار ذلك الحق، فهذا هو السببُ وراء هذا التكليف الشاقّ علىٰ النفس، وقيل: إن توليتم عن الاستجابة لطاعة الله ورسوله حلَّ الفساد بالأرض وقُطِّعت الأرحام، وكأن الالتزام بالشريعة هو إعمارٌ للأرض، وتوثيقٌ للروابط والعلاقات، وغير ذلك قد ذكر المفسرون.

ويا أقساها من عقوبة يوم يُطردُ المرءُ مِن رحمةِ ربه بسبب بُعدِه عن منهجِ الحقِّ، ثم يُختم علىٰ قلبه ويُجعَلُ علىٰ بصرِه غِشاوة فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ...﴾.

وقد وصل الحال بهم إلى هذا المستنقع لأحد سببين: إما أنهم لا يتدَّبرون كلامَ الله، وإما أن تكونَ قلوبُهم أُغلِقت فلا يَلِجُها خيرٌ ولا يَخرجُ منها باطلٌ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾.

﴿ فائدة ﴾

في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ **فوائد:**

منها: جواز تمني الخير، والأَوْلَىٰ أن يسأَلَ الله تعالىٰ ولا يتمنىٰ بلفظِ: ليتَ كذا. قاله الجزائريُّ[1].

ومنها: أن الله سبحانه إنما يُشَرِّعُ الأحكامَ ويكلفُ بها عباده ليختبرَهم، ويعلم مَن مقبلٌ عليه ومن مُدْبِر.

ومنها: أنه إذا كان السؤال من المؤمنين فهو سؤال الاسترشاد وطلب زيادة الهدىٰ، وإن كان من الكفار فهو سؤال الاستهزاء والتعنت.

ومنها: أن مقامَ القول سهلٌ ميسورٌ، ومجالُ الكلام واسعٌ فسيح، وإنَّ وَضْعَ القول علىٰ محكّ العمل هو الذي يكشف عن معدن قائله، وما فيه من صدقٍ أو كذب، وحقٍ أو باطل، وصحيحٍ أو سقيم، فالمؤمنون الصادقون يستبشرون بما تلقوا من آيات الله، إذ يتلقون الأمر الصادر إليهم منها بالرضا والقبول، وأما الذين في قلوبهم مرض، فيأخذهم لهذا الأمر همّ ثقيل.

---

(١) جابر بن موسىٰ بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (٥/ ٨٤)، ط٥-١٤٢٤هـ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

ومنها: معنىٰ: ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ يقول ابن الجوزيّ[١]: «وفي معنىٰ ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها التي يُذْكَر فيها القتال، قاله قتادة.

والثاني: أنها التي يُذْكَر فيها الحلالُ والحرام.

والثالث: التي لا منسوخ فيها، حكاهما أبو سليمان الدمشقي». اهـ.

ومنها: أن في القرآن مُحْكَمًا ومنسوخًا من الآيات وكله كلامُ الله يُتلَىٰ ويُتَقَرَّبُ به إلىٰ الله تعالىٰ ويُعْمَلُ بالمحكم دون المنسوخ وهو قليل جدًا.

ومنها: أن في قوله: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ دليلًا للقائلين أنه لا يجوز قول سورة كذا، ولكن يقال السورة التي ذُكر فيها كذا وكذا، ولكن الصواب جوازه، يقول النووي[٢] في شرحه لحديث ابن عباس حول قيام النبيّ ﷺ فصلىٰ بخواتيم آل عمران: «وفيه جواز قول سورة آل عمران وسورة البقرة وسورة النساء، ونحوها، وكرهه بعضُ المتقدمين، وقال إنما يقال السورة التي يذكر فيها آل عمران والتي يذكر فيها البقرة[٣]، والصواب الأول، وبه قال عامة

---

(١) جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (حـ٤/ ١١٩)، طـ١/ ١٤٢٢هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.

(٢) أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (حـ٦/ ٤٦)، طـ٢ - ١٣٩٢هـ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٣) وقد روي فيه حديثٌ مرفوع عند البيهقي (٢٣٤٦)، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا تَقُولُوا: سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَلا سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ وَسَائِرُ الْقُرْآنِ وَلَكِنْ قُولُوا: السُّورَةُ الَّتِي=

العلماء من السلف والخلف وتظاهرت عليه الأحاديث الصحيحة ولا لُبْسَ في ذلك». اهـ.

ومنها: أن المؤمن يشتهي العبادة وينتظر التكليف بها لحبه للمكلِّف، خلافًا للمنافق الذي لا يتحمل قلبُه مشقة التكاليف وكأنه نزل به الموت.

ومنها: أن المؤمن إنما يرغب في الزيادة في العِلْم، رغبةً في الثواب والأجر والاستكثار من الفرائض.

ومنها: يقول شيخ الإسلام[1]: «يجب أن تتلقىٰ أحكام الله بطيبِ نفسٍ وانشراح صدر، وأن يتيقَّن العبد أن الله لم يأمره إلا بما في فعله صلاح، ولم

= يُذْكَرُ فِيهَا الْبَقَرَةُ وَالسُّورَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا آلُ عِمْرَانَ وَالْقُرْآنُ عَلَىٰ نَحْوِ هَـذَا» وعُبَيْسُ بْنُ مَيْمُونٍ مُنْكَرُ الْحَدِيثِ، وهو لَا يَصِحُّ وَإِنَّمَا يُرْوَىٰ فِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مِنْ قَوْلِه. اهـ والحديث لا يصح لوجود عُبيس، وروىٰ موقوفًا علىٰ ابن عمر في الحديث الذي يليه، برقم (٢٣٤٧)، وهو أصح، وذكر فيه الأعمش عن الحجاج أنه سمعه علىٰ المنبر يقوله، فقال: «فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِإِبْرَاهِيمَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ أَنَّهُ: كَانَ مَعَ ابْنِ مَسْعُودٍ حِينَ رَمَىٰ جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ فَاسْتَبْطَنَ الْوَادِيَ حَتَّىٰ إِذَا حَاذَىٰ الشَّجَرَةَ اعْتَرَضَهَا فَرَمَىٰ سَبْعَ حَصَيَاتٍ يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ، ثُمَّ قَالَ: هَهُنَا وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ قَامَ الَّذِي أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ» فهذا مذهب ابن مسعود.

وقال الشهاب الخفاجي في حاشيته علىٰ البيضاوي، موفقا بين المذهبَين: «إنما المنع من ذلك كان في صدر الإسلام، لما استهزأ سفهاء المشركين بسورة العنكبوت ونحوها، فمنع ذلك دفعا للملحدين. ثم لما استقر الدين، وقطع الله دابر القوم الظالمين، شاع ذلك وساغ».

(١) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية، (حـ٦/ ١٠٥) طـ١-١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية.

ينهه إلا عما في فعله فسادٌ، سواء كان ذلك من نفس العبد بالأمر والنهي، أو من نفس الفعل، أو منهما جميعًا، وأن المأمور به بمنزلة القُوت الذي هو قوام العبد، والمنهي عنه بمنزلة السموم التي هي هلاك البدن وسقمه، ومن يتيقن هذا لم يطلب أن يحتال علىٰ سقوط واجبٍ في فعله صلاحٌ له، ولا علىٰ فعل محرم في تركه صلاحٌ له أيضا».

ومنها: الجهاد ذِروة سَنام الإسلام كما جاء ذلك في الحديث «**رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ**»[1]، وقال أيضًا: «**لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ رَوْحَةٌ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[2].

ومنها: أن المنافق لا يفهم العلم ولا يريد العمل، والمؤمن يعلم ويحب العمل.

ومنها: أن المسلمين في حال الرخاء والسعة قد ينضم إليهم غيرُهم ممن يطمعون في تحقيق مكاسبَ مادية، ولا يريدون رَفْعَ كلمة الله علىٰ كلمة الكفر، وهؤلاء قد يخفىٰ أمرهم علىٰ كثير من المسلمين، وأكبر كاشفٍ لهم هو الجهاد؛ لأن في الجهاد بذلًا لروح الإنسان، وهو ما نافق إلا ليحفظ روحه.

ومنها: أن حركة النفاق حركة مدنِيَّة، لم يكن لها وجود في مكة؛ لأنه لم

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٢٠١٦) من حديث معاذ، وابن ماجه (٣٩٧٢)، والترمذي (٢٦١٦) باب ما جاء في حرمة الصلاة، وقال الألبانيّ في الصحيحة: «الحديث صحيح بمجموع طرقه».

(٢) البخاري (٢٧٩٢) باب الغدوة والروحة في سبيل الله، مسلم (١١٢-١٨٨٠) باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله.

يكن هناك ما يدعو إليها، فالمسلمون في مكة كانوا في موقف المضطهد، الذي لا يحتاج أحدٌ أن ينافقه! فلما أعز الله الإسلام والمسلمين بالأوس والخزرج في المدينة، وانتشاره في المدينة، وانتشاره في العشائر والبيوت بحيث لم يبق بيتٌ إلا دخله الإسلام، اضطر ناسٌ ممن كرهوا لمحمد ﷺ وللإسلام أن يعز ويستعلي، ولم يملكوا في الوقت ذاته أن يجهروا بالعداوة، اضطروا إلىٰ التظاهر بالإسلام علىٰ كُرْهٍ، وهم يُضمرون الحقدَ والبغضاء، ويتربصون بالرسول وأصحابه الدوائر، وعلىٰ رأسهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول رأس النفاق المعروف.

ومنها: أن قوله تعالىٰ: ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ دليلٌ علىٰ الحياة التي لا في طاعة الله ورسوله الموت خير منها.

ومنها: أن الخوف والفَرَق من صفات المنافقين، فالآية تحكي لنا تصويرًا بديعًا لما انطوت عليه نفوسهم من جبنٍ خالعٍ... أما المؤمنون مع آيات الله فيرصدون منازلها، ويشدّون قلوبَهم وعقولَهم إلىٰ مطالعها، وينتظرون في لهَفٍ وشوقٍ هطولَ غيُوثِها.

ومنها: أن الجهاد ضرورةٌ للدعوة، وسنةٌ ربانية في الابتلاء والتمحيص.

يقول الماتريدي[1]: «جعل الله عَزَّوَجَلَّ في القتال خصالًا:

---

(١) محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، (٩/ ٢٧٧)، ط١-١٤٢٦هـ، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان.

أحدها: كثرة أهل الإسلام، وكثرة الأموال، وإن كان في ظاهر القتال إفناء الأنفس والأموال؛ لأنه قبل أن يفرض القتال كان يدخل في الإسلام واحدٌ، فلما فرض القتال دخل فيه فوج فوج؛ على ما أخبر: ﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجًا﴾ [النصر:٢].

والثاني: ليتبين المُصدِّقَ منهم من المُكذِّب لهم، والمتحقق من المرتاب؛ لأنه لم يكن ليظْهَرَ ويتبين لهم المنافق من غيره إلى ذلك الوقت، فلما فُرض القتالُ عند ذلك ظَهَرَ وتبين لهم أهلُ النفاق والارتياب من أهل الإيمان والتصديق.

والثالث: فيه آية الرسالة والبعث، وأما آية الرسالة فلأن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا عددًا قليلا لا عُدَّة لهم ولا قوة، أُمروا بالقتال مع عدد لا يُحصَوْن، ولهم عُدةٌ وقوةٌ؛ ليُعلم أنهم لا بأنفسهم يقاتلون، ولكن بالله تعالى إذ لا يحتمل قيام أمثالهم لأمثال أُولَئِكَ مع كثرتهم وقوتهم، والله أعلم.

وأما آية البعث فلأنهم أمروا بقتال أقاربهم، وأرحامِهم، والمتعلقِ بهم، وفي ذلك قطعُ أرحامهم، وقطعُ صلة قراباتهم؛ ليُعلم أنهم إنما يفعلون هذا بالأمر لعاقبة تُؤمَّل وتُقصَد؛ إذ لا يُحتمل فعلُ ذلك بلا عاقبة تُقصَد، وبلا شيء يُعتقَد، والله أعلم» اهـ.

ومنها: كل اعتذار في القعود عن نصرة الله فهو آية نفاق، وعلامة بُعدٍ عن الله، إن لم يكن صاحبه من أصحاب الأعذار.

ومنها: أن مِن أمارات الإيمان تمنِّي الجهادِ والموتِ شوقا إلىٰ لقاء الله، ومن أمارات الكفر والنفاق كراهة الجهاد وكراهية الموت.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ **تأويلات:**

ومجمل القول في «أَوْلَىٰ» أنها علىٰ ثلاث احتمالات: إما فعل بمعنىٰ قارب، **وقيل:** وإما أفعل تفضيل من الويل، **وقيل:** الولي، وإما مصدر.

قال القاسمي[1]: «فذهب الأصمعيّ إلىٰ أنه فعل ماض بمعنىٰ قارب. **وقيل:** قرّب بالتشديد، ففاعله ضمير يرجع لما علم منه، **أي:** قارب هلاكُهم. والأكثر أنه اسم تفضيل من الولي، بمعنىٰ القرب. وقال أبو عليّ: إنه اسم تفضيل من الويل. والأصل «أويل» فقُلِبَ، فوزنه أفلع، وردّ بأن الويل غير متصرف، وأن القلب خلاف الأصل، وفيه نظر.

وقد قيل: إنه فَعلىٰ، من آل يؤول. **وقال الرضي:** إنه عَلَم للوعيد، وهو مبتدأ و«لهم» خبره.

قال السمين: «إذا قلنا باسْمِيَّتِه. **ففيه أوجه:**

أحدها: أنه مبتدأ، و«لهم» خبره، **تقديره:** فالهلاك لهم.

والثاني: أنه خبر مبتدأ مضمر، **تقديره:** العقاب أو الهلاك أولىٰ لهم، **أي:** أقرب وأدنىٰ، ويجوز أن تكون اللام بمعنىٰ الباء. **أي:** أولىٰ وأحق بهم.

---

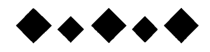
(١) محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، محاسن التأويل، (حـ٨/ ٤٧٤)، طـ١/ ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية – بيروت.

الثالث: أنه مبتدأ، و«لهُم» متعلق به، واللام بمعنىٰ الباء، و«طَاعَةٌ» خبره، والتقدير: فأولىٰ بهم طاعة دون غيرها». اهـ **قال ثعلب:** ولم يقل أحدٌ في «فأولىٰ» أحسن مما قال الأصمعي.

وقال الواحدي[1]: «فأولىٰ لهم طاعة الله ورسوله وقول معروف بالإجابة، **أي:** لو أطاعوا كانت الطاعة والإجابة أولىٰ لهم، وهذا معنىٰ قول ابن عباس، في رواية عطاء، واختيار الكسائي».

وقال الكرماني[2] في (غرائب التفسير): «ومن الغريب: عن ابن عباس: «أَوْلَىٰ» وعيد، والكلام به تام.

ثم قال: ﴿لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، **أي:** للمؤمنين، حكاه الفراء والجمهور علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف، **أي:** أمرنا طاعة، **وقيل:** مبتدأ خبره محذوف، **أي:** طاعة الله، وقول معروف أولىٰ من الجزع».



(١) أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (جـ٤/ ١٢٦)، ط١/ ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

(٢) محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل (جـ٢/ ١١٠٧)، دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن - بيروت.

في قولـه تعـالىٰ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ **فوائد:**

منها: تَوجُّه الآية:

قـال أبـو حيـان الأندلسـي[١]: «الأكثـرون علـىٰ أن: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستقل محذوف منه أحد الجزأين، إما الخبر وتقديره: أَمْثَلُ، وهـو قـول مجاهـد ومـذهب سـيبويه والخليـل، وإمـا المبتـدأ، وتقـديره: الأمـرُ أو أَمْرُنـا طاعـة[٢]، أي الأمـر المُرضِـي لله طاعـة. وقيـل: هـي حكايـة قـولهم، أي: قـالوا طاعة[٣]، ويشهد له قراءة أُبَيٍّ: «يقولـون طاعـة وقـول معـروف»، وقـولهم: هـذا علىٰ سبيل الهُزءِ والخديعة.

وقال قتادة: الواقـف علـىٰ: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ﴾ ابتـداء وخـبر، والمعنـىٰ أن ذلك منهم علىٰ جهة الخديعة».

ومنهـا: معنـىٰ ابتـداء الآيـة بنكـرة -يعنـي كلمـة «طاعـة»-: قـال الخطيـب الشربيني[٤]: «وساغ الابتـداء بـالنكرة لأنهـا وصـفت بـدليل قولـه تعـالىٰ: ﴿وَقَوْلٌ

---

(١) أبـو حيـان محمـد بـن يوسـف بـن حيـان أثيـر الـدين الأندلسـي، البحـر المحـيط في التفسـير (حـ٩/ ٤٧٠)، ط١٤٢٠هـ، دار الفكر - بيروت.

(٢) وقد صرح الشاعر بما قُدِّرَ من المبتدأ في قوله:

فقالـت: علـىٰ اسـمِ الله أمـرُكَ طاعـةٌ   وإنْ كنـتَ قـد كلَّفـتَ مـا لـم أُعَـوَّدِ

(٣) **قال القتبي:** «هذا مخصوص. يعني: قولهم قبل نزول الفرض سمعًا لك وطاعة. فإذا أمـروا بـه كرهوا ذلك» تفسير السمرقندي (حـ٣/ ٣٠٣).

(٤) شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، السراج المنير في الإعانة علىٰ=

مَّعۡرُوفٞ﴾ فإنه موصوف فكأنه تعالىٰ قال: طاعة مخلصة وقول معروف خير».

ومنها: قال الماوردي في تفسيره[(١)]: «وفي القول المعروف وجهان: أحدهما: هو الصدق والقبول. الثاني: الإجابة بالسمع والطاعة».

ومنها: أن طاعة الله ورسوله من أسباب جلب الطمأنينة، قال الشنقيطي[(٢)]: «فذَكَر الله تعالىٰ أربعة أسباب للطمأنينة: فكان من جُملة ما قال: والثالثة: طاعة الله ورسوله، ويدل لها قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ وعليه، فإن أسبابَ الهزيمة مِن رُعْب القلوب، وأسبابَ النصر من السكينة والطمأنينة».

ومنها: توجه قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: يقول البغويُّ[(٣)]: «فإذا عزم الأمر، أي جَدَّ الأمرُ ولزم فرض القتال وصار الأمر معزومًا، فلو صدقوا الله في إظهار الإيمان والطاعة لكان خيرًا لهم، وقيل: جواب «إذا» محذوف تقديره: فإذا عزم الأمر نكلوا وكذبوا فيما وَعدوا، ولو صدقوا الله لكان خيرًا لهم». اهـ.

وهذا من باب الحذف والاختصار الذي هو من سنن العرب، فيكون المعنىٰ: فإذا عزم الأمر كَذبُوه.

= معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (حـ٤/ ٣٠)، مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة، ١٢٨٥هـ.

(١) تفسير الماوردي؛ النكت والعيون (حـ٥/ ٣٠١).

(٢) أضواء البيان (حـ٨/ ٢١).

(٣) معالم التنزيل (حـ٤: ٢١٦).

ومنها: يستحب للمسلم إذا عزم على فعلٍ أو إحسانٍ أن يمتثل ما عزم عليه، فإذا تلفظ بما عزم عليه فأحرىٰ به وأجدر الامتثال والطاعة.

ومنها: أن ذِكْرَ الطاعة مع عزم الجهاد دليلٌ علىٰ أن النصر إنما هو مرتبطٌ بالقيام بجملة الأوامر والنواهي، فتذكير الأمة بالجهاد بدون توجيهها للتوبة والعودة قد يؤدي إلىٰ حدوث اتكالية وتأخر في التغيير والإصلاح -الذي هو الطريق الذي يقود الأمة بفاعلية للجهاد ويحقق لها النصر فيه بإذن الله- بين أفراد الأمة.

ومنها: قال السعديُّ[1]: «﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ **أي:** جاءهم الأمر جد، وأمر محتم، ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من حالهم الأولىٰ، **وذلك من وجوه:**

- أن العبد ناقصٌ من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة علىٰ ما هو قائم بصدده.

- أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل ضعف عن العمل بوظيفة وقته وبوظيفة المستقبل، **أما الحال** فلأن الهمة انتقلت عنه إلىٰ غيره، والعمل تبع للهمة، **وأما المستقبل** فإنه لا يجيء حتىٰ تَفْتُرَ الهمة عن نشاطها فلا يُعان عليه.

- أن العبد المؤمِّل للآمال المستقبلة مع كسله عن عمل الوقت الحاضر شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته علىٰ ما يستقبل من أموره، فأحرىٰ به أن

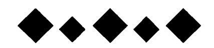
---

(١) تفسير السعدي (ص:٧٨٨).

يُخذَل ولا يقوم بما هَمَّ به ووطن نفسه عليه، فالذي ينبغي أن يَجمعَ العبدُ هَمَّهُ وفكرته ونشاطه علىٰ وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقتٌ استقبله بنشاط وهِمةٍ عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينا بربه في ذلك، فهذا حَرِيّ بالتوفيق والتسديد في جميع أموره». اهـ.

ومنها: أن الآية من معجزات القرآن في الإخبار بالغيب، فقد عزم أمر القتال يوم أُحُد، وخرج المنافقون مع جيش المسلمين في صورة المجاهدين، فلما بلغ الجيش إلىٰ الشوط بين المدينة وأُحُد، قال عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول رأس المنافقين: مَا نَدْرِي عَلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا هَاهُنَا أَيُّهَا النَّاسُ؟.

ورجع هو وأتباعُه، وكانوا ثلثَ الجيش، وذلك سنة ثلاث من الهجرة، أي بعد نزول هذه الآية بنحو ثلاث سنين.



في قوله تعالىٰ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾

فوائد:

منها: أن الجهاد رغم ما فيه من إزهاق الأنفس إلا أنه لا يُعَدُّ إفسادًا في الأرض ولكن إعمارًا لها، فتوليهم عن طاعة الله ومنها ترك الجهاد هو عين الإفساد في الأرض.

ومنها: قال السيوطي[1]: «أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهما عن ابن

---

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، (حـ٢/ ٦٢٦)، طـ١/ ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

عباس قال: كلُّ عسىٰ في القرآن فهي واجبة».

وقال الشافعي: «يُقَال عسىٰ من الله واجبة».

وقال ابن الأنباري: «عسىٰ في القرآن واجبة إلا في موضعين: **أحدهما:** ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء:٨]- يعني يا بني النضير. فما رحمهم الله، بل قاتلَهُم رسولُ الله ﷺ، وأوقع عليهم العقوبة، **والثاني:** ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم:٥]، فلم يقع التبديل.

وأبطل بعضهم الاستثناء، وعمم القاعدة؛ لأنَّ الرحمة كانت مشروطةً بألَّا يعودوا كما قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:٨]. وقد عادُوا فوجب عليهم العذاب، والتبديلُ مشروطٌ بأن يُطَلِّق ولم يُطَلِّق فلا يجب، وفي الكشاف في سورة التحريم: ﴿عَسَىٰ﴾ إطْمَاع من الله لعباده، **وفيه وجهان:**

أحدهما: أن يكون علىٰ ما جرت به العادة من الإجابة بلعل وعسىٰ، ووقوعُ ذلك من الجبابرة موقع القطع والبتّ.

والثاني: أن يكون جِيءَ به تعلما للعباد أن يكونوا بين الخوف والرجاء.

وفي البرهان: عسىٰ ولعل من الله واجبتان، وإن كانتا رجاءً وطمعًا في كلام المخلوقين؛ لأن الخلق هم الذين يعرض لهم الشكوك والظنون، والباري منَزَّهٌ عن ذلك.

والوجه في استعمال هذه الألفاظ أن الأمور الممكنة لما كان الخلق

يَشُكُّونَ ولا يَقْطَعُونَ علىٰ الكائن منها، واللَه يعلم الكائنَ منها علىٰ الصحة صارت لها نسبتان: نسبة إلىٰ الله تعالىٰ تسمَّىٰ نسبة قطع ويقين، ونسبة إلىٰ المخلوق تسمّىٰ نسبة شكّ وظن، فصارت هذه الألفاظ لذلك تارة تَرِدُ بلفظ القطع حسبما هي عليه عند الله نحو: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]. وتارة بلفظ الشكّ بحسب ما هي عليه عند الْخَلْق، نحو: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة:٥٢]. اهـ.

ومنها: قال الكِسَائي(١): «كل مَا فِي القرآن من «عسىٰ» عَلَىٰ وجه الخبر فهو مُوَحَّد: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات:١١]، و﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات:١١]، و﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ [البقرة:٢١٦]، وَوُحِّدَ عَلَىٰ «عسىٰ الأمر أن يكون كذا». وَمَا كَانَ عَلَىٰ الاستفهام فإنه يُجْمَع كقوله جلّ وعزّ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾، قال أبو عبيدة في قوله جل ثناؤه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾: هل عدوتم ذَاكَ، هل جُزتموه.

ومنها: أن نهي الله عن الإفساد في الأرض دليلٌ علىٰ أن إصلاح العالم مقصد للشارع، وقد دلت عليه آياتٌ أخرىٰ كثيرة، فمن ذلك: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة:٢٠٥].

ومنها: أن الإفسادَ في الأرض وقطعَ الأرحام كان عادةَ العرب قبل الإسلام؛ لأن الله أخبر أنهم إن عادوا إلىٰ شركهم الأول -علىٰ معنىٰ أنَّ ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ هو

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها (ص:١١٣).

التولي عن الطاعة والإيمان- إن عادوا إلىٰ الشرك بدلا من أن يمضوا قُدُمًا في الإخلاص للإسلام، فلن يكونوا سوىٰ عبيد مسخَّرين للشيطان فيقترفوا ما كانوا يقترفونه في الجاهلية.

ومنها: اختُلِف في معنىٰ ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ **فقيل:** هو من الولاية. **وقيل:** من التولِّي الذي هو الإعراض عن الشيء .

قال القرطبيُّ: فالأول: قال أبو العالية: المعنىٰ فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجُعِلْتُم حُكَّامًا أن تُفسدوا في الأرض بأخذ الرُّشا.

وقال الكلبي: «أي: فهل عسيتم إن توليتم أَمْرَ الأمة أن تُفسدوا في الأرض بالظلم».

وعن المعنى الثاني: قال ابن جريج: «**المعنىٰ:** فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام».

وقال كعب: «**المعنىٰ:** فهل عسيتم إن توليتم الأمر أن يقتل بعضكم بعضًا. **وقيل:** من الإعراض عن الشيء».

قال قتادة: «أي: فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام، وتقطِّعوا أرحامكم. **وقيل:** ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ **أي:** فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلىٰ جاهليتكم». اهـ.

وقال الزمخشريُّ: «وفي قراءة عليّ بن أبىٰ طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «تُوُلِّيتم»، أي: إن تولاكم ولاة غشمة خرجتم معهم، ومشيتم تحت لوائهم، وأفسدتم بإفسادهم»؟.

وقال الشوكاني: «وقرأ عليّ بن أبي طالب: بضم التاء والواو وكسر اللام مبنيًا للمفعول، وبها قرأ ابن أبي إسحاق وورش عن يعقوب ومعناها: فهل عسيتم إن وَلِيَ عليكم ولاةٌ جائرين أن تخرجوا عليهم في الفتنة وتحاربوهم وتقطعوا أرحامكم بالبغي والظلم والقتل». اهـ.

ومنها: أشكال الفساد المذكور في الآية:

يقول الرازي في قوله: ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]: **الفساد:** خروج الشيء عن كونه منتفعًا به، ونقيضه الصلاح، فأما كونه فسادًا في الأرض فإنه يفيد أمرًا زائدًا، **وفيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: قول ابن عباس والحسن وقتادة والسُّدِّي: «**أن المراد بالفساد في الأرض:** إظهار معصية الله تعالىٰ، وتقريره ما ذكره القفال رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو: أن إظهار معصية الله تعالىٰ إنما كان إفسادًا في الأرض؛ لأن الشرائع سنن موضوعة بين العباد، فإذا تمسك الخلق بها زال العدوان ولزم كل أحد شأنه، فحقنت الدماء وسكنت الفتن، وكان فيه صلاح الأرض وصلاح أهلها، أما إذا تَركوا التمسك بالشرائع وأقدم كلُّ أحدٍ علىٰ ما يهواه لَزِمَ الهَرْجُ والمرج والاضطراب، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ نبههم علىٰ أنهم إذا أعرضوا عن الطاعة لم يحصلوا إلا علىٰ الإفساد في الأرض به.

وثانيها: أن يقال ذلك الفساد هو مداراة المنافقين للكافرين ومخالطتهم معهم، لأنهم لما مالوا إلىٰ الكفر مع أنهم في الظاهر مؤمنون أوهم ذلك ضعف

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (حـ٢/ ٣٠٦).

الرسول ﷺ وضعف أنصاره، فكان ذلك يجرئ الكفرة على إظهار عداوة الرسول، ونصب الحرب له وطمعهم في الغلبة، وفيه فساد عظيم في الأرض.

وثالثها: قال الأصم: كانوا يدعون في السر إلى تكذيبه، وجحد الإسلام، وإلقاء الشبه». اهـ.

ومنها: أنَّ قطع الأرحام صورة من صور الإفساد في الأرض، وقد خاطب الله الرحم كما عند مسلم[١] وفيه: «**أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟...**» الحديث، لذلك فإن جار الله غير مخذول وعهده غير منقوض. كما يقول القرطبي.

ومنها: أن القطع على معانٍ في كتاب الله: قال ابن سِيدَه[٢]: «**القطع**: إبانة بعض أجزاء الجرم من بعض فصلًا، قَطَعَهُ يقطعه قطعًا وقَطيعةً وقُطوعًا». والفصل يكون في الأمور المحسوسة كقطع الحبل، ويكون في الأمور المعقولة كقطيعة الرحم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، وكالقطع في الحكم على أمر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾، **وكالقطع أو قطع الدابر**: بمعنى الإهلاك أو استئصال النوع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا

---

(١) مسلم (١٦/ ٢٥٥٤)، طـ دار إحياء التراث العربي.

(٢) بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة... وهو الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده المرسي؛ كان إمامًا في اللغة والعربية حافظًا لهما، وكان ضريرًا، وتوفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وعمره ستون سنة أو نحوها. كما قال ابن خلِّكان، في وفيات الأعيان (٣/ ٣٣٠).

مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴾ [آل عمران:١٢٧] أي: ليهلك أمة منهم»[(١)].

ومنها: أن الرحم على وجهين:

قال القرطبيُّ: «الرحم عامة وخاصة، فالعامة: رحِمُ الدين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم، والنَّصَفَة في معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة، كتمريض المرضىٰ وحقوق الموتىٰ من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم.

وأما الرحم الخاصة: وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة، كالنفقة وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة، حتىٰ إذا تزاحمت الحقوق بُدِئَ بالأقرب فالأقرب». اهـ.

«**والمعنىٰ الجامع:** إيصال الممكن من الخير ودفع الممكن من الشر، وهذا إنما يطرد إن استقام أهلُ الرحم، فإن كفروا وفَخَرُوا فقطيعتهم في الله صلتهم، بشرط بذل الجهد في وعْظِهم، ومن ثَمَّ قَتَلَ أمينُ هذه الأمة أباه كافرًا غضبًا لله ونصرةً لدينه»[(٢)].

---

(١) محمد دمبي دكوري، القطعية من الأدلة الأربعة، (ص:٢٠)، ط١/ ١٤٢٠هـ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

(٢) المناوي؛ زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، (حـ٢/ ٢٣٣)، ط١/ ١٣٥٦هـ، المكتبة التجارية الكبرىٰ – مصر.

ومنها: وجوب رعاية حقوق الأقارب.

يقول الرازي(١): «والسبب العقلي في تأكيد رعاية هذا الحق أن القرابة مظنة الاتحاد والأُلفة والرعاية والنصرة، فلو لم يحصل شيء من ذلك لكان ذلك أشق على القلب وأبلغ في الإيلام والإيحاش والضرورة، وكلما كان أقوىٰ كان دَفْعُه أوجب، فلهذا وجبت رعاية حقوق الأقارب». اهـ.

لذلك قيل:

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَىٰ أَشَدّ مَضَاضَةً

علىٰ الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ المهنّدِ

ومنها: الرحم التي يجب صلتُها: وفيها ثلاثة أقوال: كل رحمٍ مُحَرَّم، **والثاني:** من كان بينهما توارث، **والثالث:** كل من يشمله ويعمه الرحم.

قال القرطبيُّ(٢): «**قال بعض أهل العلم:** إن الرحمَّ التي تجبُ صلتُها هي كلُّ رحم محرم، وعليه فلا تجب في بني الأعمام وبني الأخوال. **وقيل:** بل هذا في كل رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوي الأرحام في المواريث، محرمًا كان أو غير محرم، فيخرج من هذا أن رحم الأم التي لا يتوارث بها لا تجب صلتهم ولا يحرم قطعهم، وهذا ليس بصحيح، والصواب أن كل ما يشمله ويعمه الرحم تجب صلته علىٰ كل حال، قربة ودينية، علىٰ ما ذكرناه أولا والله أعلم».

ومنها: من هو الواصل؟

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (حـ٣/ ٥٨٧).

(٢) تفسير القرطبيّ (حـ١٦/ ٢٤٨).

قال النَّبيُّ ﷺ: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الَّذي إذا قطعت رحمه وصلها**»[١].

وعليه، فإن الناس مع أقاربهم على ثلاث درجات: -واصل- مكافئ- قاطع.

ومنه يتبين أنَّ الوصل الممدوح حقًّا هي الصلة في القريب الَّذي قطعك، فهذه هي الصلة الكاملة، فمن حديث أبي هريرة: «أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله! إنَّ لي قرابةً أصلهم، ويقطعونني، وأُحسن إليهم، ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم، ويجهلون عليَّ؟ فقال النَّبي ﷺ: «**إنْ كُنت كما قلت، فكأَنَّمَا تُسِفُّهُمْ المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك**»»[٢].

قال الإمام النووي في معنى الحديث: «إنَّك بإحسانك إليهم تحزنُهم، وتحقرهم في أنفسهم؛ لكثرة إحسانك، وقبيح فعلهم، فهم من الخزي والحقارة عند أنفسهم كمن يَسِفُّ المَلَّ، والملُّ: هو الرَّماد الَّذي يُحْمَى ليدفن فيه الخبز لينضج».

ومنها: أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استدل بهذه الآية على منع بيع أُمِّ الوَلَد: «أخرج ابْن الْمُنْذر وَالْحَاكِم وَصَححهُ[٣] عَن بُرَيْدَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كنت جَالِسا عِنْد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذْ سمع صائحًا فَقَالَ: «يَا يَرْفأُ، انْظُرْ مَا هَذَا الصَّوْتُ؟»،

---

(١) البخاري (٥٩٩١).

(٢) مسلم (٢٥٥٨).

(٣) المستدرك (٣٧٠٨) وصححه ووافقه الذهبيُّ، السنن الكبرى للبيهقي (٢١٧٧٣).

فَنظر ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: جَارِيَة من قُرَيْش تُبَاعُ أُمُّهَا. فَقَالَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ادْع لي الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار فَلم يمْكث إِلَّا سَاعَة حَتَّىٰ امْتَلَأَت الدَّار والحجرة فَحَمدَ الله وَأثْنىٰ عَلَيْهِ ثمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ فَهَلْ تَعْلَمُونَهُ كَانَ مِمَّا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ الْقَطِيعَةُ» قَالُوا: لَا، قَالَ: فَإِنَّهَا قد أَصبَحت فِيكُم فَاشِية، ثمَّ قَرَأَ ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ثمَّ قَالَ: وَأي قطيعة أقطع من أَن تُبَاعَ أمُّ أمريءٍ فِيكُم، وَقد أوسع الله لكم؟! قَالُوا: فاصنع مَا بدا لَك، «فَكَتَبَ فِي الْآفَاقِ أَنْ لَا تُبَاعَ أُمُّ حُرٍّ، فَإِنَّهَا قَطِيعَةٌ، وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ»[1].

«وفي ذلك دلالةٌ علىٰ أن الأَمَةَ إذا ولدت من سَيِّدِها حَرُم بيعها، وقد ذهب إلىٰ هذا الأكثر من الأمَّة، وسواء كان الذي يريد بيعها سيدها أو وارثه، وسواء كان الولد باقيًا أو غير باقٍ. وذهب الناصر والإمامية وبشر المَرِيسِي وداود الظاهري إلىٰ جواز بيعها.

قال ابن قدامة: «وقد روىٰ صالح عن أحمد أنه قال: أكره بيعَهُنّ، وقد باع عليّ بن أبي طالب».

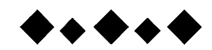
قال أبو الخطاب: «فظاهر هذا أنه يصح مع الكراهة، فعرفت أنه لا حجة في ذلك لا سيما مع هذا التردد، والجزم بالقول الأول، وقد ادعىٰ الإجماع علىٰ المنع من بيعهن جماعة من المتأخرين، وأفرد الحافظ ابن كثير الكلام

---

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، (حـ٧/ ٤٩٧)، دار الفكر - بيروت.

علىٰ هذه المسألة في جزء مفرد، قال: وتلخص لي عن الشافعي نفسه فيها أربعة أقوال، وفي المسألة من حيث هي ثمانية أقوال. والله أعلم»(١).

واستدل القائلون بجواز بيعها بروايات أنه تم بيعها في حياة النبيّ ﷺ ولم ينكر عليهم، وأيضا بأنه صح عن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه رجع عن تحريم بيعها إلىٰ جوازه، وفي الروايات مقال، والله أعلم بالصواب.



في قوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ **فوائد:**

منها: مشروعية الإعراض عمّن صدرت منه المخالفة وإنزاله عن رتبته التي كان عليها قبل المخالفة، حتىٰ يعود إلىٰ طريق الهداية، يقول ابن عَجيبة(٢): ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المذكورون، فالإشارة إلىٰ المخاطبين إيذانًا بأن ذكر مساوئهم أوجبَ إسقاطَهم عن رتبة الخطاب، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم.

ويقول **الخطيب**(٣): «لقد كان هؤلاء المؤمنون في موقف خطاب من ربّ العزة جَلَّ وَعَلَا في قوله تعالىٰ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ

(١) الحسين بن محمد بن سعيد اللاعيّ، المعروف بالمَغرِبي، البدرُ التمام شرح بلوغ المرام (حـ٦/ ٥٢)، ط١، دار هجر.

(٢) أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (حـ٥/ ٣٧٢).

(٣) عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن (حـ١٣/ ٣٥٩)، دار الفكر العربي – القاهرة.

﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ -كانوا هنا في موقف الخطاب، لأنهم كانوا في جماعة المؤمنين، وكانت الدعوة إليهم ليصححوا إيمانهم، وليأخذوا السبيل التي يأخذها المؤمنون الصادقون.

أمّا هنا، في قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ فإنهم الآن بعد حكم صدر عليهم -وهو أنهم يولّون وجوههم إلىٰ طريق آخر غير طريق الإسلام- فقذف بهم بعيدًا عن هذا الموطن الكريم الذي كانوا فيه بين المؤمنين، ثم أتبعوا بهذا الحكم الذي يأخذ طريقه معهم إلىٰ حيث انتهىٰ بهم المطاف: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ...﴾. اهـ.

ومنها: أن قطيعة الرحم من كبائر الذنوب، فكل ذنب ختم بلعنة أو غضب أو نار فهو من الكبائر. كما حققه أهل العلم.

ومنها: أن من عقوبات العقوق اللعن والطرد من رحمة الله.

ومنها: **قال الشيخ ابن عثيمين**[١]: «فَصِلَةُ الأرحام واجبة، وقطعها سبب للعنة والحرمان من دخول الجنة، وقال النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لا يدخل الجنة قاطع**»؛ أي: قاطع رحم، والصلة جاءت في القرآن والسنة مطلقة.

وَكُلُّ مَا أَتَىٰ وَلَمْ يُحَدَّدِ ... بِالشَّرْعِ كَالحِرْزِ فَبِالعُرْفِ احْدُدِ[٢]

---

(١) محمد بن صالح بن محمد العثيمين، شرح العقيدة الواسطية (حـ٢/ ٣٦٠)، طـ٦/ ١٤٢١هـ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.

(٢) من منظومة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أصول الفقه.

وعلى هذا؛ يرجع إلىٰ العرف فيها؛ فما سماه الناس صلة؛ فهو صلة، وما سماه قطيعة؛ فهو قطيعة، وهذه تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة والأمم». اهـ.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن تقع لعنة الله علىٰ عبده، فاللعن طردٌ وإبعادٌ عن رحمة الله، ومن نال ذلك فقد سُلِبَ الانتفاع بسمعه وبصره حتىٰ لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجُعِلَ كالبهيمة التي لا تعقل.

ومنها: أن العمىٰ الحقيقي هو عمىٰ البصائر لا الأبصار، يقول الشنقيطي[(١)]: «إن التمييز بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع، وبين القبيح والحسن، لما كان كله بالبصائر لا بالأبصار، صار العمىٰ الحقيقي هو عمىٰ البصائر لا عمىٰ الأبصار، ألا ترىٰ أن صحة العينين لا تفيد مع عدم العقل كما هو ضروري، وقوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ يعني بصائرهم أو أعمىٰ أبصارهم عن الحق وإن رأت غيره».

ومنها: أن الصمم عن سماع الحق وعَمَىٰ البصيرة عن رؤيته دليلُ لعْنِ الله لمن هذا حاله.

ومنها: قال الرازي[(٢)]: «وفيه لطيفة: وهي أن الله تعالىٰ قال: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾،

---

(١) محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص: ١٥٨)، ط١/ ١٤١٧هـ، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، توزيع: مكتبة الخراز - جدة.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (جـ٢٨/ ٥٥).

ولم يقل أصم آذانهم، وقال: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾، ولم يقل: أعماهم؛ وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار، والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام؛ لأن الأذن خلقت وخلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذي كما يؤذي الصوت القوي فقال: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ من غير ذكر الأذن، وقال: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ مع ذكر العين؛ لأن البصر هاهنا بمعنىٰ العين، ولهذا جمعه بالأبصار، ولو كان مصدرًا لما جُمِع فلم يذكر الأذن إذ لا مدخل لها في الإصمام، والعين لها مدخلٌ في الرؤية بل هي الكل، ويدل عليه أن الآفة في غير هذه المواضع لما أضافها إلىٰ الأذن سماها وَقْرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت:٥] وقال: ﴿فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان:٧] والوقر دون الصَّم وكذلك الطَّرَشُ».

ومنها: أنها من الأدلة التي استخدمها الجبرية لإثبات أن الإنسان مُسيَّرٌ وليس مُخيَّر، وهذا مخالفٌ لمذهب أهل السنة.

يقول الشنقيطي[1]: «قد بيَّنَّا وجهَ الجوابِ منه عن حُجَّةِ الجبريةِ؛ لأنهم يقولونَ: «إذا كان اللهُ جعلَ علىٰ قلبِه الختمَ، وعلىٰ عيونِه الغشاوةَ، وجعلَ عليه الطبعَ والأكنَّةَ، ومنعَه من الفهمِ والسماعِ إِذَنْ هو مجبورٌ»!! **وقد أَجَبْنا عن هذا: أن الآياتِ القرآنيةَ دَلَّتْ بكثرةٍ:** أن ذلك الختمَ والطبعَ إنما يجعلُه اللهُ عليهم بعدَ

---

(١) محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ (حـ١/ ٢٢٢) طـ٢/ ١٤٢٦هـ، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.

أن بَادَرُوا إلىٰ الكفرِ، وَتَمَرَّدُوا علىٰ اللهِ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ وَعَانَدُوا وَلَجُّوا في الباطلِ، فعند هذا يطمسُ اللهُ بصائرَهم جزاءً وِفَاقًا». اهـ.



في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ **فوائد:**

منها: أن الله حض علىٰ تدبر القرآن كلِّه وفقهه وعقله، والتذكر به، والتفكر فيه ولم يستثن من ذلك شيئًا.

ومنها: أن تدبر القرآن يفضي بالعبد إلىٰ العرفان، ويريحه من ظلمة التحيّر، ويفتح له مغاليق كل شيء.

يقول ابن القيم[١]: «ليس شيءٌ أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلىٰ نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر علىٰ معاني آياته، فإنها تطلع العبد علىٰ معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلىٰ طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلُّ[٢] في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتوطد أركانه،

---

(١) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (حـ١/ ٤٥٠)، طـ٣/ ١٤١٦هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.

(٢) تَلَلْتُه في يَدَيْهِ: دَفَعتُه إليه سِلمًا. كتاب العين (٨/ ١٠٧)، وتَلَّ يَتُلُّ وَيَتِلُّ إذا صَبَّ، وَقِيلَ: التَّلُّ الصَّبُّ فَاسْتَعَارَهُ للإلقاء. اللسان (١١/ ٧٨)، وكما جاء في بعض طرق الحديث، كما عند أحمد في مسنده (١٠٥١٧) قال ﷺ: «**وبَيْنَا أَنا نَائِمٌ أُتِيت بِمَفَاتِيح خَزَائِنِ الأَرض فتُلَّت فِي يَدِي**».

وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتُبَصِّرُهُ مواقعَ العِبَرِ، وتُشْهِدُهُ عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومُصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قَدِمَ عليه.

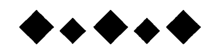
وتُعَرِّفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها، فتشهده الآخرة حتىٰ كأنه فيها، وتُغَيِّبه عن الدنيا حتىٰ كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقًّا، والباطل باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدىٰ والضلال، والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا، فيصير في شأنٍ والناسُ في شأنٍ آخر».

ومنها: أن الكتاب المنزلُ هو الحُجة العظمَىٰ علىٰ العباد، فهو الذي

عرَّفَنا ما لم يكن لعقولنا سبيلٌ إلىٰ استقلالها بإدراكه أبدًا، فليس لأحد عنه مَذهَبٌ ولا إلىٰ غيره مَفزَعٌ في مجهولٍ يعلمه ومشكل يستبينه وملتبس يوضحه. قاله ابن القيم[1].

ومنها: أن الله إذا كان قد حض الكفار والمنافقين علىٰ تدبر القرآن عُلِمَ أن معانيه مما يمكن للكفار والمنافقين تدبره، وعُلِمَ أن معانيه مما يمكن فهمها ومعرفتها.



وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ **فوائد:**

منها: قال النيسابوري: «**سؤال:** لمَّا أَثبت لهم الصمم والعمىٰ فكيف وبخهم بقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾»؟

وأجيب: علىٰ مذهب أهل السنة بأن تكليف ما لا يطاق جائز، **ويمكن أن يقال:** لما أخبر عنهم بما أخبر حكىٰ أنهم بين أمرين: إما أن لا يتدبروا القرآن؛ لأن الله أبعدهم عن الخير، وإما أن يدَّبروا لكن لا يدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة». اهـ، وقيل المقصود في الآية: الناس علىٰ عمومهم.

ومنها: أن أهل الشّرك والكفر قد سدّت بصائرهم وغطّيت أسرارهم، ولُبِّس عليهم وجهُ التحقيق، فلا يعرفون معروفًا، ولا يفارقون منكرًا، ومن قُفِل

---

(١) ابن قيم الجوزية، الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة (٢/ ٤٥٩)، طـ١/ ١٤٠٨، دار العاصمة، الرياض.

قلبه فلا يقبل موعظةً ولا يَحدُث له فهمٌ في الخطاب.

ومنها: أن من قفل قلبه فلا سبيل لخروج الباطل منه ولا دخول الحق فيه، يقول القشيريُّ: «فالباب إذا كان مقفلا فكما لا يدخل فيه شيء لا يخرج منه شيء؛ كذلك قلوب الكفار مقفلة، فلا الكفر الذي فيها يخرج، ولا الإيمان الذي هم يُدْعَوْنَ إليه يدخل في قلوبهم».

ومنها: **قال ابن القيم**[١]: «**قال بعض السلف**[٢]: ما من عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما من اللذة والنعيم ما لا خطر له مما وَعَدَ به من لا أَصْدَقُ منه حديثًا، وإذا أراد به غير ذلك تركه على ما هو عليه ثم قرأ ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾».

ومنها: أنه لو لم يكن للقلب المشتغلِ بمحبةِ غيرِ الله، المعْرِضِ عن ذكره العقوبة إلا صدؤه وقسوتُه وتعطيلُه عما خلق له لكفىٰ بذلك عقوبة، **قال رجل للحسن**: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، **قال**: أذِبْهُ بالذِّكْر، وأبعدُ القلوبِ من الله القلبُ القاسي، ولا يُذهِب قساوتَه إلا حبٌ مقلقٌ أو خوف مزعجٌ. قاله ابن القيم في الروضة.

ومنها: أنه رغم أن أقفال القلوب من خلق وصنع الله للضالين إلا أنه لو

---

(١) ابن القيم، روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:١٦٧) طـ دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٣هـ

(٢) قال هذا القول خالد بن معدان، كما نقل ذلك ابن الجوزيِّ في زاد المسير (حـ٤/ ١٢٠).

تعرض الضال لرحمة ربه فَكَّ عنه هذا القفل، لقوله تعالىٰ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾.

يقول ابن القيم[(١)]: «والمقصود: أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد أمكنه فَكَّ ذلك الختم والطابع وفتح ذلك القفل، يفتحه مَن بِيَده مفاتيح كل شيء، وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه وإن كان فك الختم وفتح القفل غير مقدور له، كما أن شرب الدواء مقدورٌ له وزوال العلة وحصول العافية غير مقدور، فإذا استحكم به المرض وصار صفة لازمة له لم يكن له عذر في تعاطي ما إليه من أسباب الشفاء وإن كان غير مقدور له، ولكن لما أَلِف العلةَ وساكَنَها ولم يحب زوالها، ولا آثر ضدها عليها مع معرفته بما بينها وبين ضدها من التفاوت فقد سَد علىٰ نفسه باب الشفاء بالكلية، والله سبحانه يهدي عبده إذا كان ضالًا وهو يحسب أنه علىٰ هدىٰ، فإذا تبين له الهدىٰ لم يعدِل عنه لمحبته وملاءمته لنفسه، فإذا عرف الهدىٰ فلم يحبه ولم يرض به وآثر عليه الضلال مع تكرار تعريفه منفعةَ هذا وخيرَه، ومضرة هذا وشرَّه فقد سد علىٰ نفسه باب الهدىٰ بالكلية، فلو أنه في هذه الحال تعرض وافتقر إلىٰ من بيده هُداه، وعلم أنه ليس إليه هَدىٰ نفسه، وأنه إن لم يهده الله فهو ضالٌ وسأل الله أن يقبل بقلبه وأن يقيه شر نفسه وفَّقَه وهداه، بل لو علم الله منه كراهيةً لما هو عليه من الضلال، وأنه مرض قاتل إن لم يشفه منه أهلكه لكانت كراهته وبغضه إياه مع كونه مبتلىٰ به من أسباب الشفاء والهداية، ولكن من أعظم أسباب الشقاء والضلال محبته له

(١) ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص:٩١).

ورضاه به وكراهته الهدىٰ والحق».

ومنها: أن في تنكير القلب وتعريف الأقفال -بالإضافة- فائدة:

يقول ابن القيم[١]: «فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء من هم بهذه الصفة، ولو قال: أَمْ علىٰ القلوب أقفالها لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة، وفي قوله: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالتعريف نوع تأكيد؛ فإنه لو قال: أقفال لذهب الوهم إلىٰ ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلىٰ القلوب علم أن المراد بها ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيرها والله أعلم». اهـ.

وقال النيسابوري[٢]: «قال جار الله: إنما نُكِّرت القلوب؛ لأنه أريد البعض، وهو قلوب المنافقين أو أريد علىٰ قلوب قاسية مُبْهَم أمرها، وإنما أضيفت الأقفال إلىٰ ضمير القلوب لأنه أريد الأقفال المختصة بها؛ وهي أقفال الكفر والعناد التي استغلقت فلا تنفتح».

ومنها: أن إقفال القلوب هو أشد مراحل الضلال، قال مجاهد[٣]: «الرّان أيسرُ من الطَّبْع، والطَّبْع أيسرُ من الإقفال، والإقفال أشَدُّ ذلك كلّه».

ومنها: قال الخطيب: «وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ -جاء النظم علىٰ خلاف الظاهر، وهو أن يجيء هكذا مثلًا: أم علىٰ قلوبهم أقفال...

---

(١) شفاء العليل (ص:٩٦).

(٢) تفسير النيسابوري (جـ٦/ ١٣٦).

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير (جـ٤/ ١٢٠).

وبذلك يتحقق إضافة هذه القلوب إلىٰ أهلها، ونسبتها إلىٰ أصحابها، هؤلاء الذين لم يتدبروا القرآن... فما سرّ هذا النظم القرآني؟.

نقول -والله أعلم-: «**إن من بعض أسرار هذا النظم:**

أولًا: فصل هذه القلوب عن أصحابها؛ وذلك يحقق للقلوب وجودًا ذاتيًا مستقِلًّا، فتقوم مقام أصحابها، وهذا يعنىٰ أن القلب هو الإنسان مختصرًا، وأنه السلطانُ القائم علىٰ كيان الإنسان، فإذا أُفسِد القلب فَسد الإنسان، وإذا صلح القلب، صلح الإنسان.

وثانيًا: تنكير هذه القلوب، وفي هذا التنكير إشارة إلىٰ أنها قلوب فاسدة، لا يقام لها وزن بين القلوب السليمة، فهي -والحال كذلك- قلوب -مجرد قلوب- في صورتها اللحمية، أما في حقيقتها، فهي هواء، وهباء!.

وثالثًا: في إضافة الأقفال إلىٰ القلوب ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾ -إشارة أخرىٰ إلىٰ أن لهذه القلوب أقفالًا خاصة بها، مقدرة بقدرها... فلكل قلبٍ قُفله الذي يلائمه...». اهـ.

مائدة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

المعنى الإجمالي

وتفتتح الآيات بذكر من انقلب حاله بعد أن تلألأ نور التوحيد في قلبه وسطع نور الإيمان فيه، فعاد على ما كان عليه من جاهلية، لا عن هدى ولكن إنما انقلب حاله لاتباعه خطوات الشيطان يُسَوِّلُ له ويُغريه بالأمانيّ حتى هلك في أودية الكفر والارتداد، وهذا من أشنع الجهالة؛ أن يتبين الهُدى ويتجلى ثم ينتقل المرء إلى ما هو دون ذلك، وقد اختلف أهل العلم فيمن المقصود بالآية على قولين: فقيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم...﴾: هم أهل الكتاب أو اليهود

الذين عرفوا الحق وارتدوا عنه. وقيل: هم المنافقون الذين ارتدوا عن الإسلام. ورجحه الطبري، وهو الأوجه على ما يلهمه فحوى السياق السابق الذي ذكر فيه مرضى القلوب.

أما الذين ﴿كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾: فقيل: هم اليهود، وقيل: هم مشركو العرب وكفارهم. وأيًا كانوا هم فقد حققوا النفاق العمليّ بجعل بعض الطاعة لغير الله إن لم تكن كلها، ولكن الله عاملهم بنقيضِ قصدِهم، فما أخفَوْه في الدنيا ليس بخافٍ عليه، فكيف سيكون حالهم عندما تتكشف الحقائق، وتصيبهم الإهانة، وأية إهانة، فالملائكة يضربون وجوههم بسبب موالاتهم لأعداء الله، كما أن الله أحبط أعمالهم التي عملوها، وهَدَم فوق رؤوسِهم الصروحَ التي شيدوها. وإنما أحبط الله أعمالهم لعدم توفر شرطي القبول لها: وهما الإخلاص والمتابعة، فهم اتبعوا ما أسخط الله، لا ما يحبه الله، ولم يخلصوا لله في عملهم، وإنما كرهوا رضوانه، وهذا منافٍ للإخلاص، ومن كان هذا حاله فلا بُدّ وأن يَظهَر الذي أضمَره، فالله يُخرِج ما احتوتْ عليه الصدور من ضغائن وحقد، ورغم كون هذا حالهم إلا أن الله يستر على عباده ليعود من يعود ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ ولكنه الكريم الستِّير، ولكن المستمر في غَيِّه سيسقط، ويُعلم هذا من فلتات لسانه، فاللسان مَغْرَفةُ القلب، ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾، وإن كان الله يعلم أعمال عباده الصالحين وغيرهم، إلا أنه جعل الاختبار والابتلاء سنةً لئلا يتَّكِلوا على مجرد علم الله بأحوالهم، وقد قال

النبيُّ ﷺ: «اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» فابتلاهم؛ لإقامة الحجة على الجميع، وإظهار أثر علم الله بأحوال الناس، فيتبين من يجاهد في الله من غيره، ويتبين الصابر بصنوف الصبر من الجازع.

فائدة

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ **فوائد:**

منها: المقصودون بالآية: **وفيها قولان لأهل العلم:**

يقول ابن عطية[1]: «قال قتادة: إنها نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عرفوا من التوراة أمرَ محمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتبين لهم الهُدىٰ بهذا الوجه، فلما باشروا أَمْرَهُ حسدوه فارتدوا عن ذلك القدر من الهدىٰ، وقال ابن عباس وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم، والآية تعُم كل من دخل في ضمن لفظها غابر الدهر».

ومنها: أن وجود الهدىٰ ليس شرطًا في وجود المهتدي، فهؤلاء ارتدوا بعد أن تبين لهم الحق، فيتبين من ذلك أنه لابد هناك من شروط لتحقيق الأثر، يقول ابن القيم -وقد مرّ بنا- وهو يعلق علىٰ قوله تعالىٰ: «﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾، قال: «إن تمام التأثير موقوف علىٰ

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، (حـ٥/ ١١٩).

مؤثر مقتض ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه، لذلك تضمنت الآية بيان ذلك كله فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ وهذا هو المؤثر، وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: القلب الحي، وهذا هو المَحَلُّ القابل، وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾، وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب»[١].

ومنها: أن الردّة عن الإسلام والتحوّل عنه -أعاذنا الله منها وثبتنا على دينه- أمر ممكن الحصول وليس بغريب، فقد حكت هذه الآية وقوع الكفر من طائفة من الناس بعد إيمانهم.

ومنها: أن الارتداد على الأدبار يستخدم في المعنويات والحِسّيات، يقول صاحب (المنار): «**الأدبار:** جمع دُبُر -بضمتين- وهو الخَلْفُ والقفا، والارتداد على الأدبار هو الرجوع إلى الوراء، يستعمل في الحسيات والمعنويات، **فمن الأول:** الارتداد على الأدبار في القتال وهو الفرار منه، **ومن الثاني:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

ومنها: **حكم المرتد: قال ابن قدامة**[٢]: «**المرتد:** هو الراجع عن دين الإسلام

---

(١) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الفوائد (ص:٣)، ط٢/ ١٣٩٣هـ، دار الكتب العلمية - بيروت

(٢) أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي، المغني، (حـ٩/ ٣)، مكتبة القاهرة - ١٣٨٨هـ.

إلىٰ الكفر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧]. وقال النبي ﷺ: «مَن بدَّل دينَه فاقتُلوه»[١].

وأجمع أهل العلم علىٰ وجوب قتل المرتد. ورُوِيَ ذلك عن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاذ، وأبي موسىٰ، وابن عباس، وخالد، وغيرهم، ولم يُنكَر ذلك، فكان إجماعًا».

ومنها: أن الشيطان يُضِلُّ على وجهين:

أحدهما: الدعوةُ إلىٰ الضلال والوعدُ والتزيينُ للباطل.

والآخر: الوسوسة، وقد وردَ عن الرسول تصديقُ ذلكَ والإقرارُ به.

ومنها: معنىٰ التسويل:

قال صاحب (تهذيب اللغة)[٢]: «وكأنّ التَّسويلَ تفعيلٌ من سُولِ الإِنْسَان وَهُوَ أمنيّتُه الَّتِي يتمنّاها، فتُزيِّن لطالبها الباطلَ والغُرور. وأصلُ السُّؤال مهموزٌ غير أنَّ الْعَرَب استثقلوا ضَغْطَةَ الْهمزَة فِيهِ فخفَّفوا الهمزَة. قَالَ الرَّاعِي فِي تَخْفيف همزِه:

(١) البخاري (٣٠١٧)، بَابٌ: لاَ يُعَذَّبُ بِعَذَابِ اللهِ.

(٢) محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، (حـ١٣/ ٤)، ط١: ٢٠٠١م دار إحياء التراث العربي، بيروت.

اخْتَرْتُـكَ[١] النـاسَ إِذْ رَثَّـت خَلائقُهـمْ
واعتَلَّ مـن كَـانَ يُرجَىٰ عِنْده السُّـولُ»

اهـ.

وقيل: «من السَّوَل وهو الاسترخاءِ، **وقيلَ:** من السُّول المخفف من السؤال لاستمرار القلبِ، فمعنىٰ سوَّلَ لـه أمرًا حينئذٍ أوقعه في أمنيته، فإن السُّؤل الأُمنيـة، وقُرِئَ سُوِّل مبنيًا للمفعولِ علىٰ حذفِ المضافِ أي كيد الشطيان»[٢].

وقال ابن عاشور[٣]: «**والتسويل:** تسهيلُ الأمر الـذي يُسْتَشْعَرُ منه صعوبةٌ أو ضُرٌّ وتزيين ما ليس بحسن».

ومنهـا: أن الشيطان لـيس لـه قـدرة علـىٰ تغيير مـا أراده الله، ولكـن هـي الوسوسةُ والتزيين والتسويلُ للنّفس، ووعْدُ الشرِّ، فهذا القدرُ من الإضلالِ هـو الذي إلىٰ الشيطان، وهذه الوسوسةُ هي تزيين وحديثٌ وكلامٌ خفيٌّ لا يسمعه الموسوَس لـه، ثـم يعتقـده إن لـم يُعصَـم ويوفـق ويُعـان، وليسـت شيئًا يفعلها

---

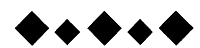
(١) «يريد اخْتَرْتُكَ من الناسِ»، قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «وَالْعرب تَقول: اخْتَرْت بني فلَان رجلًا يُرِيدُونَ اخْتَرْت مِنْهُم رجلًا قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا﴾، يُقَال: هُوَ فِي التَّفْسِير: إِنَّمَا هُوَ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ من قومه سبعين رجلًا». اهـ. غريب الحديث (٣/ ١٥٦). وذُكِرَ في حواشي لسان العرب، طبعة دار صادر- بيروت، ما نصه: «قوله: «اخترنك» هكذا في الأَصل، والصواب اختارك». اهـ، **قلت:** هكذا قال، والصواب ما ذكرنا؛ لأن أبا عبيد ذكره بلفظه السابق؛ وكذلك الهروي في تهذيب اللغة (١٣/ ٤٧).

(٢) أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم (حـ٨/ ٩٩)، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٣) التحرير والتنوير (حـ٢٦/ ١١٦).

الشيطانُ في قلب ابن آدمَ لأنّه لا قدرةَ له، ولا لأحدٍ من الخلق علىٰ أن يفعلَ شيئًا في غير محل قدرته من قلبِ آدميٍ وغيره من الأماكن والمحال. قاله الباقلاني[١]، لذلك فإن كيد الشيطان في الإضلال كيدٌ ضعيف، وبذلك وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

ومنها: أن من لطف الله بعباده أن يعلِّمَهم سُبُلَ الشيطانِ في الإغواء والإضلال ليَحْذَروه، فإنما فِعْلُه يتمثل في الوسوسة والتزيين وليس له سلطان علىٰ من يَحْذره. فعلَىٰ العبد اليقظةُ الكاملة، والاستعدادُ الدؤوب لهذا العدو.



وفي قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ **فوائد:**

منها: أن إعلام الرسول ﷺ بهذه الحوادث العظيمة، والغيوب البديعة قبل كونها من أدلة نبوته: يقول المقريزي[٢]: قال الحافظ أبو نعيم: ووجه الدلالة في إخباره ﷺ بالغيوب علىٰ صدق نبوته، وثبوت رسالته، أن مولده ومنشأَه في قومٍ أميين، لم يتعاظموا عِلمًا بالنجوم، ولا حُكمًا بالطوالع والكواكب، حسب ما يستنبطه المنجمون، ولا عُرف هو بطلب شيء من ذلك

---

(١) محمد بن الطيب القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي، الانتصار للقرآن (حـ٢/ ٦٤٦)، ط١/ ١٤٢٢هـ، دار الفتح – عَمَّان، دار ابن حزم – بيروت.

(٢) أبو العباس؛ أحمد بن علي تقي الدين المقريزي، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، (حـ ٤– ٢١٩)، ط١/ ١٤٢٠هـ، دار الكتب العلمية – بيروت.

في بلده ولا في أسفاره، وكانت الكهانة بطلت بمبعثه، ولم يكن له علم بالغيوب، إلا بوحي يأتيه به جبريل عن الله تعالىٰ، ولو كان في قومه وبلده المنجمون والمستنبطون وهو لم يخالطهم، ولا عُرف بالأخذ عنهم، وأخبر ما أخبر به من الغيوب لكان ذلك دلالةً علىٰ نُبوَّته ومعجزة له إذا أخفىٰ ذلك علىٰ عشيرته وخلطائه لمفارقة تلك العادات، وليس بجائز أن يكون إخباره مأخوذًا عن الشياطين مع ما جاء به من سبّهم ولعنهم، فثبت بهذا أن الإخبار فيما أخبر به من الغيوب عن الله تعالىٰ.

ومنها: يقول الصلابي[1]: «أن تقليد الكفار وطاعتهم منه ما هو ردة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ...﴾، وحيث جعل الله في شريعته الكمال فقد نهىٰ عن اتباع غيرها من الأهواء والنظم البشرية، ونهىٰ عن اتباع الكفار والذين لا يعلمون فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومنها: أن الآية الكريمة تدل علىٰ أن كل من أطاع مَن كره ما نزّل الله في معاونته له علىٰ كراهته، ومؤازرته له علىٰ ذلك الباطل أنه كافر بالله.

يقول ابن حزم معلقًا علىٰ الآية[2]: «فجعلهم تعالىٰ مرتدين كفرًا بعد

---

(١) عَلي محمد الصَّلاَّبي، الدولة العُثمانية -عَوامل النهُوض وأسباب السُّقوط، (ص ٣٨٦)، ط١-١٤٢١هـ، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر.

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل (حـ٣/ ١٢٢).

علمهم الحق وبعد أن تبين لهم الهدىٰ بقوله للكفار ما قالوا فقط».

ومنها: التحذير من طاعة الكفرة ومن متابعتهم.

ومنها: التهاون بالصغيرة يجرّ إلىٰ الكبيرة، والتهاون بالكبيرة يَجُرّ إلىٰ أعظم منها.

يقول الراغب الأصفهاني(١): «فحق الإنسان أن لا يسامح نفسه في الاجتهاد وأن لا يخلّ بخير تعوّده ولا يرخص لها في شر ارتكبه، فتعاطِي صغير الذنب يفضي إلىٰ ارتكاب الكبير، والإخلال بقليل الخير يؤدي إلىٰ الإخلال بالكثير كما قال الشاعر:

وأزرَقُ الفجرِ يبدُو قبلَ أبيَضِه ... وأوَّلُ الغيثِ قَطرٌ ثم يَنسكبُ

وقد نبه الله تعالىٰ علىٰ ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ...﴾. فتبين أن قولهم للذين كرهوا ما نزل الله أدَّىٰ بهم إلىٰ الارتداد علىٰ أدبارهم» اهـ.

ومنها: أن الآية فيها إشارة إلىٰ ما كان من تواطؤ المنافقين وانسجامهم مع أعداء الرسالة المحمدية سواء أكانوا اليهود أم المشركين.



(١) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص: ١٠٦-١٠٧)، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، ١٩٨٣هـ.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

فوائد:

منها: أن فيها دليلًا علىٰ أن الحيل الباطلة والنفاق وإن نَفَعَا في حياة الكافرين والمنافقين فلن تنفع آخر الأمر. فليس لهم إلا الخاتمة السيئة، والمشهد المخيف المفزع والذي تضرب فيه الملائكة وجوههم وأدبارهم.

ومنها: أن ملك الموت يتوفىٰ الأنفس، وتكون معه أعوان من الملائكة، لذلك جاءت الآية بصيغة الجمع، كما قال قتادة.

ويقول الشنقيطي(١): «**وإيضاح هذا عند أهل العلم**: أن الموَكَّل بقبض الأرواح مَلَكٌ واحدٌ هو المذكور هنا، ولكن له أعوان يعملون بأمره ينتزعون الروح إلىٰ الحلقوم، فيأخذها ملك الموت، أو يعينونه إعانة غير ذلك. وقد جاء في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور: أن النبي ﷺ ذكر فيه: «**أن ملك الموت إذا أخذ روح الميت أخذها من يده بسرعة ملائكة فصعدوا بها إلىٰ السماء**»(٢).

---

(١) أضواء البيان، (حـ٦-١٨٤).

(٢) مسند أحمد (١٨٥٣٤) بلفظ: « إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ

ومنها: قال القرطبيُّ(١): قال ابن عباس: «لا يُتَوَفَّىٰ أحدٌ علىٰ معصيةٍ إلا بضربٍ شديد لوجهه وقفاه. **وقيل**: ذلك عند القتال؛ نصرة لرسول الله ﷺ بضرب الملائكة وجوههم عند الطلب وأدبارهم عند الهرب. **وقيل**: ذلك في القيامة عند سوقهم إلىٰ النار».

ومنها: أن الآية تقتضي شيئين: **أولهما**: أنهم ميتون لا محالة، **وثانيهما**: أن موتتهم يصحبها تعذيب.

فالأول: مأخوذ بدلالة الالتزام وهو في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨] وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨١].

والثاني: هو صريح الكلام، وهو وعيدٌ للتعذيب في الدنيا عند الموت. والمقصود: وعيدهم بأنهم سيُعَجَّلُ لهم العذابُ من أول منازل الآخرة؛ وهو حالة الموت.

ومنها: أن قوله: ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ فيها تعريضٌ بهم، يقول ابن عاشور(٢):

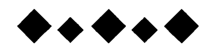
وَرِضْوَانٍ». قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ... الحديث»، ورواه ابن أبي شيبة (١٢٠٥٩)، والحاكم في مستدركه (١٠٧)، وغيرهم.

(١) تفسير القرطبي، (حـ١٦-٢٥٠).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (حـ٢٦-١١٩).

«ويضربون أدبارهم التي كانت محل الضرب لو قاتلوا، وهذا تعريض بأنهم لو قاتلوا لفرُّوا فلا يقع الضرب إلا في أدبارهم».

ومنها: أن الأعمال إنما تُحبط وتُرَدّ في وجه فاعلها إن لم يتحقق فيها شرطَا القبول، وهما: الإخلاص والمتابعة، فهنا ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُۥ﴾ تخالف الإخلاص، فلا يكره الطاعة إلا منافق منزوع الإخلاص والمحبة، أما المتابعة، فلم يتبعوا إلا ما أسخط الله، لا ما أحبه الله مطَبَّقًا على منهج النبيّ ﷺ[1].



وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾

فوائد:

منها: فائدة لغوية مع أنواع ﴿أَمْ﴾: فهي إما استفهامية فتستوجب جملةً أخرى معها، وإما تكون منقطعة.

يقول الرازي[2]: «و«أمْ» تَستدعِي جملةً أخرى استفهامية إذا كانت للاستفهام، لأن كلمة «أمْ» إذا كانت متصلة استفهامية تستدعي سَبْقَ جملةٍ أخرى استفهامية، يقال: أزيد في الدار أم عمرو؟، وإذا كانت منقطعة لا تَستدعِي ذلك، يقال: إن هذا لِزيدٍ أم عمرو؟، وكما يقال بل عمرو، والمفسرون على أنها منقطعة، ويحتمل أن يقال إنها استفهامية، والسابق مفهوم

---

(١) السابق (١١٨).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (حـ٢٨/ ٥٨).

من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ فكأنه تعالىٰ قال: أحسب الذين كفروا أن لن يعلم الله إسرارهم أم حسب المنافقون أن لن يظهرها والكل قاصر، وإنما يعلمها ويظهرها، ويؤيد هذا أن المنقطعة لا تكاد تقع في صدر الكلام فلا يقال ابتداءً: بل جاء زيد، ولا أم جاء عمرو». اهـ.

ومنها: أن أمراض القلوب تتمثل في: الشبهات والشهوات، فإن حلّت بالقلب أخرجته عن حال صحته واعتداله.

ومنها: ليس كل ما يتوهمه العبد يكون. وليس كل ما يتمنىٰ المرء يدركه، فهم كتموا ظانين أن الذي في الصدور لا يعلمه الله، لكنه يعلمه ويُخرجه، ويعاقب علىٰ المعتقَد الخاطئ الذي فيه، فليس الأمر كما توهَّموه، بل الله يفضحهم ويكشف تلبيسهم.

ومنها: أن القلب يمرض كما تمرض الأبدانُ، فالقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء؛ وذلك أعظم مما للبدن. ومرضه في معاصيه.

يقول ابن القيم[1]: «وَقَدْ أَجْمَعَ السَّائِرُونَ إِلَىٰ اللهِ أَنَّ الْقُلُوبَ لَا تُعْطَىٰ مُنَاهَا حَتَّىٰ تَصِلَ إِلَىٰ مَوْلَاهَا، وَلَا تَصِلُ إِلَىٰ مَوْلَاهَا حَتَّىٰ تَكُونَ صَحِيحَةً سَلِيمَةً، وَلَا تَكُونُ صَحِيحَةً سَلِيمَةً حَتَّىٰ يَنْقَلِبَ دَاؤُهَا، فَيَصِيرَ نَفْسَ دَوَائِهَا، وَلَا يَصِحُّ لَهَا ذَلِكَ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا، فَهَوَاهَا مَرَضُهَا، وَشِفَاؤُهَا مُخَالَفَتُهُ، فَإِنِ

---

(١) ابن قيم الجوزية، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، (ص:٧٦)، ط١/ ١٤١٨هـ، دار المعرفة - المغرب.

اسْتَحْكَمَ الْمَرَضُ قَتَلَ أَوْ كَادَ».

ومنها: أنه كلما فَسَدَ مقصدُ العمل مرِض القلبُ، فكان مقصد المنافقين غير الله؛ ذلك مرضوا ومرضت قلوبهم.

يقول ابن القيم في المدارج[1]: «فإن مدارَ اعتلالِ القلوب وأسقامِها على أصلين: فسادِ العلم، وفسادِ القصْدِ».

ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلالُ والغضب، فالضلال نتيجةُ فسادِ العلم، والغضبُ نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما مِلاك أمراض القلوبِ جميعها، فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضلال، والتحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] علمًا ومعرفةً، وعملًا وحالًا يتضمن الشفاء من مرضِ فسادِ القلب والقصد.

ومنها: أن لفظ الإخراج يأتي على وجوه: يقول صاحب (المنار)[2]: «والأصل في الإخراج أن يكون للشيء الخفيّ المستتر، أو المتمكن المستقر. ومن الأول: قوله تعالى في المنافقين: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾، وقوله بعده: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾، ومنه إخراج الموتى بالبعث، وإخراج الحَب والنبات من الأرض، ومثله في التنزيل كثير. ومن الثاني: النفي من الأوطان والديار وفيه آيات، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن

(١) مدارج السالكين لابن القيم، (حـ١-٧٧).

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (حـ١٠-٤٥٥).

دِيَـٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ ...﴾ [الحج:٤٠].

ومنها: معنىٰ الأضغان، يقول المراغي(١): «**والأضغان**: واحدها ضِغْن، وهو الحقد الشديد، وتضاغن القوم واضطغنوا إذا أبطنوا الأحقاد، قال:

قُلْ لابن هندٍ ما أردتَ بمنطق ... ساءَ الصديقَ وشَيّدَ الأضغانا؟»

ومنها: أن من كتم ضغينةً فُضِحَ وكُشِفَ تلبيسُه.

ومنها: الأَسِرّة تدلّ علىٰ السريرة، وما يخامر القلوبَ فعلىٰ الوجوه يلُوحُ أثرُه:

لَستُ ممَنْ لَيْس يَدْرِي مَا هوانٌ مِن كَرَامة

إنَّ لِلْحُبِّ وَلِلْبَغْضِ عَلَىٰ الْوَجْهِ عَلاَمَة

قاله القشيريُّ(٢).

ومنها: أن الآية توضح صفات المنافقين، حيث أن قلوبهم مريضة، والقلب المريض يصدر عنه كل قبيح كالأحقاد والغل والحسد الذي ينطوي عليه كَشْحُهُ(٣).

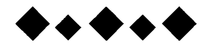
---

(١) أحمد بن مصطفىٰ المراغي (المتوفىٰ: ١٣٧١هـ)، تفسير المراغي (حـ٢٦-٦٨)، طـ١/ ١٣٦٥هـ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابىٰ الحلبي وأولاده بمصر.

(٢) تفسير القشيري (حـ٣/ ٤١٤)

(٣) **الكَشْحُ**: مَا بَيْنَ الْخَاصِرَةِ إِلىٰ الضِّلَعِ الخَلف، وَهُوَ مِنْ لَدُن السُّرَّةِ إِلىٰ المَتْن، وهُمَا كَشْحانِ، وَهُوَ موقِع السَّيْفِ مِنَ المُتَقَلِّد، وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: طويتُ كَشْحي عَلَىٰ الأَمر إِذا أَضمرته وَسَتَرْتَهُ. لسان العرب (٢/ ٥٧٢).

ومنهـــا: أن المنـافقين كـانوا يحـذرون أن يُعـرَف نفـاقُهم، ويتحاشـون الفضيحةَ به، ويحاولون تأويل مـواقفهم. وقـد حكت ذلك آيـات عديـدة، منهـا آية سورة المنافقون ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، ومنها آية سورة التوبة ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ وغيرها من الآيات.



وفي قولـه تعـالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ **فوائد**:

منها: أن قول القائل وفعله يدُلُّ علىٰ نِيَّته. وليس الأمر علىٰ إطلاقـه، فمـن حُمل علىٰ قول الكفر وإلا أُزهقت نفسه أُجيزَ له أن يتلفظ، ولكن من أتبـع فعلَـه قولَه فهذا الذي ربما يدل علىٰ ما يُضمره قلبه.

ومنها: قال عثمـان بـن عفـان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: مـا أسـرّ أحـد سـريرةً إلا أبـداها الله علىٰ صفحات وجهه، وفلتات لسانه.

ومنها: أن الإراءة تـأتي بمعنىٰ التعريـف، يقـول القرطبيُّ: «تقـول العـرب: سأريك ما أصنع، أي سأعلمك، ومنـه قولـه تعـالىٰ: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النسـاء: ١٠٥] أي بما أعلمك».

ومنها: جواز استخدام ضمير المفعول مع الفعـل اتصـالًا وانفصـالًا، فهنـا قال: ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ وهو الأفصح، وفي اللغة يجوز أن يقول: «لأريناك إياهم».

ومنها: جميل ستر الله على عباده، يقول المراغي في معنى الآية[١]: «ولو نشاء لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عيانًا، ولكن لم نفعل ذلك سترًا منا على عبادنا، وحملًا للأمور على ظاهرِ السلامة، ورَدًّا للسرائر إلى عالمها».

ومنها: الفرق بين اللامَيْن في: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ و﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾.

قال الزمخشريُّ[٢]: «الأولى هي الداخلة في جواب «لو» كالتي في ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ كررت في المعطوف، وأما اللام في ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ فواقعة مع النون في جواب قسَمٍ محذوف».

ومنها: في قوله: ﴿فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾، قال الزمخشريُّ: أي في نحوه وأسلوبه. وعن ابن عباس: هو قولهم: مالنا -إن أطعنا- من الثواب؟ ولا يقولون: ما علينا -إن عصينا- من العقاب. وقيل: اللحن: أن تلحن بكلامك، أي: تميله إلى نحو من الأنحاء، ليفطن له صاحبك، كالتعريض والتورية، قال:

ولقد لحنتُ لكمْ لكيمَا تَفقهُوا ... واللّحنُ يعرفُه ذُوو الألبابِ

وقيل للمخطئ: لاحِنٌ؛ لأنه يعدل بالكلام عن الصواب. اهـ[٣].

---

(١) تفسير المراغي، (حـ٢٦ - ٦٩)

(٢) الكشاف للزمخشري (حـ٤/ ٣٢٧)

(٣) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، شرف الدين الحسين ابن عبد الله الطيبي، (حـ١٤/ ٤٥٦)، ط١/ ١٤٣٤هـ، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.

ومنها: أن قوله: ﴿فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾، يقول الجمل[1]: واللحن يقال على معنيين:

أحدهما: الكناية بالكلام حتى لا يفهمه غير مخاطبك- ومنه قول الرسول ﷺ لبعض أصحابه في غزوة الأحزاب: «وإن وجدتموهم -أي: بني قريظة- على الغدر فالْحَنوا لي لحنا أعرفه».

والثاني: صرف الكلام من الإعراب إلى الخطأ -أي: من النطق السليم إلى النطق الخطأ-.

ويقال من الأول: لحَنتُ- بفتح الحاء- ألحن فأنا لاحن، ويقال من الثاني: لحِن- بكسر الحاء إذا لم ينطق نطقا سليما- فهو لحن. وعلى ذلك فهو نوعان كما قال الراغب: الأول: إزالة الإعراب أو التصحيف، وهو المذموم، وذلك أكثر استعمالًا، وإما بإزالته عن التصريح، وصرفه بمعناه إلى تعريض وفحوى، وهو محمود من حيث البلاغة[2].

ومنها: معنى ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: قال الطاهر بن عاشور[3]: «وَالسِّيمَى بالقصر: العلامة الملازمة، أصله: وِسْمَى بوزن فِعْلَى من الوسم، وهو جعل سِمَةٍ للشيء، وهو بكسر أوله، فهو من المثال الواوي؛ الفاءُ حُوِّلَتْ الواو من موضع فاء الكلمة فوضعت في مكان عين الكلمة، وحُولت عينُ الكلمة إلى موضع

---

(١) التفسير الوسيط للطنطاوي، (حـ١٣-٢٤٣).

(٢) نقله الطيبيّ في حاشيته على الكشاف (١٤/ ٣٥٧)

(٣) التحرير والتنوير (حـ٢٦: ١٢١)

الفاء فصارت سِوْمَىٰ فانقلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها».

ومنها: أن الألسُنَ مغارفُ القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر، قاله السعدي.

ومنها: هل كان النبيُّ ﷺ يعرف المنافقين بأعيانهم وأسمائهم؟

يقول ابن عطية[1]: «قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ مقاربة في شهرتهم، ولكنه تعالىٰ لم يُعَيِّنْهم قط بالأسماء والتعريف التام إبقاء عليهم وعلىٰ قرابتهم، وإن كانوا قد عرفوا بلَحنِ القَولِ، وكانوا في الاشتهار علىٰ مراتب: كعبد الله بن أُبيّ، والجد بن قيس، وغيرهم ممن دونهم في الشهرة. والسيما: العلامة التي كان تعالىٰ يجعل لهم لو أراد التعريف التام بهم.

وقال ابن عباس والضحاك: إن الله تعالىٰ قد عرفه بهم في سورة براءة. في قوله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ...﴾ [التوبة:٨٤] وفي قوله: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ [التوبة:٨٣].

قال القاضي أبو محمد: «وهذا في الحقيقة ليس بتعريفٍ تام، بل هو لفظ يشير إليهم على الإجمال لا أنه سَمَّىٰ أحدًا. وأعظم ما روي في اشتهارهم أن رسول الله ﷺ أمر يومًا فأخرجت منهم جماعة من المسجد؛ كأنه وَسَمَهم بهذا، لكنهم أقاموا علىٰ التَبَرِّي من ذلك، وتمسكوا بلا إله إلا الله، فحُقِنَتْ

---

(١) أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (حـ٥-١٢٠)

دماؤهم. ورُوي عن حذيفة ما يقتضي أن النبيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عرَّفه بهم أو ببعضهم، وله في ذلك كلام مع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

ومنها: لماذا لم يُعرِّفه الله بذواتهم كما هو الراجح من كلام أهل العلم؟

يقول ابن عاشور(١): «وإنما ترك اللهُ تعريفَه إياهم بسيماهم وَوَكَلَهُ إلىٰ معرفتهم بلحن قولهم إبقاءً علىٰ سنة الله تعالىٰ في نظام الخلق بقدر الإمكان؛ لأنها سنة ناشئة عن الحكمة، فلما أريد تكريم الرسول ﷺ باطلاعه علىٰ دخائل المنافقين سلك الله في ذلك مسلك الرمز».

ومنها: أن قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ فيه توكيد تقريري بأن الله يعلم أعمال جميع الناس ومحيط بها.

ومنها: أن قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ فيه وعيدٌ شديدٌ ووعْدٌ للمؤمنين وإيذانٌ بأنَّ حالهم بخلاف حال المنافقين، فلا يظلم ربك أحدًا.

ومنها: أن علم الله يترتب عليه الجزاء؛ إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، إذ لا يضيع عمل عامل عدلا منه ورحمة.

ومنها: عِلَّةُ قوله في المنافقين: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾، وفي المؤمنين قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، **يقول الرازي**(٢): «لكون حالهم علىٰ خلاف حالِ المنافق، فإن المنافق كان له قولٌ بلا عمل، والمؤمن كان له عملٌ ولا يقول به، وإنما قوله

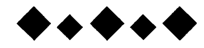
---

(١) التحرير والتنوير (حـ٢٦: ١٢٢).

(٢) تفسير الرازي (حـ٢٨-٥٩).

التسبيح، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ...﴾ [آل عمران: ١٩٣] وكانوا يعملون الصالحات ويتكلمون في السيئات مستغفرين مشفقين، والمنافق كان يتكلم في الصالحات كقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:١٤]، ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ [الحجرات:١٤]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا ...﴾ [البقرة:٨] ويعمل السيء، فقال تعالىٰ الله يسمع أقوالهم الفارغة ويعلم أعمالكم الصالحة فلا يضيع». اهـ.

ومنها: أن الآيات قد احتوت درسًا وموعظةً بليغةً مستمرة التلقين وبخاصة للزعماء والحكام الذين يسوسون الناس، ويتولونَ توجيههم في كيفية التصرف معهم؛ مخلصهم ومترددهم ومنافقهم[1].



وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾

فوائد:

منها: فيها من لطف الله، فرغم أنه سبحانه قدَّر الابتلاء ليُمحِّصَ الذين آمنوا وليميز الخبيث من الطيب، لم يفاجئنا بابتلائه، لعلمه بوقع الأسَىٰ المفاجئ علىٰ الضعف الإنساني، فقدَّم إعلامَنا به قبل أن يُوقعه بنا، ليكون سهل الحدوث هين التأثير.

---

(١) محمد عزت؛ دروزة، التفسير الحديث، (حـ٨-٣٢٥)، ط١٣٨٣هـ، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة.

ومنها: يقول الشاطبيُّ[1]: «التكاليف وضعت للابتلاء والاختبار؛ ليظهر في الشاهد ما سبق العلم به في الغائب، وقد سبق العلم بأن هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار، لكن بحسب ذلك الابتلاء، والابتلاء إنما يكون بما له جهتان، لا بما هو ذو جهة واحدة، ولذلك ترىٰ النعم المبثوثة في الأرض للعباد لا يتعلق بها من حيث هي مدح ولا ذم، ولا أمر ولا نهي، وإنما يتعلق بها من حيث تصرفات المكلفين فيها، وتصرفات المكلفين بالنسبة إليها علىٰ سواء، فإذا عُدَّت نِعَمًا ومصالحَ من حيث تصرفات المكلف؛ فهي معدودة فِتَنا ونِقَمًا بالنسبة إلىٰ تصرفاتهم أيضا، ويوضح ذلك أن الأمور المبثوثة للانتفاع ممكنة في جهتي المصلحة والمفسدة ومهيئة للتصرُّفَيْن معًا». اهـ.

ومنها: أن الله فرض الجهاد وشرَّع الشرائع للابتلاء والاختبار، حتىٰ يَعلَمَ المجاهدين والصابرين في البأساء والضراء، ويُعْرفُ الصادقُ في إيمانه من الكاذب.

قال إبراهيم بن الأشعث: «كان الفضيلُ بن عياض؛ شيخُ الحرم وأستاذُ زمانه، إذا قرأ هذه الآية بكىٰ وقال: اللهمّ لا تبتلينا، فإنك إذا بَلَوْتنا فضحْتَنا وهتكتَ أستارنا»[2].

(١) إبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، الموافقات، (حـ٣-٥١١)، طـ١ -١٤١٧هـ، دار ابن عفان.

(٢) إبراهيم القطان، تيسير التفسير.

ومنها: «أنه بالابتلاء والامتحان تتبين جواهر الرجال، فيظهر المخلص، ويفتضح الممـاذق[١]، وينكشف المنافق، فالـذين آمنوا وأخلصوا نجوا وتخلصوا، والذين كفروا ونافقوا وقعوا في الهوان وأذلّوا، ووُسِمُوا بالشقاوة وقُطِعُوا». قاله القشيريُّ

ومنها: أن الله -جلت حكمته- يأخذ البشر بما هو في طَوْقهم، وما هو من طبيعتهم واستعدادهم. وهم لا يعلمون عن الحقائق المستكِنَّة ما يعلمه. فلا بُدّ لهم مِن تكشُّفِ الحقائق لِيُدرِكوها ويعرفوها ويستَيْقِنوها، ثم ينتفعوا بها، والابتلاء بالسراء والضراء، وبالنعماء والبأساء، وبالسعة والضيق، وبالفرج والكرب... كلها تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس، وما هو مجهول من أمرها حتىٰ لأصحابها.

ومنها: أن قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ...﴾ لا ينفي علمَه السابق، **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية**[٢]: «والله تعالىٰ يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، وهو سبحانه قد قدَّرَ مقاديرَ الخلائقِ، وكتبَ أعمالَ العباد قبل أن يعملوها كما ثبت ذلك في صريح الكتاب والسنة وآثار السلف، ثم إنه يأمر الملائكة بكتابتها بعد ما يعملونها؛ فيقابل به الكتابة المتقدمة علىٰ الوجود، والكتابة المتأخرة عنه فلا يكون بينهما تفاوت، هكذا قال ابن عباس وغيره من السلف -وهو حق-». اهـ.

---

(١) مَذَقَ: الْوُدَّ أَيْ لَمْ يُخْلِصْهُ مِنْ بَابِ نَصَرَ فَهُوَ «مَذَّاقٌ» وَ«مُمَاذِقٌ» أَيْ غَيْرُ مُخْلِصٍ.(مختار الصحاح)

(٢) الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية (جـ١٢/ ١٢٧).

وعليه يكون معنىٰ علمُ الله في الآية ما قاله ابن الجوزيِّ[١]: «حَتَّىٰ نَعلمَ العِلم الذي هو عِلْم وجود، وبه يقع الجزاء»، ثم قال في مثل ذلك في قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ..﴾ [العنكبوت:٣][٢]: **فيه ثلاثة أقوال:**

أحدها: فلَيَرَينّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الذين صَدَقوا في إيمانهم عند البلاء إذا صبروا لقضائه، ولَيُرِيَنَّ الكاذبين في إيمانهم إذا شكُّوا عند البلاء، قاله مقاتل.

والثاني: فلَيُمَيِّزَنَّ، لأنَّه قد عَلِم ذلك مِنْ قَبْل، قاله أبو عبيدة.

والثالث: فلَيُظْهِرَنَّ ذلك حتىٰ يوجد معلومًا، حكاه الثعلبي. اهـ، وهذا الرأي هو الذي ذهب إليه ابنُ عطية في تفسيره فقال[٣]: «﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَـٰهِدِينَ﴾: أي: حتىٰ يعلمهم مجاهدين قد خرج جهادُهم إلىٰ الوجود وبان تكسُّبُهم الذي به يتعلق ثوابهم، وعِلْمُ الله بالمجاهدين قديم أزلي، وإنما المعنَىٰ ما ذكرناه».

ومنها: بناءً علىٰ ما سَبَق فإن سَبْق علمِ الله تعالىٰ ليس حجةً للمحتجِّين بالقدَر علىٰ معاصيهم.

فقال بعض أهل العلم[٤]: «العلم علىٰ منزلتين: علم بالشيء قبل وجوده، وعلم به بعد وجوده. والحكم للعلم به بعد وجوده لأنه يوجب الثواب

---

(١) ابن الجوزيّ، زاد المسير (حـ٤/ ١٢٢).

(٢) السابق (حـ٣/ ٣٩٩).

(٣) أبو محمد عبد الحق المعروف بابن عطية الأندلسي المحاربي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (حـ٥/ ١٢١) طـ١-١٤٢٢هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٤) ابن تيمية، الرد علىٰ المنطقيين، (ص ٤٦٦)، ط دار المعرفة، بيروت، لبنان.

والعقاب». اهـ، وعليه فإن الله يحاسبهم بأعمالهم، لا بعلمه السابق.

ومنها: أن للصبر قيمةً عظيمةً حيث جعله الله في الآية قرينَ الجهاد، فالصبر فضيلة يحتاج إليها المسلم في دينه ودنياه. ولْيُعْلَم أن الصبرَ واجب من حيث الجملة.

ومنها: **فضيلة الصبر:**

فمن فضائله أن صاحبه يُوَفَّىٰ أجره بغير حساب، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وأخبر سبحانه أنه معهم بهدايته ونصرته وفتحه المبين، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فذهب الصابرون بهذه المعية التي هي خير الدنيا والآخرة، وشاركَ بعضَ الأنبياء في هذه المعية، كما في قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وأخبر تعالىٰ أن الصبر خيرٌ لأهلِه خبرًا مُؤَكَّدًا. فقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، وأخبر أن الصبر مع التقوىٰ لا يضُرّ معه كيدُ الأعداءِ أبدًا. فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١٢٠].

ومنها: أنه لا يوجد خيارٌ آخرَ للتعامل مع الابتلاءات غير الصبر والثبات والاعتصام بالله عَزَّوَجَلَّ.



مائدة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

وهنا انتقل حديثُ القرآن مِنَ المنافقين إلىٰ الكفار الذين جمعوا أنواع الشرور كلِّها، فلم يكتفوا بضلالهم، ولكنهم سعوا لإضلال غيرهم، فكفروا بالله وصدُّوا الناسَ عن سبيله بمُشاقَّة الرسولِ بعد أن تبين لهم صدقُ نبوَّته وقد جاءهم بالحق، إلا أن كل هذا الجبروت إنما ينصب ضرره عليهم لا علىٰ غيرهم في الدنيا وإحباط أعمالهم في الآخرة، ثم دعا المؤمنين بأن لا يقلدوهم؛

فإن كانوا كفروا بالله وشاقُّوا الرسولَ فعلَىٰ المؤمنين طاعةُ الله ورسوله لئَلا يُصابُوا بمصابهم من إحباط أعمالهم، إلا أن الله من رحمته فتح لهم سبيل العودة إليه، فمن أَصرَّ علىٰ كفره ومات عليه فهذا لا خَلاق له في الدنيا ولا عزة له في الآخرة، ومن تاب قَبْلَ ذلك قُبِلَ منه رحمةً من الله. ثم حثَّ الأمة علىٰ جهاد أعدائها بالانتصار علىٰ وساوس النفس التي تدعو إلىٰ الوهن والضعف واختيار أضعف الحلول وهي الدعوىٰ إلىٰ السلم، وقد ذكرهم الله بثلاثة أشياء تمنعهم من هذا الخنوع: **الأولىٰ**: فهم الأعلَوْن فلا ينبغي للأعلىٰ أن يأتي أقل الأحوال، **والثانية**: أن الله معهم، وهذا ركنٌ شديد، ومن كان الله معه فلا أحد عليه، **والثالثة**: ولن يَتِرَكُم أعمالكم، أي لن ينقص من أعمالكم شيئًا سيوَفِّيكم علىٰ قدر جهودكم وزيادة، وخاصة في عبادة الجهاد التي تُضاعف فيها الأجور إلىٰ السبعمائة ضِعف وزيادة، فكل شيءٍ في الجهاد له أجر؛ فالظمأ والنصَب والمخمصة وما ينالونهم من أعدائهم كله يُكتب لهم به عملٌ صالح. وكل هذا مدعاةٌ للهمة والسعي الجاد في رِفعة كلمة الله استجابةً لأمره سبحانه.

ثم رغبهم الله سبحانه في ذلك بتعريفهم قيمة الدنيا لئلا يركنوا إليها فهي لعِبٌ ولهو، فمن انخدع بها وافته منيتُه ولا خيرَ قدَّمَه، والأَوْلىٰ بالعاقل أن يقدِّم الإيمانَ والتقوىٰ والبذلَ في ذات الله الذي يوفي الأجورَ بأكثر مما يستحق صاحبها، وفي ذات الوقت لا يكلف العباد بما فوق طاقتهم؛ لأنه لو كلفهم بما لا يطيقون عجزوا عن تنفيذ الأمر، وخاصة في أمور الإنفاق، غير أن هناك من يأتيه التكليف الذي في وُسْعه لكنه يتلكأُ ويمتنعُ ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾، وهذا

الذي يبخل إنما يعود أثر بخله علي نفسه؛ لأن الله غنيٌّ عن العالمين وهو الذي رزق، فأعطاك ثم طلب منك بعض ما أعطاك ليرفع بذلك درجتك فهو المتفضل أولًا وآخرًا، وهو المحتاج إليه في جميع الأحوال، إلا أنه جعل سبحانه قاعدةً عامة فيها تهديدٌ شديدٌ -ربما تحتاجه بعض النفوس الضعيفة- ختم بها السورة مفادها: أن من تولىٰ عن الإيمان بالله وامتثال أمره تكبرًا فإن سنة التبديل تحدث، فيأتي الله بمن يطيعه ويحب رسوله، فمن لم ينهض بتكاليف هذه الدعوة فإن الله يحرمه كرامة حملها والانتداب لها، ويستبدل بهؤلاء قوما غيرهم ينهضون بتكاليفها، ويعرفون قدرها.

فائدة

في قوله تعالي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ **فوائد:**

منها: «أن الآيةَ دليلٌ علىٰ أن مشاقة الرسول لا تقتصر علىٰ حياته فقط بل بعد موته أيضًا، لأن الحكم عام في الذين كفروا الذين تصدرت بهم الآية، والكفر كذلك مستمر ما بقيت الدنيا، أما مشاقَّة الرسول في حياته عن طريق إعلان الحرب عليه، والمخالفة عن طريقه، والوقوف في غير صَفِّه، وأما بعد وفاته فبمحاربة دينِه وشريعتِه ومنهجِه والمتبعين لسنته والقائمين علىٰ دعوته».

ومنهــا: أن فعـل ﴿شَآقُّواْ﴾ مشـتق مـن كلمـة شِـق -بكسـر الشـين- وهـو الجانب، والمشاقة المخالفة، كنَىٰ بالمشـاقة عـن المخالفـة؛ لأن المسـتقِرّ بشِـقٍ مخـالفٌ للمسـتقِرِّ بشـقٍ آخـر، فكلاهمـا مخـالف، فلـذلك صِـيغت منـه صـيغة المفاعلة.

ومنها: أن الله منزهٌ عن أن يتضرر بكفرِ كـافرٍ وفسقِ فاسقٍ؛ لأن العبـاد لـن يبلغوا ضرّ ربهم فيضرونه، فهو منزّه عن ضـرر الغيـر مهمـا كـان، وإنمـا يضـرون أنفسهم ويخسرونها يوم المعاد.

ومنها: **أن المشاقة نوعان**: مُشاقّةٌ ظاهرةٌ ومُشاقةٌ خَفيةٌ.

- **فالظاهرة**: هي ما يقوم به المشركون، فيعلنون ذلـك ويعادونـه في وَضَـح النهـار، ويسـلكون كـل سـبيل لإبطـال دعوتـه علـىٰ المـلأ، هـذا علـىٰ قـول أن الكافرين في الآية هم المشركون الذين وقع ذكرهم في أول السورة.

- **مُشَاقةٌ خفية**: وهي التي تكون بمـا يُضـمَرُ في الصـدور وتُخفيـه الجـوانح من حسدٍ وكيدٍ ومكر، وهذا علىٰ القول بأن الذين كفروا في الآية هـم يهـودُ بَنـي قريظةَ والنَّضيرُ، و﴿تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ بأنه النبيُّ حقًّا كما جاء في كُتبهم.

ومنها: أنه علىٰ قول أن الـذين كفـروا في الآيـة هـم يهـود بني قُريظـة وبنـي النضير، فإن الآية تكون تمهيدًا لغزْوِهِم. كما يقول الطاهر بن عاشور.

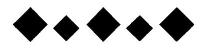
ومنها: أن قولـه تعـالىٰ: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ دليـلٌ علـىٰ أن هـؤلاء أخـسّ من أن يقع منهم ضـررٌ علىٰ الله؛ وكـذلك فـإنهم لـن يضـروا ديـنَ الله ولا منهجَـه

ولا القائمين على دعوته، ولن يُحدِثوا حدثًا في نواميسه وسننه مهما بلغ مِن قوَّتهم، ومهما قدروا على إيذاء بعض المسلمين فترة من الوقت، فإن هذا بلاء وقتيٌّ يقع بإذن الله لحكمةٍ يريدها، وليست ضرًا حقيقيًا لناموس الله وسنته ونظامه ونهجه وعباده القائمين على نظامه ونهجه. والعاقبة مقررة: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

ومنها: انتصب ﴿شَيْـًٔا﴾ على المفعول المطلق لـ﴿يَضُرُّوا۟﴾ والتنوين للتقليل، أي لا يضرون في المستقبل اللهَ أقل ضُرّ. وإضرارُ اللهِ أريد به إضرار دينه.

ومنها: استخدام حرف الاستقبال في قوله: ﴿وَسَيُحْبِطُ﴾؛ وذلك لتحقيق حصول الإحباط في المستقبل، وهو يدل على أن الله محبِطٌ أعمالَهم من الآن إذ لا يعجزه ذلك حتى يترصد به المستقبل، وهذا التحقيق مثل ما في قوله في سورة يوسف: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾. قاله ابن عاشور.

ومنها: أنَّ تبيُّنَ الهدى دليلٌ على أن أمر الله في ازدياد ونماء وأن أمور المخالفين في إدبار.



وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾

فوائد:

منها: أن المؤمنين مأمورون على الدوام بلزوم طاعة الله في أوامره وسنة

رسوله ﷺ، منهيون عن إبطال حسناتهم بالمعاصي الكبائر، أو بالرياء والسمعة، أو بالمن والأذى، أو بترك طاعة الرسول ﷺ.

ومنها: أن إبطال الأعمال يكون بأشياءَ كُثُر. **قال القشيريُّ:** ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ بالرياء والإعجاب والملاحظة. ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ بالمساكنة إليها. «لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ» بطلب الأعواض عليها»، **وقيل:** ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ على معنى النهي عن قطع العمل المتقرَّب به إلى الله تعالى، فمن شرع في عملِ طاعةٍ فلْيتِمَّه، كما سنذكر مذاهب العلماء في ذلك.

وقال ابن الجوزيّ[١]: «اختلفوا في مُبْطِلها على أربعة أقوال: **أحدها:** المعاصي والكبائر، قاله الحسن. **والثاني:** الشَّكّ والنِّفاق، قاله عطاء. **والثالث:** الرِّياء والسُّمعة، قاله ابن السائب. **والرابع:** بالمَنّ».

ومنها: قال ابن عاشور[٢]: «طاعة الرسول ﷺ التي أمروا بها هي: امتثال ما أمر به ونهى عنه من أحكام الدين. وأما ما ليس داخلًا تحت التشريع فطاعة أمر الرسول ﷺ فيه طاعة انتصاح وأدب، ألا ترى أن «بَريرة» لم تُطِعْ رسول الله ﷺ في مراجعة زوجها «مُغيث» لمَّا علمت أن أمرَه إياها ليس بعزم». اهـ.

ومنها: أن النهي عن إبطالهم الأعمال معناه النهي عن أسباب إبطالها، **وقيل:** يبطل حسنات أعمالهم بكفرهم ومشاقَّتهم ومعاداتهم الرسول ﷺ.

---

(١) أبو الفرج ابن الجوزيّ، زاد المسير (حـ٤/ ١٢٢).

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (حـ٢٦/ ١٢٧).

ومنها: **قال البيضاوي**(١): «وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر». اهـ.

وهو مذهب المعتزلة، وتمسكوا بهذه الآية، فزعموا أن الكبائر تحبط الطاعات. **فقال ابن عاشور**(٢): «ونحن نرى أن كل ذلك مسطورٌ في صحف الحسنات والسيئات، وأن الحسنة مضاعَفةٌ والسيئةَ بمقدارها. وهذا أصلٌ تواتر معناه في الكتاب وصحيح الآثار».

ومنها: قال الزحيلي(٣): «يدل ظاهر نهي المؤمنين عن إبطال أعمالهم على أن من شرَع بنافلة، ثم أراد تركها ليس له ذلك، **وللعلماء آراء في الموضوع**:

- فذهب الشافعي إلى أنه يجوز ترك ما شرع فيه من أعمال التطوع، لأن المتطوعَ أميرُ نفسه، وإلزامه إياه مخرِجٌ عن وصف التطوع: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، **والمراد بالآية**: إبطال ثواب العمل المفروض، فإن الله نهى الرجل عن إحباط ثوابه، فأما ما كان نَفْلا فلا، لأنه ليس واجبًا عليه. فإن **قيل**: اللفظ عام، **فالجواب**: أن العام يجوز تخصيصُه؛ لأن النفلَ تطوعٌ، والتطوع يقتضي تخييرًا.

- وذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنه لا يجوز ترك ما بُدِئَ به من تطوع،

---

(١) تفسير المنير للزحيلي (حـ٢٦/ ١٣٠).

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (حـ٢٦/ ١٢٨).

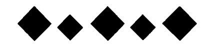
(٣) المنير للزحيلي، (حـ٢٦/ ١٣٤).

كصلاة نافلة وصوم تطوع، لأن المتطوعَ أميرُ نفسه قبل أن يَشْرَعَ، أما إذا شَرَعَ فقد أَلزَم نفسه، وعَقَدَ عزمَه على الفعل، فوجب عليه أن يؤدي ما التزم، وأن يوفي بما عقد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١]».

ونُقِل عن القرافي في (الذخيرة): «أن مالكًا قال بوجوب سَبْعِ نوافل بالشروع، وهي: الصلاة والصيام والحج والعمرة والاعتكاف والائتمام وطواف التطوع، دون غيرها نحو الوضوء والصدقة والوقف والسفر للجهاد، وزاد «حُلُولُو»[1]: إلحاق الضحية بالنوافل التي تجب بالشروع».

قال الطاهر بن عاشور: «ولم أقف على مأخذ القَرَافي ذلك ولا على مأخذ «حُلُولُو» في الأخير، ولم ير الشافعي وجوبًا بالشروع في شيء من النوافل وهو الظاهر» اهـ.

ومنها: أن النهي عن إبطال الأعمال يشمل النهي والتحذير عن كل ما بَيَّنَ الدين أنه مبطل للعمل؛ كُلًّا أو بعضًا، مثل الردة، ومثل الرياء في العمل الصالح؛ فإنه يبطل ثوابه.



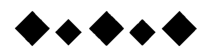
(١) هو: أحمد بن عبد الرحمن بن موسى القيرواني، أبو العباس، المعروف بحُلُولُو، توفي عام ٨٩٨هـ، وهو عالم بالأصول، مالكي. من أهل القيروان، استقر بتونس. ولي قضاء طرابلس الغرب ثم صرف عنه فرجع إلى تونس وولي مشيخة بعض المدارس، إلى أن توفي بها. وله كتب، وقال السخاوي: وهو أحد الأئمة الحافظين لفروع المذهب، وعربيته قليلة. (الأعلام للزركلي).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ **فوائد:**

منها: أنها دليلٌ علىٰ أن من مات علىٰ الكفر وجبت له النار، كما في قوله تعالىٰ أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران:٩١].

ومنها: أن أعمال المكلف إذا بطلت فإن فضل الله باقٍ يغفر له إن شاء؛ ما لم يمت علىٰ الكفر.

ومنها: أن الفرصةَ متاحةٌ فقط للمغفرة في هذه الدنيا، وباب التوبة يَظلُّ مفتوحًا للكافر وللعاصي حتىٰ يغرغر. فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة، فقد ذهبت الفرصة التي لا تعود.



وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ **فوائد:**

منها: مشروعية أخذ الحيطة والحذر قبل حدوث الشر ووقوعه.

يقول الطاهر ابن عاشور[1]: «وهذا النهي عن الوهن وعن الدعاء إلىٰ السَّلْم تحذير من أمرٍ توفرت أسبابُ حصوله مُتَهَيِّئَةً للإقدام علىٰ الحرب عند

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (جـ٢٦/ ١٣٠).

الأمر بها، وليس نهيًا عن وهن حصل لهم، ولا عن دعائهم إلىٰ السلم؛ لأن هذه السورة نزلت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد في مدة لم يكن فيها قتالٌ بين المسلمين والمشركين، ولكنَّ التحذيرَ من أن يستوهِنَهُم المنافقونَ عند توجّه أمر القتال».

ومنها: أنه لا حرمة للكافر في الدنيا والآخرة.

ومنها: «أن فيها النهيَ عن إسلام النفس لخواطر الضعف، والعمل بهذا النهي يكون باستحضار مساوئِ تلك الخواطر، فإن الخواطر الشرِّيرة إذا لم تقاومها همةُ الإنسان دبَّتْ في نفسه رُويدًا رُويدًا حتىٰ تتمكن منها فتصبح مَلَكَةً وسجيَّةً». قاله ابن عاشور.

ومنها: أن كل ما يحطُّ من شوكة المسلمين في نظر المشركين لا يجوز اقترافه، ويجب البعد عنه.

ومنها: «أن الله سبحانه نهىٰ المسلمين في هذه الآية أن يدعوا إلىٰ السّلم ابتداءً، ولم يَنْهَ عن قبول السّلم إذا جنح إليها المشركون». قاله أبو الطيب القِنَّوجي(١)، وليس بين هذه الآية وآية الأنفال عن السِّلم ثمَّة تعارض، ولا أن إحداهما ناسخة للأخرىٰ، بل هما مُحْكَمتان، وكل واحدة منهما مُنزَّلةٌ علىٰ حال غير الحال التي نزلت عليه الأخرىٰ. فالنهي في آية القتال هذه في قوله

---

(١) أبو الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، (ص:٤٢١)، ط دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.

تعالىٰ: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ إنما هو عن الابتداء بطلب السلم، والأمر بالجنوح إلىٰ السلم في آية الأنفال مَحلُّه فيما إذا ابتدأ الكفار بطلب السلم والجنوح لها، كما هو صريح قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٦١][1].

ومنها: يقول ابن الجوزيِّ[2]: «وفي هذا دلالة علىٰ أنه لا يجوز طلب الصّلح من المشركين، ودلالة علىٰ أنّ النبيّ ﷺ لم يدخل مكة صُلحًا؛ لأنه نهاه عن الصُّلح».

ومنها: يقول الشنقيطي في (الأضواء): «أن المؤمنين إذا كانوا في ضعف وعدم قوة فلا مانع من أن يدعوا إلىٰ السَّلم أي الصلح والمهادنة»، ومنه قول العباس بن مِرْدَاسٍ السُّلَمِيّ:

السَّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ
وَالْحَرْبُ تَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: «فأما إذا كان الكفار فيهم قوةٌ وكثرةٌ بالنسبة إلىٰ جميع المسلمين، ورأىٰ الإمامُ في المعاهدة والمهادنة مصلحةً، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صدَّه كفارُ قريشٍ عن مكة، ودَعوه إلىٰ الصلح ووضْع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم إلىٰ ذلك». اهـ.

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي (حـ٧/ ٣٩٠).

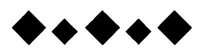
(٢) أبو الفرج ابن الجوزي، زاد المسير، (حـ٤/ ١٢٣).

ومنها: أن الصلح والمسالمة علىٰ سبيل الخوف من الكافرين وغيرهم، وإظهار العجز أمامهم، هو نوع من إعطاء الدنِيَّة التي تأباها تعاليم الدين.

ومنها: أن من كان الله معه فهو الأعلىٰ وهو الغالب وهو القاهر المنصور الموعود بالثواب، ومن كان هذا حاله فلا يضعف عن مقاومة الكفار، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

ومنها: أن قوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر علىٰ الأعداء.

ومنها: أن قوله: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ دليلٌ علىٰ أن الله لا ينقصُ شيئًا من ثواب الأعمال، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات:١٤].



وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ **فوائد:**

منها: أن فيها تحقيرًا لأمر الدنيا وتهوينًا لشأنها.

ومنها: أن فيها نهيًا عن حب الدنيا، والتلذذ بالعيش فيها؛ لأن من وراء ذلك الذل والهوان، يقول أبو العلاء المعري(١):

(١) ديوان أبي العلاء المعري.

وحُـبُّ الفتـىٰ طـولَ الحيـاةِ يُذِلُّـه
وإنْ كـان فيـه نَخْـوَةٌ وعُـرامُ[1]
وكُـلٌّ يُريـدُ العَـيْشَ والعيـشُ حَتفُـه
ويَسْـتَعْذِبُ اللـذّاتِ وَهْـيَ سِـهامُ

ومنها: «أن «اللَّعب»: هو كل ما لا ضرورة فيه في الحال ولا منفعة في المآل، ولم يشغل عن غيره، فإن شغل عن غيره فهو «لَهْوٌ»، ومنه آلات الملاهي، لأنها مشغلة عن غيرها». قاله الزحيلي.

وقال الطاهر بن عاشور[2]: «واللَّعِب: الفعل الذي يريد به فاعله الهزل دون اجتناء فائدة؛ كأفعال الصبيان في مرحهم. واللهو: العمل الذي يعمل لصرف العقل عن تعب الجِد في الأمور فيلهو عن ما يهتم له ويكد عقله».

ومنها: أن العاقل من استرخص الدنيا وطَلَبَ الآخرة، «فإنما حاصل الدنيا لعب ولهو، أي باطل وغرور، لا ثبات له ولا اعتداد به إلا ما كان منها لله عَزَّوَجَلَّ، بسلوك سبيله وطلب رضاه وعبادته وطاعته»[3].

ومنها: أن الحياة الدنيا إن أقبل عليها العبدُ ناسيًا الدار الآخرة مقبلًا علىٰ الدنيا لن تكون في حقه إلا لهوًا ولعبًا باعتبار أنه لم يظفر منها علىٰ طائل، ولم تعد عليه بعائدِ خيرٍ وإسعادٍ؛ كاللاعب اللاهي بشيء يلعب ويلهو فترة ثم

---

(١) عُرام: مصدر عَرُمَ، وتعني الشراسة والأذىٰ.
(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (حـ٢٦/ ١٣٣).
(٣) تفسير المنير للزحيلي (حـ٢٧/ ١٣٧).

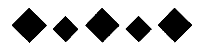
لا يعود عليه ذلك اللعب بشيء كلعب الصبيان ولهوهم[١].

ومنها: أن قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ دليل على أن الله إذا وَعَدَ وفَّى وأوفى، أما الأجر فقد بينه الله في غير ما آية؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٢٨].

ومنها: أن في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ **أوجهًا للمفسرين:**

- أن الله لا يسألكم كل أموالِكم بل بعضها كما أوجبه في الزكاة.

- ولا يسألكم النبي ﷺ أموالكم أجرًا على ما بلغكم من الوحي المتضمن لخير الدنيا والآخرة.



في قوله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ **فوائد:**

منها: قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾، **أي**: يبالغ في الطلب، والإحْفاء والإلحاف: هو بلوغُ الغاية في كل شيء، يقال: أَلْحَفَ بالمسألة وأحفَى وألَحَّ بمعنى واحد[٢].

ومنها: أن في الإنفاق علاجًا لأمراض النفوس وتطهيرها من الأضغان وغيرها، **قال قتادة**: «قد عَلِمَ الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان».

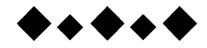
---

(١) جابر بن موسى؛ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (حـ٥/ ٩١)، ط٥/ ١٤٢٤هـ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

(٢) تفسير المنير للزحيلي (حـ٢٦/ ١٣٧).

ومنها: أن فيها دليلًا علىٰ لطف الله بعباده، فإنه لم يأمرهم بإنفاق جميع المال، بل بعضه. **قال الزحيلي**[(١)]: «لذا لم يأمر الله لطفًا منه ورحمةً بإنفاق جميعِه في سبيله، كالزكاة والجهاد ووجوه الخير، بل أمر بإخراج البعض من الربح الذي هو من فضل الله وعطائه، لا من رأس المال، ليرجع ثوابه إلىٰ المنفق نفسه، فكانت النسبة تتراوح بين ربع العُشر ونصف العُشر والعُشر فقط، لذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ إنما يسألكم أمواله، أي الأرباح التي ييسرها لكم، لأنه المالك لها، وهو المنعم بإعطائها».

ومنها: أن المال محبوبٌ إلىٰ النفس، ولا يُصرف إلا فيما هو أحب إلىٰ الشخص منه.



وفي قوله تعالىٰ ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ **فوائد:**

منها: أن من بخل فإنما يبخل عن نفسه، فالله وعدَ المنفقين في سبيله بالعِوض والزيادة، فعند البخاريِّ ومسلم[(٢)] من حديث أبي هريرة قال ﷺ: **«مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»**.

---

(١) السابق (حـ ٢٦/ ١٤٠).

(٢) البخاريُّ (١٤٤٢)، مسلم (٥٧)، (١٠١٠).

ومنها: أن من يبخل بما فُرِضَ عليه إخراجه من الزكاة، أو ندب إلىٰ إنفاقه في وجوه البر فلا يتعداه ضُرُّ بُخلِه، فإن الذي يبخل في الإنفاق، إنما يمنع نفسه الأجر والثواب ببخله، ويعود وبالُ ذلك عليه، فإنه بالبخل يتغلب العدو، فيذهب العز والمال، وربما النفس.

ومنها: «أن البخل يستعمل بعَن وبِعَلَىٰ؛ لتضمّنه معنىٰ الإمساك والتعدّي؛ أي: فإنما يمسك الخير عن نفسه بالبخل»[1].

ومنها: أن الله لم يفرض زكاة المال ولم يندب الناس إلىٰ الإنفاق احتياجًا، وإنما فرض صدقات الأموال، مواساة للفقراء؛ ليعود نفع ذلك علىٰ المنفقين لا عليه سبحانه، ويرجع ثوابه إليهم.

ومنها: أنَّ من افتقر إلىٰ الله استغنىٰ بالله، ومن افتقر إلىٰ غير الله وقع في الذّلّ والهوان.

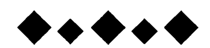
ومنها: «أن الله «غَنِيٌّ» بنفسه وغنيّ بوصفه، وغناه كونه لا تتقيد مراداته. أمّا العبد فهو فقير بنفسه لأنه لا يستغني عن مولاه في الابتداء منذ خَلَقَهُ إلىٰ الانتهاء، وهو في دوام الأوقات مفتقرٌ إلىٰ مولاه». قاله القشيريُّ[2].

---

(١) العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، مراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (حـ٢٧/ ٢٠٣)، ط١/ ١٤٢١هـ، دار طوق النجاة، بيروت - لبنان.

(٢) تفسير القشيري (حـ٣/ ٤١٦).

ومنها: أن الغِنَىٰ وصفٌ لازمٌ له سبحانه، وَوَصْفُ الخلْقِ بالفقر وصفٌ لازمٌ لهم، لا ينفكون عنه، ففقرُهم هو بالنسبة إلىٰ غنَىٰ الله تعالىٰ وإن كانوا قد يغنون في بعض الأحوال لكن ذلك غِنىً قليل وغير دائم.



في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ **فوائد:**

منها: أن النفوسَ البشرية ليست متساويةً فبعضُها يجبُ أن يخاطَبَ باللين وبعضها بالقسوة لأن أسلوب الآية شديدٌ علىٰ النفوس المؤمنة وخاصةً وأن الخطاب لها.

ومنها: أن تعلم أن التهديد العنيف والتوبيخ قد يكون عِلاجًا لبعض الأنفس الضعيفة.

ومنها: أن الشدة في التعامل مع بعض الناس أو في بعض الأحايين لا تنافي الرحمة واللين المطلوب من الداعية، فكلٌ له بابه، كما قال **أبو الطيب المتنبي**:

وَوَضْعُ النَّدَىٰ في مَوْضعِ السَّيْفِ بالعُلاَ

مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ في مَوْضعِ النَّدَىٰ

ومنها: أن الاستبدال لا يكونُ إلا بشروط، فعن الكلبي والحسن وعكرمة قالوا: شرطٌ في الاستبدال تَوَلِّيهم، لكنهم لم يتولوا، فلم يستبدل قومًا، وهم العرب أهل اليمن أو العجم. قاله الزحيلي.

ومنها: «أن الله تعالىٰ أنذر عباده وحذرهم من إهمال حمل المسؤولية والقيام بأعباء التكاليف، فهم إن أعرضوا عن الإيمان والجهاد والتقوىٰ استبدل قوما غيرهم يكونون أطوع لله منهم، ثم يكونون أفضل وأمثل وأحسن منهم، وتلك هي سنة الله في خلقه، وليسوا أمثال المستبدل بهم في البخل بالإنفاق في سبيل الله»، كما قال الطبري. «والأَوْلَىٰ العموم، أي لا يكونوا أمثالكم في الوصف، ولا في الجنس»، كما ذكر الرازي، وقال الزمخشري: «أي يخلق قوما علىٰ خلاف صفتكم راغبين في الإيمان والتقوىٰ، غير متولين عنهما، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾»[(١)].

ومنها: أن مَن أوتي فضلًا ونعمًا عليه أن يستخدمها في طاعة الله حتىٰ لا تسلب منه.

ومنها: من هم القوم الجدد الذين يجعلهم الله بدلًا؟

قال الزحيلي[(٢)]: «قد اختلف المفسرون في تعيين أولئك القوم الجدد[(٣)]، **فقيل**: هم الملائكة، أو الأنصار، أو التابعون، أو أهل اليمن، أو كندة والنخع، أو العجم، أو فارس والروم. والأَوْلَىٰ تفويضُ ذلك إلىٰ علم الله تعالىٰ، والخطاب لقريش أو لأهل المدينة، والأَوْلىٰ جعل الخطاب متجددًا بتجدد الأجيال والأمم، سواء من كان عند نزول الوحي أم بعد ذلك».

---

(١) تفسير الزحيلي (حـ٢٦.ص ١٤١).

(٢) السابق.

(٣) علىٰ ثمانية أقوال، ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير (حـ٤/ ١٢٤)، وذكر أصحابها.

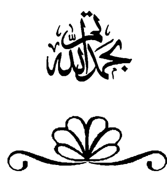
ومنها: فائدة نحوية، ذكرها الرازي، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ فيه مسألة نحوية يتبين منها فوائد عزيزة وهي: أن النحاة قالوا: يجوز في المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم، الجزم والرفع جميعا، قال الله تعالى هاهنا: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ بالجزم، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] بالرفع بإثبات النون وهو مع الجواز».

وخاتمة الفوائد:

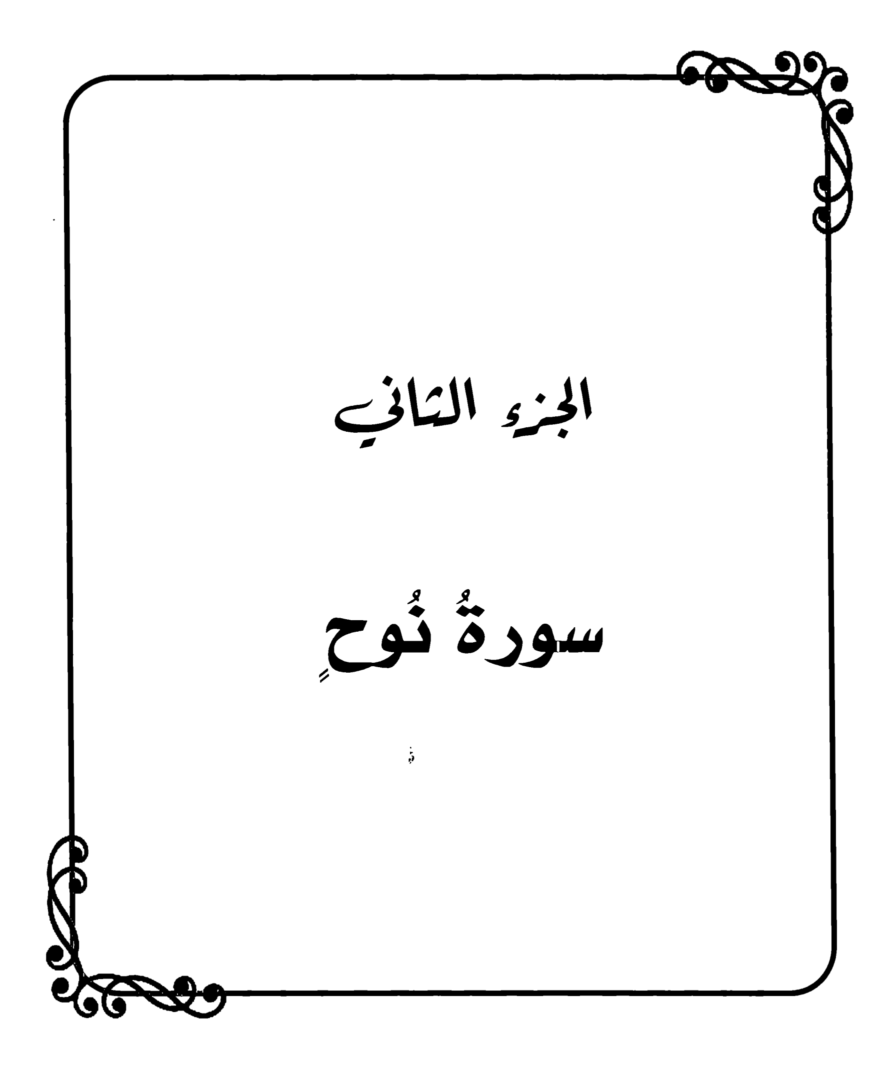
أن الإهلاك ليس قاصرًا على الأمم السابقة فقط، فما من نبيٍّ أنذر قومه وأصروا على تكذيبه إلا وقد حق عليهم القولُ بالإهلاك وطهَّر اللهُ الأرضَ مِنهم وأتى بقوم آخرين طاهرين، وهذا ليس ببعيد عن أمة النبيِّ محمد ﷺ إن هي ضلَّت.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

وقد جاءت السورة على ثمان موائد، تحت كل مائدةٍ جملةٌ من الفوائد مجموعها قُرابة الأربعمائة فائدة.

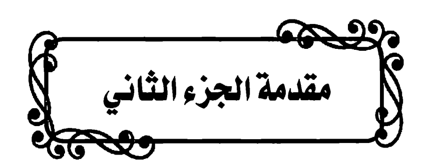


(١) مفاتح الغيب (حـ ٢٨/ ٦٣)



الجزء الثاني

سورةُ نُوحٍ



مقدمة الجزء الثاني

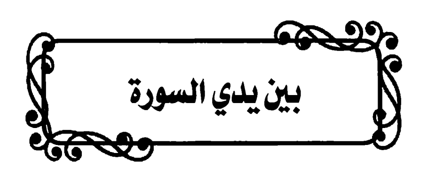
الحمد لله رب العالمين، اسم لمن قامت السماوات والأرض بقدرته، واستقامت الأسرار والقلوب بنصرته... ودلّت الأفعالُ على جلالِ شأنه، وذلّتِ الرّقابُ عند شهود سُلطانِه، فهو المقدَّس بالوصف الأعلى، سبحانه جل شأنه، وتقدست أسماؤه، يعلم ما تُضمره الصدورُ وما تُخفيه الجوانح، يُنْجِي من شاء كما شاء ويُهْلِك، فلم ينتفع ولدُ نوحٍ بالنَّسب يوم الغرق؛ لأنه مشرك ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾، أحمَدُهُ على تسهيل المصالح، وأشكره على ستر القبائح، وأصلي على رسوله محمدٍ أفضلِ غادٍ وخيرِ رائح، فهو خاتمُ أنبيائه، وخِيرَته من خلقه وأوليائه، أُنزل عليه الوَحْيُ الأنور، والسراج الأزهر، فأخبره فيه بخَبَرِ السالِفين من إخوانه من الأنبياء والصديقين، فعلَّم الأمة خبرَ ما كان، وأوضح لها ما هو كائن، وبشَّرَها وأنذرَها بما سيكون.

ونوحٌ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو أول الأنبياء، وهو أبو البشرية الثاني بعد آدم، أرسله ربُّه والبشرية في جاهلية جهلاء فبذل للدعوة مهجته، وأوقف في سبيل الحق وقته مستَمِدًّا من الله نُصرته، أَلْفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا، فقابله قومُه بالكفر الواضح، والذم الجارح، فأنزل الله عليهم عِقابه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ

نَارًا ﴾، ومن كان هذا حاله فلن يجد له أعوانًا وأنصارًا.

وبعد،، فهذه وقفاتٌ مُسفِرةٌ مع سورة نوحٍ نُعرِّجُ فيها علىٰ ما حَوَتْه من دروسٍ وعِبَر، وما تضمنته من توجيهاتٍ ودُرر، حول سُبل الدعوة إلىٰ الله، ومدىٰ أهميةِ ذلك في صلاح الدنيا والدين، وأن الجهد الذي يبذله الدعاةُ ليس كبيرًا في جنب تعبيدِ الناسِ لرب العالمين، «فإن استقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض يُساوي كلَّ هذا الجهد، وكلَّ هذا الصبر، وكلَّ هذه المشقة، وكل هذه التضحيات النبيلةِ المطَّردةِ من الرسل وأتباعهم الصادقين في كلِّ جيلٍ، ولعل استقرارَ هذه الحقيقة أكبرُ من وجودِ الإنسانِ ذاته، بل أكبر من الأرض وما عليها، بل أكبر من هذا الكون الهائل الذي لا تبلغ الأرضُ أن تكونَ فيه هباءةً ضائعةً لا تكاد تُحَسّ أو تُرَىٰ».

وفي هذه الصفحات نُعرّج علىٰ معنىٰ الآيات الكريمات، ثم نستخرج الفوائدَ والعِبرَ من كل آيةٍ، بل من كل لفظةٍ، سائلين اللهَ أن يجعلنا ممن ساقَهم كتابُ ربِّهم إلىٰ جناتٍ ونهر، ولا يؤاخذنا بغفلة الغافلين، فهَبِ اللهم طالحنا لصالِحنا، وسامحنا فأنت الحليمُ المسامِح، واغفر لنا ذنوبَنا قبل أن تشهد علينا الجوارح، ونبهنا من رقدات الغفلات قبل أن يصيح الصائح، وانفعني بما أقول والمحبين بمَنِّك، فمنك الفضل والمنائح.



بين يدي السورة

وسورة نوحٍ سورةٌ مكية، كما روىٰ البيهقيُّ في دلائل النبوة[١]، ونقلها عنه الزركشيِّ في البرهان، والسيوطي في الإتقان.

وهي ثمان وعشرون آية، واختُلف في وقت نزولها فقيل: نزلت بعد النحل، وقال الزركشيُّ في البرهان: «وَذَكَرَ الْقَاضِي فِي الِانْتِصَارِ رِوَايَةَ: «ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ سُورَةِ ﴿اقْرَأْ﴾ ثَلَاثُ آيَاتٍ مَنْ أَوَّلِ نُوحٍ وَثَلَاثُ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الْمُدَّثِّرِ»، وعَنْ مجاهدٍ قَال: «أَوَّلُ سورةٍ أُنزِلتْ: اقرأ، ثم نوح» ا.هـ[٢].

عدد كلماتها:

مائتان وأربعٌ وعشرون كلمة.

عدد حروفها:

تسعمائة وتسعةٌ وخمسون حرفًا.

مناسبتها لسورة المعارج التي قبلها:

قال أبو حيان في البحر المحيط[٣]: «أنه تعالىٰ لما أقسم علىٰ أن يُبدل خيرًا

---

(١) الإمام البيهقي دلائل النبوة، (حـ٧/ ١٤٣)، باب: «جماع أبواب كيفية نزول الوحي علىٰ رسول الله...».

(٢) وهذا يخالف ما في الصحيحين أن أول ما نزل بعد (اقرأ) هي سورة المدثر، وربما نزلت في هذا التوقيت أو بعض آياتها، والله أعلم.

(٣) أبو حيان محمد بن يوسف بن علي أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، البحر المحيط في التفسير (حـ١٠/ ٢٨٠)، طـ دار الفكر، ١٤٢٠هـ، بيروت.

منهم، وكانوا قد سخِروا من المؤمنين، وكذَّبوا بما وُعِدوا به من العذاب، ذكَرَ قصة نوحٍ وقومِه معه، وكانوا أشدَّ تمردًا من المشركين، فأخذهم اللهُ أخذ استئصالٍ حتىٰ أنه لم يُبقِ لهم نَسْلًا علىٰ وجه الأرض، وكانوا عُبَّادَ أصنامٍ كمشركي مكة، فحذَّر تعالىٰ قريشًا أن يصيبهم عذابٌ يستأصلهم إن لم يؤمنوا».

وقال البقاعيُّ[(١)]: «ولما خُتمت «سَأل» بالإنذار للكفار، وكانوا عُبَّاد أوثان، بعذاب الدنيا والآخرة، أتبعها أعظم عذابٍ كان في الدنيا في تكذيبِ الرسل بقصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان قومه عُبَّاد أوثان، وكانوا يستهزئون به وكانوا أشدَّ تمردًا من قريش وأجلفَ وأقوىٰ وأكثر، فلم ينفعهم شيءٌ من ذلك عند نزول البلاء وبروك النقمة عليهم وإتيان العذاب إليهم».

وقال أيضًا: «قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما أمر الله تعالىٰ نبيه بالصبر علىٰ قومه في قوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥] وجليل الإغضاء في قوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ [المعارج: ٤٢] أتبَعَ ذلك بقصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وتكرار دعائه قومه إلىٰ الإيمان، وخَصَّ مِن خبرِه حالَه في طول مدة التذكار والدعاء؛ لأنه المقصودُ في الموضع؛ تسليةً لنبيه ﷺ، وليتأسىٰ به في الصبر والرفق والدعاء، كما قيل له في غير هذا الموضع: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ...﴾ [الأحقاف: ٣٥] ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] فقد دام دعاءُ

---

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (حـ٢٠/ ٤٢٣)، طـ دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه أدوم من مُدَّتِكَ، ومع ذلك فلم يزدهم إلا فِرارًا».

وقيل: أن سورة المعارج بدأت بقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، فجاءت السورة التي تليها وهي سورة نوح تقص علينا قصةَ أولِ مَن سأل اللهَ العذابَ الشديد للكافرين: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

موضوعها:

سورة نوحٍ شأنها شأنُ السور المكية تتحدث عن العقيدة، وترسيخِها، وإن كان هذا في كل السور المكية إلا أن سورةَ نوحٍ نزلت تسليةً للنبيِّ ﷺ، وكيف يكون تعامله مع مَن يدعوهم إلىٰ الله من قومه، وكيف كان حالُ الرسل من قبله ومَدىٰ صبرِهم في دعوتهم، وأيضًا مدىٰ تحمُّلِهم أَذيَّةَ أقوامهم، فنوحٌ طالتْ مدةُ دعوته كما ذكر القرآن، ورغم ذلك قال الله له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فالذين اتبعوه قِلةٌ قليلةٌ من كثير ممن دعاهم، فهي دعوة للنبيِّ محمدٍ ﷺ في التأسِّي به في باب الصبر والرفق في الدعاء، فقد قال له ربه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وأيضًا تحكي مَدىٰ رحمةِ الله وفضلِه علىٰ عبادِه بإرسال الرسل، فرغم قِدَمِ البشرية إلا أنها لا تزال لا تستجيب لرسل الله، فهي لا تنفك عن عنادٍ وتجبرٍ وإعراض، غير أنك ترىٰ رغم هذه الأخلاق السيئة فيهم إلا أن الله يبعث الأنبياء لهم نبيًا تِلْوَ نبيٍّ رحمةً بهم ولُطفًا.

وظلت السورة تحكي مدىٰ مكابدته عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه في دعوته.

وكأن هذه السورة هي حساب وتقرير ختاميٌّ مفصَّلٌ لفترة دعوةِ نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يحمل هذا التقريرُ شكوىٰ القلبِ المُتعب في نهاية المطاف إلىٰ الجهة الوحيدة التي يشكو إليها الأنبياءُ والرسلُ والمؤمنون حقيقة الإيمان إلىٰ الله.

ومن لطائف ما يُحكَىٰ في تفسير سورة نوح أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ قد ظل في تفسير سورة نوح سنةً كاملة.

وتختلف هذه السورة عن غيرها من السور المعقودة بأسماء الأنبياء، من حيث أنها جاءت قاصرة علىٰ رسالة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه ومناجاته لربّه بسبب جحود قومه ومواقفهم من رسالته، أما السُّوَرِ الأخرىٰ المعقودة علىٰ أسماء الأنبياء فقد حَوَتْ إلىٰ جانب قصة النبيّ المعقودة باسمه قصصَ الأنبياء الأخرىٰ؛ وكذلك حَوَتْ فصولا وَعْظيةً وتذكيريَّةً أخرىٰ موجَّهة إلىٰ كفار العرب.

عدد مرات ذكر نوح في القرآن:

قال الزركشيُّ[1]: «قال ابن العربي في القواصم: «ذَكَرَ الله قصة نوح في خمسة وعشرين آية، وقصة موسىٰ في سبعين آية». انتهىٰ». يعني: خمسةً وعشرين موضعًا.

---

(١) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن (جـ٣/ ٢٧)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١/ ١٣٧٦هـ. دار إحياء الكتب العربي.

نبيّ الله نوح:

قال ابن حجر[1]: «ونوح هو بن لَمْكَ؛ -بفتح اللام وسكون الميم بعدها كاف- بن مَتُّوشَلَخَ -بفتح الميم وتشديد المثناة المضمومة بعدها واو ساكنة وفتح الشين المعجمة واللام بعدها معجمة- بن خَنُوخَ -بفتح المعجمة وضم النون الخفيفة بعدها واو ساكنة ثم معجمة- وهو إدريس بْنِ يَرْدَ بْنِ مَهْلَايِيلَ ابْنِ قَايِنَ بْنِ أَنُوشَ بْنِ شِيثِ بْنِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما يقال، وقد ذكر ابنُ جرير: «أن مولدَ نوحٍ كان بعد وفاة آدم بمائة وستة وعشرين عامًا، وأنه بعث وهو ابن ثلاثمائة وخمسين، وقيل: غير ذلك، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة سنة وخمسين، وقيل: إن مدة عُمُره ألف سنة إلا خمسين عامًا قبل البعثة وبعدها وبعد الغرق، فالله أعلم». اهـ.

«وأقرب ما قيل في مدة وعمر نوح ما رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «بُعث نوحٌ وهو لأربعين سنة، ولَبِث في قومه ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتىٰ كثروا وفشوا»»[2].

والمدة المحققة التي لا شك فيها، هي مدة بعثته والتي وردت في قول الله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ

---

(١) ابن حجر العسقلاني (فتح الباري) (حـ٦/ ٣٧٢)، بَابُ «قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾»، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٣٩١٨)، الحاكم في المستدرك (٤٠٠٥)، وسكت عنه الذهبيّ. وضعّفه الشيخ مشهور حسن في تحقيقه لكتاب المجالسة وجواهر العلم.

ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥].

وصحح ابن حبان من حديث أبي أمامة «أن رجلًا قال: يا رسول الله أنبيٌّ كان آدمُ؟ قال: «**نعم**»، قال: فكَمْ كان بينَه وبينَ نوحٍ؟ قال: «**عشرة قرون**»[(١)]».

وهو أول رسولٍ لأهل الأرض، وهو أبو البشرية الثاني، فإن الله تعالىٰ لم يجعل للخلق بعد الغَرَقِ نسلا إلا من ذريته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧]، فقد قال ابن القيم[(٢)]: «اتفق العلماء أن نوحًا لما نزل من السفينة مات مَن كان معه، ثم مات نسلُهم ولم يبقَ غير نسل نوح، والدليل علىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾، وقد ذكر نوح في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعًا.

وفي هذه السورة سنرىٰ كم كان نوحٌ نبيًا عظيمًا ورسولًا ذا دعوةٍ واسعة.

من أجْل ذلك كان إمامًا يَقتدِي به الأنبياءُ والمرسلون علاوةً علىٰ من دُونهُم من الناس، وكان أول أُولي العزم الذين قيل في شأنهم لِخاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

---

(١) صحيح ابن حبان (٦١٩٠)، وأخرجه الطبراني في (الكبير) (٧٥٤٥)، وصححه الألبانيُّ في الصحيحة (٢٦٦٨).

(٢) ابن القيم الجوزية، المنار المنيف في الصحيح والضعيف، ط ١/ ١٣٩٠هـ، تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدة، (ص:٧٤).

الفوائد العامة في السورة:

وقد اشتملت السورة علىٰ خطوطٍ عريضةٍ وفوائدَ جليلةٍ نُجملها فيما يلي:

منها: مدىٰ الجهد الموصول من الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه- لهداية البشرية الضالة المعاندة، ومدىٰ العناية الكريمة من الله وإرادته المستقرة علىٰ إرسال هؤلاء الرسل واحدًا بعد واحدٍ لهذه البشرية المُعْرِضة العنيدة.

- **ومن الفوائد العامة:** أننا نرىٰ مدىٰ لطف الله بعباده، فإنه لا يرضىٰ لعباده الكفر، فهنا ينقل لأمة محمدٍ ومشركي قريش كيف كان حال العاصين الذين لم يستجيبوا لرسالة رسوله، فإنه يقص هذه القصة علىٰ نبيه؛ ليتصبَّر بها علىٰ دعوته، وليَرَىٰ المشركون مصيرَ المكذبين فتنزجر أنفسُهم وتَفِرّ من اتباع الباطل لئلا يصيبهم ما أصاب السالفين من الأمم.

- **ومن الفوائد العامة:** أيضًا مدىٰ الافتخار وعزة النفس اللذَيْن يستشعرهما المسلم حين يرىٰ أصل وتاريخ هذه الدعوة، فموكب الدعوة متصلٌ من مطلع البشرية، فنسبُ الدعوة نسبٌ عريقٌ.

- **ومن الفوائد العامة:** أن تعلم أن النفس البشرية لم تبلغ آفاقَ الكمالِ المقدَّرِ لها بأيةِ وسيلةٍ كما بلغتها باستقرار حقيقة الإيمان بالله فيها، وأن الحياةَ البشرية لم ترتفع إلىٰ هذه الآفاق بوسيلةٍ أخرىٰ كما ارتفعت بهذه الوسيلة، وأن

الفترات التي استقرَّت فيها هذه الحقيقةُ في الأرض، وتسلَّم أهلُها قيادةَ البشرية كانت قمةً في تاريخ الإنسان سامقةً، بل كانت حُلْماً أكبر من الخيال، ولكنه متمثل في واقعٍ يحياه الناس.

- **ومن الفوائد العامة في الآيات**: أن فيها دلالةً على منهج الدعاة مع مدعوِّيهم، فيجب أن تكون بالترقي فلا يبدأ بالشدة وإنما التدرج، فيكون الابتداء بالأهون والترقِّي في الأشد فَالأشد، فنوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ افتتح بالمناصحة في السر، فلما لم يقبلوا ثنَّىٰ بالمجاهرة، فلما لم تؤَثِّر زاوج بين الإسرار والإعلان.

- **ومن الفوائد العامة**: ثبوت أن منهج الرسل جميعًا إنما هو من عند الله، وأنهم متشابهون في أساليب دعوتهم مع أقوامهم؛ فدعوة نوحٍ التي بدأت بالسر ثم الجهر بعد ذلك مشابِهة لمراحل الدعوة التي قام بها النبي ﷺ في مكة وجزيرة العرب، فكان موقف كفار قريش مماثلًا لموقف قوم نوح: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

- **ومن الفوائد العامة أيضًا** أنه إذا غلب علىٰ ظنِّ الرجل أنَّ أمرَه بالمعروف ونهيَه عن المنكر لا يُطاع فيه، هل يجب عليه حينئذ؟

قال شيخ الإسلام: علىٰ قولين: أصحهما أنه يجب وإن لم يُقبَل منه إذا لم يكن مفسدةُ الأمر راجحةً علىٰ مفسدة التَّرك، كما بقِيَ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ألفَ سنة إلا خمسين عاما ينذر قومه. ولما قالت الأمة من أهل القرية الحاضرة البحر

لـواعظي الـذين يَعْـدُون في السـبت ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعـراف:١٦٤] أي نقـيم عُـذرَنا عنـد ربنا، وليس هُداهم علينا، بل الهداية إلىٰ الله.(١)

- **ومن الفوائد العامة**: أنه علىٰ من كُلف بشيءٍ فأتىٰ فيه بكل طاقته ولم يصل للمقصود؛ عليه أن يقدم بين يدي وصف حاله لمن كلفه تقريرًا مفصلًا يَعذُر فيه نفسه، حتىٰ لِيعلمَ المكلِّفُ أن المُكَلَّفُ لم يُقصِّر، ويشكر له سعيه، ويقبل منه عذره، ولله المثل الأعلىٰ، فنوحٌ لما أراد أن يدعو علىٰ قومه قدَّم بين يدي طلبه اعتذارًا فحواه: أنه ما ترك سبيلًا من سُبُلِ الدعوة إلا سلكه -والله سبحانه يعلم السر وأخفىٰ- إلا أن نوحًا فعل وحكَىٰ الذي جرىٰ ليجد مبررًا لطلب هلاكِهم.



(١) شيخ الإسلام، المستدرك علىٰ مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام (٣/ ٢٠٤)، جمعه ورتبه: محمد ابن عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨هـ.

مائدة

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾

المعنى الإجمالي:

إن تحقيقَ الإيمانِ في الأرض لهو الهدفُ الرئيس من وراء خلق الإنسان وإنزالِه إلىٰ الأرض، ثم إنه سبحانه جعل لتحقيق الخَلْقِ لذلك الهدف منهجًا يسيرون عليه، وكان لابُدّ من إرسال الرسل، فاصطفىٰ اللهُ خِيرةَ خَلْقِه وكلَّفهم بتلك الرسالة، وكانت الرسلُ من أقوام المدْعُوِّين، يعْلَمون أخبارهم وأحوالهم؛ ليكون أوفق للنفس في الاتباع، ولئلا يضلوا الطريقَ التي رُسِمت لهم، فيكونوا أدِلَّاء لهم في ذلك الطريق، وقد كان أول الأنبياء بعد آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أبو البشرية الثاني، فجاءه الاصطفاء من الله بأنِ اختاره لهذه المهمة العظيمة، إلا أن تربيةَ الله لرسله من قَبْلِ تكليفهم بالرسالة يجعل الواحدَ منهم عند تكليفه يُسارعُ في قَبول المهمة، ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ

قَوۡمَكَ ...﴾، فكانت استجابة نوحٍ بعدها أن قال: ﴿...يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، فلما أرسله ربه استجاب مباشرة لذلك التكليف، وقام مبلِّغًا قومه رسالةَ ربه، وأنذرهم عذابَ الله، مُعرِّفًا إياهم بوظيفته التي لا يعلمونها، ألا وهي: أنه صار رسولًا من قِبَلِ ربه، ووضح لهم مُرادَ الله منهم، وهو القيام بحقه سبحانه الذي يتمثل في عبادته دون ما سواه بالائتمار بأمره واجتناب نهيه؛ وكذلك القيام بحق نبيه، فمن فعل ذلك غُفِرَتْ ذنُوبُه التي تحول بينه وبين رضا الله وجنته وهي أعظم الثمرات، ثم من الثمرات في الدنيا أن يباركَ اللهُ في عُمُرِ ذلك الطائعِ فلا يستأصله بعذابٍ أو بغيره، خلافًا لِمَا حَدَثَ لقوم نوحٍ فإنهم لما امتنعوا عن طاعة نوحٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ جاء موتُهم على غيرِ العادة، فهَلكوا هلاكَ نفسٍ واحدة بعذاب الاستئصال، كما ذُكِرَ في آخر السورة.

﴿ فائدة ﴾

في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ **فوائد:**

منها: أن مصدر الرسالة إنما هو الله سبحانه، وأنَّ رسالةِ الرسلِ ليست مِن صُنْعِ أنفسِهم، وفي ذلك ردٌّ على الأقوام الذين اتهمُوا رُسُلَهم بالافتراء على الله، حيث قال سبحانه عن نبيه محمدٍ ﷺ: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الطور:٣٣].

ومنها: فضل الله على عباده، حيث أرسل إليهم الرسلَ ولم يرسِلْهُمْ وجوبًا إنما لطفًا بخلقه؛ لأن حقيقته لا تقبل الوجوب. **وذلك لأسباب:**

- لأنه لا يرضى لعباده الكفر قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧].

- ولإقامة الحجة على خلقه قبل أن يحشرهم للحساب، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ..﴾ [النساء:١٦٥].

ومنها: أن الإرسالَ نوعان: الإرسال الكوني، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ..﴾ [الفرقان:٤٨].

وقال في الديني: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾. قاله شيخ الإسلام[(١)].

ومنها: أن نوحًا إنما أُرسِل إلى قومه ولم يُرسلْ إلى الناس كافة بنص الآية الكريمة: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، وإنما كانت عمومُ الرسالة من خصوصيات نبينا ﷺ.

يقول ابن حجر[(٢)]: «ولا يُعترض بأن نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان مبعوثًا إلى أهل الأرض بعد الطوفان؛ لأنه لم يَبقَ إلا مَن كان مؤمنا معه، وقد كان مُرسلًا إليهم؛ لأن هذا العموم لم يكن في أصل بعثته، وإنما اتفق بالحادث الذي وقع؛

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق الأرناؤوط (ص:١٤٨)، ١٤٠٥هـ، مكتبة دار البيان، دمشق.
(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (حـ١/ ٤٣٦)، بَابُ التَّيَمُّمِ الْبَسْمَلَةُ قَبْلَهُ.

وهو انحصار الخَلْق في الموجودين بعد هلاكِ سائرِ الناس، وأما نبينا ﷺ فعموم رسالته من أصل البعثة فثَبَتَ اختصاصُه بذلك»، ثم عقَّب بقولِ ابنِ دقيق العيد: «بأن توحيدَ الله تعالىٰ يجوزُ أن يكون عامًّا في حق بعض الأنبياء وإن كان التزامُ فروعِ شريعتهِ ليس عامًّا؛ لأن منهم مَن قاتَلَ غيرَ قومِه علىٰ الشرك، ولو لم يكن التوحيد لازمًا لهم لم يقاتلهم، ويحتمل أنه لم يكن في الأرض عند إرسال نوحٍ إلا قومُ نوح[1]، فبعثته خاصةٌ لكونها إلىٰ قومه فقط، وهي عامة في الصورة لعدم وجود غيرهم، لكن لو اتفق وجودُ غيرِهم لم يكن مبعوثًا إليهم». ا.هـ

ومنها: **القوم هم**: جماعة الرجال ليس فيهم امرأة[2]، الواحد رجلٌ وامرؤٌ من غير لفظه، والجمع أقوام، سُمُّوا بذلك لقيامهم بالعظائم والمهِمات، **قال الصَّغَانِيّ**: «وربما دخل النساءُ تَبَعًا؛ لأنَّ قومَ كلِّ نبيٍّ رجالٌ ونساءٌ، ويُذَكَّر القوم ويؤَنَّث، فيقال: قام القومُ وقامت القومُ؛ وكذلك كلُّ اسمِ جمعٍ لا واحد له من لفظه؛ نحو رَهْط ونَفَر، وقوم الرجل: أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جَدٍّ واحد، وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومَه مجازًا للمجاورة»[3].

---

(١) قال الطاهر ابن عاشور مؤكدًا ذلك ومستدلًا له: «و«قوم نوح» هم الناس الذين كانوا عامرين الأرض يومئذ، إذ لا يوجد غيرهم علىٰ الأرض كما هو ظاهر حديث الشفاعة؛ وذلك صريح ما في التوراة».

(٢) **قلتُ**: وهذا صريحٌ في كلام العرب، قال زهير:

ومَا أدرِي وسوفَ أَخَالُ أَدْرِي ... أقومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِساءُ

(٣) أبو العباس؛ أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (حـ٢/ ٥٢٠)، طـ المكتبة العلمية - بيروت.

ومنها: أن قوم نوحٍ لم يكن لهم اسمٌ يُعرَفون به كمن جاء بعدهم، كثمود قوم صالح، وعاد قوم هود، يقول ابن عاشور(١): «وإضافة «قومٍ» إلىٰ ضمير نوحٍ؛ لأنه أُرسل إليهم، فلهم مَزِيدُ اختصاص به، ولأنه واحدٌ منهم، وهم بين أبناءٍ له وأنسباء، فإضافتهم إلىٰ ضميره تعريف لهم، إذ لم يكن لهم اسمٌ خاص من أسماء الأمم الواقعة من بعد».

ومنها: أن الدعوةَ إلىٰ التوحيد الخالص، ونبذَ الشرك؛ قديمةٌ ومتصلةٌ، فهي قديمةٌ قِدَم البشرية، وقد قامت السموات والأرض علىٰ كلمة التوحيد، وهي متصلة إلىٰ أن تقوم الساعة بورثة الأنبياء.

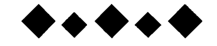
ومنها: أنَّ إرسالَ الرسل إلىٰ مَن عُلِمَ أنه لا يَقْبَل جائزٌ، ولكن لا عقاب إلا بعد إرسالِ الرسل، فنوحٌ عَلِمَ منهم أنهم لا يقبلون، ومع ذلك بلّغ الرسالة، وقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قاله القشيريُّ.

ومنها: «كثير ما يَفتتِحُ بُلغاءُ العربِ أولَّ الكلام بحرف التوكيد لغرض الاهتمام بالخبر، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ في مفتتح السورة من هذا الباب، إذ ليس المقام هنا لرد إنكار منكر، ولا دفعِ شكٍ عن متردد في هذا الكلام، وربما جعل البُلغاء «إنَّ» داخلة علىٰ ضمير الشأن في نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ...﴾ الآية [النمل: ٣٠، ٣١] لهذا الغرض

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، (حـ٢٩/ ١٨٦)، ط الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

أيضًا». قاله ابن عاشور[١].



وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ **فوائد:**

منها: أن إجمال رسالة نوحٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ والبدءَ فيها بالإنذار لدليلٌ علىٰ ما آلت إليه البشرية بين آدم ونوحٍ عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ من شركٍ وإلحادٍ وبُعْدٍ صارخٍ عن منهجِ الله، فكان الأنسبُ لهم بدايةً تخويفَهم عذابَ الله.

ومنها: أن فيها إشارةً إلىٰ أن القومَ كانوا علىٰ مَشارفِ الهاوية التي تهوِي بهم إلىٰ الهلاك، وأنَّ نوحًا إنما بُعث إليهم لِينذرَهم بهذا الخطر الذي يتهدَّدُهم، ويُوشِك أنْ يشتملَ عليهم... قاله الدكتور عبد الكريم الخطيب[٢].

ومنها: **تعريف الإنذار:**

قال القرطبيُّ في أول البقرة: «الإنذار: الإبلاغُ والإعلام، ولا يكاد يكون إلا في تخويفٍ يتسع زمانُه للاحتراز، فإن لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعارًا ولم يكن إنذارًا، قال الشاعر:

أَنْذَرْتَ عَمْـرًا وَهُـوَ فِـي مُهَـلٍ[٣] قبلَ الصَّباحِ، فَقَدْ عَصَىٰ عَمْـرُو[١]

---

(١) التحرير والتنوير (حـ٢٩/ ١٨٦).

(٢) عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (حـ١٥/ ١١٩٤)، طـ دار الفكر العربي، القاهرة.

(٣) **قلتُ**: لم أقف علىٰ ضبطها، وربما ما ضبطتُه أقربُ للصواب، -والله أعلم- **فمُهَل**: جمع مُهلة، وهي المدة من الوقت.

وتَنَاذَرَ بنو فلانٍ هذا الأمر إذا خوَّفه بعضهم بعضًا». ا.هـ.

ومنها: أنها دليلٌ علىٰ أن الإنذارَ والنصحَ يجبُ أن يكون قبل فواتِ الأوان، فما ينفع النصحُ بعد فوات ثمرته، وكيف تنفع التوبة حال الغَرغَرة أو حال طلوع الشمس من مغربها.

ومنها: لماذا أمر الله نبيه نوحًا بإنذار قومه ولم يأمره ببشارتهم؟

قلتُ: ربما يكون ذلك لسببين:

الأول: الأصل أن الرسل يأتون أقوامهم وهُم في أَحَطِّ مستوياتهم العَقَدِيَّة والخُلُقية، فيأتونهم وهم علىٰ ضلالة، فكان الإنذار ملائِمًا لما هم عليه؛ ليُقْلِعوا قبل أن يأتيهم العذاب، وهذا علىٰ لسان الرسل جميعًا، كما جاء في القرآن الكريم.

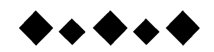
الثاني: أن التخليةَ قبل التَّحْلِيَةِ، فإقلاعُ القلبِ عما يتلبَّسُ به، وتطهيره من أثر المخالفات والتجاوزات مقدمٌ علىٰ إعمارِه بضدِّه من التُّقَىٰ، فوجب تخليتُه مما يخالفُ ما خُلق له العبد؛ ليَصِحَّ له قبولُ ما فيه حياتُه وبه نجاتُه. لذلك كان الإنذار أولًا، حتىٰ إذا عُمِّرَ القلبُ بما يُرْضي اللهَ جاءته البشارةُ. والله أعلم.

ومنها: اهتمامُ الله بخلقه رغم كفر بعضهم، فقال لنوح: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾، ولم يقل: «أنذر الناس» ليكون نوحٌ أحرصَ علىٰ دعوتهم رغبةً في هدايتهم،

---

(١) البيت لِلَيْلَىٰ ابنة مُرٍّ المَيْدعانيّة، ذكراه صاحبا (الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين)، (ص:٩٨).

يقول ابن عاشور[1]: «وَعُدِلَ عن أن يقال له: «أنذر الناس» إلىٰ قوله: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ إلْهابًا لنفسِ نوحٍ؛ ليكون شديدَ الحرصِ علىٰ ما فيه نجاتُهم من العذاب، فإن فيهم أبناءَه وقرابتَه وأحبتَه، وهم عددٌ تكوَّن بالتوالد في بني آدم في مدةِ ستمائة سنة من حُلولِ جنسِ الإنسان علىٰ الأرض. ولعل عددَهم يوم أُرسلَ إليهم نوحٌ لا يتجاوز بضعة آلاف».



وفي قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ **فوائد:**

منها: أنها دليلٌ علىٰ مدىٰ استجابة الرسل لأوامر ربهم، وكيف لا وهم الذين اصطفاهم علىٰ العالمين، فقد أُمِرَ نوحٌ بإنذار قومه، فما تلكأ -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-.

ومنها: اتخاذُ الرسلِ قدوةً في سرعة استجابتهم لأوامر الله بالصورة والشكل الذي أراده الله، فقد قال له ربه: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ فقام ليقول: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

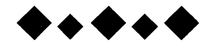
ومنها: قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ فيه التلطفُ واستعطافُ الداعي لمَدْعُوِّيه مِن أجلِ الاستجابة؛ وذلك عن طريق تذكيرهم أنه أحدُهم يَهُمُّه ما يهمهم، فهو تمهيد لقبول نصحِه، إذ لا يريد الرجلُ لقومه إلا ما يريدُ لنفسه؛ وكذلك: تقديم قوله: ﴿لَكُمْ﴾ علىٰ عامله وهو ﴿نَذِيرٌ﴾ للاهتمام بتقديم ما دلَّت عليه اللام من كون

---

(١) التحرير والتنوير (حـ/ ٢٩/ ١٨٧).

النِّذارة لفائدتهم، لا لفائدته. فجَمَعَ في صَدر دعوتِه خمسةَ مؤكِّداتٍ، وهي: النداءُ، وجعل المنادىٰ لفظ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ المضاف إلىٰ ضميره، وافتتاح كلامه بحرف التأكيد، واجتلاب لام التعليل، وتقديم مجرورها. كما يقول ابن عاشور.

ومنها: أن قوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ **يحتمل معان**: قال محمد صديق خان[1]: «أي بيِّنَ الإنذار، أو مُبينٌ لِما فيه نجاتُكم بِلُغَةٍ تَعرفونها، أو أمري بَيِّنٌ في نفسه بحيث صار في شدة وضوحِه كأنه مُظْهِرٌ لِمَا يتضمنه، مُنادٍ بذلك للقريب والبعيد والفطِنِ والغبي».ا.هـ، وجميعها تحتملها الكلمة، وجميعها أوصافٌ لحالات الرسل.



وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ **فوائد:**

منها: قال ابن أبي العز[2]: «أنْ تَعلمَ أنَّ التوحيد هو أولُ دعوة الرسل، وأولُ منازل الطريق، وأولُ مَقام[3] يقوم فيه السالك إلىٰ الله تعالىٰ».

ومنها: أن العبادة لله وحده لا شريك له؛ وكذلك التقوىٰ، أما الطاعة فلله ولرسوله.

---

(١) أبو الطيب محمد صديق خان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن (حـ١٤، ٣٣٠)، طـ المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، بَيروت، ١٤١٢هـ.

(٢) صدر الدين محمد ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، (ص:٧٧)، ط، دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة (عن مطبوعة المكتب الإسلامي)، ١٤٢٦هـ.

(٣) بفتح الميم علىٰ سياق ابن أبي العز؛ لأن (المقام) بالفتح هو مصدر قام يقوم، أما المُقام بالضم فهو من أقام يُقيم، كما قال الجوهريّ في الصحاح (٥: ٢٠١٧).

ومنها: الحكمة من إرسال الرسل.

فإن الله أمر نوحًا بإنذار قومه، ولا يكون إنذار إلا بعد تعريف الناس بمعبودهم الحق، ودعوتهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وإقامة الدين، والنهي عن التفرّق فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ:١٣]، وكل هذه المعاني اجتمعت في قوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.

ومنها: أن المنهجَ السماويَّ والذي جاءت به الرسلُ يتمثل في شيئين: أداءِ حقِّ الله، وحقِّ رسوله المرسَل.

فحقُّ الله في قوله تعالىٰ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾، وعبادةُ الله هي الإتيانُ بجملةِ الأوامر، والتقوىٰ هي الانتهاءُ عن جملة المناهي، أما حق الرسول ففي قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، وطاعة الرسول هي الإتيان بجملة أوامره والانتهاء عن جملة مناهيه، وإن كانت هذه داخلةً في حق الله إلا أنها خُصَّت بالذكر تأكيدًا في ذلك التكليف ومبالغة في تقريره، كما يقول الرازي.

ومنها: جميع الرسل دعوا إلىٰ عبادة الله وتقواه وخشيته وإلىٰ طاعتهم، كما قال نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥٢]، وقال كلٌّ من نوحٍ والنبيين: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٠٨].

ومنها: أن البابَ الذي ضلَّت فيه معظمُ الأمم إنما هو بابُ توحيد الألوهية، فتوحيد الربوبية لا ينكره الكثير، لذلك فخِطاباتُ الأنبياءِ كلُّها تنادي بعبادة الله لا بعبادة الرب، وإن كان مصداقُهما في نفس الأمر وفي اعتقاد المؤمنين المخلصين واحدًا، وقد دلت الآياتُ الكثيرات على ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ...﴾ [الزمر:٣٨]، فكانوا يعتقدون أن مدبرَ الأمور وخالقَها إنما هو الله، ولكن كانوا يصرفون العبادة لغيره، ويَدْعُونَ من دون الله ما لا ينفع ولا يضر.

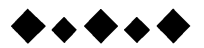
ومنها: قال البقاعيُّ[1] في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: «إنه لا سبيل إلى معرفة ما يُرضِي المَلِك ليُلْزَمَ، وما يُسخِطه ليُتْرَك إلا منه، ولا وصول إلى ذلك إلا من خاصته، ولا خاصة مثل رسوله الذي ائتمنه على سِرِّه قال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي: لِأُعَرِّفكُم ما تَقْصُرُ عنه عقولُكم من صفاتِ معبودِكم ودينِكم ودنياكم ومعادِكم، وأدُلُّكم على اجتلابِ آدابٍ تَهدِيكم، واجتنابِ شبهةٍ تُردِيكم».

ومنها: أن الآية اشتملت على أصناف الحقوق جميعًا، **تصريحًا وضِمنًا وتلميحًا**: **فأما التصريح**: فقد صرَّحت بحق الله، وهو إفراده بالعبودية، وحقِ

---

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (حـ٢٠/ ٤٢٧)، طـ دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

الرسول وهو طاعته، وضِمنًا: محبة النبيّ المرسَل في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، فلا يُطيع إلا مُحِبٌّ أو خائفٌ، والخوف لا محل له هنا؛ إذ يكون من ذي سلطان، ونبيّ الله نوحٍ لا سلطان له عليهم، كما هو الحال في رسلِ بني إسرائيل إذ كانوا أنبياء وملوكًا، فيبقىٰ أنْ قولَه: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ تضمن مَحبته صلوات الله عليه وسلامه، ومن أحب نَبِيَّهُ عَزَّره ونَصَرَه. **وأما الحق الثالث فجاء تلميحًا وضِمْنًا، ألا وهو حق العباد**: وهو ما قام به نوحٌ في توجيههم لما فيه صلاحُهم ونجاتهم بأمرهم بالتقوىٰ والطاعة.



وفي قوله تعالىٰ: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ **فوائد:**

منها: أن الإنسانَ مَحلٌّ للنقص لا الكمال، فلا ينفك عن ذنب، ولا ينفعه إلا كرم الله فلْيتعرَّض لذلك.

ومنها: أن الإتيان بالتكاليف له ثمرتان:

الأولى: سترُ بعض الذنوب.

والثانية: أن يمدّ في الأعمار ويؤخر الموت إلىٰ أمدٍ محدد قدَّره الله، إن آمن العبدُ وأطاع. وعليه فإنَّ من أطاعَ اللهَ ورسولَه له وعْدان، كما يقول الرازي: **أحدهما**: أن يزيلَ مضارَّ الآخرة عنهم، وهو قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، **الثاني**: يزيل عنهم مضارَّ الدنيا بقدْرِ الإمكان؛ وذلك بأن يُؤَخِّرَ أجلَهم إلىٰ أقصىٰ الإمكان.

ومنها: أن العلماء استدلوا بهذه الآية علىٰ أن الطاعةَ والبرَّ وصلةَ الرحم يُزاد بها في العمر.

ومنها: أن المقصودَ الأول والمطلبَ الأسمَىٰ هو حصول المغفرة، وأما الطاعة فهي إنما طُلبت ليتوسل بها إلىٰ تحصيل المغفرة، ولذلك لما أمرهم بالعبادة قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ فلما كان المطلوبُ الأولُ من الدعوة حصول المغفرة لا جرم قال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ...﴾ قاله الرازي[1].

ومنها: فائدة «مِن» وتوجيهها في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾.

قال القرطبيُّ[2]: ««وَمِنْ» صِلَةٌ زَائِدَةٌ. وَمَعْنَى الْكَلَامِ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، قَالَهُ السُّدِّيُّ. وَقِيلَ: لَا يَصِحُّ كَوْنُهَا زَائِدَةً، لِأَنَّ «مِنْ» لَا تُزَادُ فِي الْوَاجِبِ، وَإِنَّمَا هِيَ هُنَا لِلتَّبْعِيضِ، وَهُوَ بَعْضُ الذُّنُوبِ، وَهُوَ مَا لَا يَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ الْمَخْلُوقِينَ. وَقِيلَ: هِيَ لِبَيَانِ الْجِنْسِ. وَفِيهِ بُعْدٌ، إِذْ لَمْ يَتَقَدم جنسٌ يليق به. وقال زيد بن أَسْلَمَ: الْمَعْنَى يُخْرِجُكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ. وقال ابْنُ شَجَرَةَ: الْمَعْنَى يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ مَا اسْتَغْفَرْتُمُوهُ مِنْهَا» اهـ

وبتتبع أقوال أهل التأويل ففيها خمسةُ أوجه، ذكرها ابن عطية كالتالي

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، (حـ٣٠/ ٦٥١)، ط٣/ ١٤٢٠هـ، دار إحياء التراث العربي-بيروت.

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، ط٢/ ١٩٦٤م، دار الكتب المصرية - القاهرة.

-بتصرف-(١): «**قال قوم** «مِنْ» زائدة، وهذا نحو كوفي، وأما الخليل وسيبويه فلا يجوز عندهم زيادتها في الواجب(٢).

- **وقال قوم**(٣): هي لبيان الجنس، وهذا ضعيف لأنه ليس هنا جنس يبين.

- **وقال آخرون**: هي بمعنىٰ «عن». وهذا غير معروف في أحكام «مِن».

- **وقال آخرون**: هي لابتداء الغاية، وهذا قولٌ يتّجه، كأنه يقول يبتدئ الغفران من هذه الذنوب العظام التي لهم.

- **وقال آخرون**: هي للتبعيض، وهذا عندي أبين الأقوال؛ وذلك أنه لو قال: يغفر لكم ذنوبكم؛ لعمَّ هذا اللفظ ما تقدم من الذنوب وما تأخر عن إيمانهم، والإسلام إنما يَجُبُّ ما قَبله، فهي بعضٌ من ذنوبهم، فالمعنىٰ يغفر لكم ذنوبكم.

وقال بعض المفسرين: أراد ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ المهم الموبِق الكبير؛

---

(١) أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي المحاربي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (حـ٥: ٣٧٢)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، طـ١/ ١٤٢٢ هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) قال الطاهر ابن عاشور: «وهذا من زيادة «مِنْ» في الإيجاب، علىٰ رأي كثير من أيمة النحو؛ مثل الأخفش وأبي علي الفارسي وابن جني من البصريين، وهو قول الكسائي، وجميع نحاة الكوفة».

(٣) منهم القشيريُّ كما جاء في تفسيره.

لأنه أهم عليهم، وبه ربما كان اليأس عن الله قد وقع لهم، وهذا قولٌ مضمونُه أنَّ «مِنْ» للتبعيض وهو اختيار التفتازاني».

ومنها: أن هذه الآية اعتمدت عليها المعتزلة في قولهم: إن للإنسان أجلين، قال ابن عطية معقبًا على ذلك[١]: «قال القاضي أبو محمد: وليس لهم في الآية تَعلُّقٌ، لأن المعنى أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يعلم هل هُم ممن يؤخَّر أو ممن يُعاجَل؟ ولا قال لهم: إنكم تؤخَّرون عن أَجَلٍ قد حان لكم، لكن قد سبق في الأزل أنهم إما ممن قضى لهم بالإيمان والتأخير، وإما ممن قضي عليهم بالكفر والمعاجلة، فكأن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم: آمنوا يبين لكم أنكم ممن قضي لهم بالإيمان والتأخير، وإن بقيتم فسيبين لكم أنكم ممن قضي عليهم بالكفر والمعاجلة، ثم تشدد هذا المعنى ولاح بقوله: إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ»[٢].

ومنها: وجوه التأخير:

ولأهل العلم في هذا التأخير وجوهٌ ذكرها محمد صديق خان في (فتح البيان)[٣] فقال:

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (حـ٥/ ٣٧٣).

(٢) قال الزمخشري الذي اعتمد مذهب المعتزلة في تعليقه على هذا الموضع من الآية: «إن ظاهر هذا مناقض لما قبله من الوعد بالتأخير إن آمنوا» ا.هـ، **قلتُ**: ولكنه تأول ذلك على مقتضى مذهبه بأن الأجل الذي لا يؤخر هو الأجل الثاني، ومذهبهم مردود بمذهب أهل السنة.

(٣) أبو الطيب محمد صديق خان الحسيني البخاري القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، (حـ١٤/ ٤٣٠)، ط المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، ١٤١٢هـ، صَيدَا - بَيروت.

«ذهب بعضهم إلىٰ أن المقصودَ يؤَخِّرُ موتكم إلىٰ الأمد الأقصىٰ المعلوم المعيَّن الذي قدَّره الله لكم لا يزيد ولا ينقص؛ بشرط الإيمان والطاعة فوق ما قدَّره لكم علىٰ تقدير بقائكم علىٰ الكفر والعصيان. قال مقاتل: يؤخركم إلىٰ منتهىٰ آجالِكم.

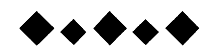
وقيل التأخير بمعنىٰ البركة في أعمارهم إن آمنوا، وعدم البركة فيها إن لم يؤمنوا».

- **وقال الزجاج**: «أي يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير مِيتة المستأصلين بالعذاب، فالمؤخَّر إنما هو العذاب». يعني عدم الأخذ في الحياة الدنيا بعذاب الاستئصال.

- **وقال الفراء**: «المعنىٰ لا يميتكم غَرَقًا ولا حَرْقًا ولا قتلًا».

ومنها: أن في قوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ دليلًا علىٰ أن طولَ البقاء من النعم العظيمة؛ لأن في جِبِلَّةِ الإنسان حُبَّ البقاء في الحياة علىٰ ما في الحياة من عوارضَ ومكدِّرات، وهذا ناموسٌ جعله الله تعالىٰ في جِبِلَّةِ الإنسان لتجريَ أعمالُ الناس علىٰ ما يُعِينُ علىٰ حفظ النوع. **قال المعري**:

وَكُلٌّ يُرِيدُ الْعَيْشَ وَالْعَيْشُ حَتْفُهُ ... وَيَسْتَعْذِبُ اللَّذَّاتِ وَهْيَ سِمَامُ



وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ **فوائد**:

منها: أنه ليس أحدٌ مُخلَّد، فكلٌّ إلىٰ فناء.

ومنها: أن فيها دلالةً علىٰ أن مَن انهمك في حب الحياة العاجلة، فهو في شكٍ من الموت.

ومنها: وجوب المبادرة بالأعمال في أوقات الإمهال والتأخير، حتىٰ لا يندم أحدٌ ولات حين مَنْدَم، فالعاقل هو الذي يبادر إلىٰ الطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر تعالىٰ بالعقاب لا يُرد ولا يمانع.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ**»[١].

ومنها: أن هذه الآية هي معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد:١١]، فإذا نزل بكم عذابُ الله لن يمنعه عنكم مانعٌ، كما أنه إذا نزل بكم لن يؤخَّر حتىٰ تؤمنوا، كما أنه إذا جاء أجلُ الله وهو الموت لن ينفعكم ساعتها الإيمانُ. فأجْمِعوا أمرَكم ثم توبوا إليه.

ومنها: التوفيق بين هذه الآية والأحاديث الدالة علىٰ الأعمال التي تزيد في العمر كصلة الرحم.

قال محمد صديق خان في (فتح البيان)[٢]: «سُئل الشوكانيُّ رحمه الله تعالىٰ عما ورد في الآياتِ الكريماتِ الدالةِ علىٰ أن العمرَ لا يزيد ولا ينقصُ، والأحاديثِ الدالةِ علىٰ أن صلةَ الرحمِ تزيدُ في العمر، فأجاب بما لفظه: «قد طال الكلام في هذا البحث، وقد وقفْتُ قبل الآن بنحو ثمانٍ سنين علىٰ مؤلَّفٍ بسيطٍ لبعض الحنابلة في خصوص هذه المسألة، وقد غاب عني اسمُ الكتاب واسمُ

---

(١) مسلم (١٢٨-٢٩٤٧).

(٢) فتحُ البيان في مقاصد القرآن، (حـ١٤/ ٣٣١) .

صاحِبِه، والأحاديثُ القاضيةُ بأن صلةَ الرحم تزيد في العمر أحاديثُ صحيحةٌ كثيرةٌ، منها: ما أخرجه البخاريُّ[١]، والترمذيُّ[٢] من حديث أبي هريرة مرفوعًا بلفظ «مَن سرَّه أن يُبْسَطَ له في رِزقِه وأن يُنسأَ له في أثَرِه فلْيَصِلْ رحمَه».».

وعند الترمذيِّ[٣] وبعضه عند الطبراني في الأوسط: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ، مَثْرَاةٌ فِي المَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ»، والأثر: الأجل، وإنساؤه: تأخيره. وأخرج أحمدُ في مسنده، والبَيْهقِيُّ في شعب الإيمان[٤]، وَرَمَزَ السيوطيُّ في الجامع لصحته[٥] من حديث

---

(١) البخاري (٥٩٨٥) من رواية أبي هريرة، وفي رواية أنس عنده (٢٠٦٧): «أو ينسأ...» وفي رواية أنس الأخرىٰ عند البخاري أيضًا (٥٩٨٦) ومسلم (٤٦٣٩) بلفظ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

(٢) لم أقف عليه عند الترمذيّ. ولم يذكره المزي في تحفة الأشراف من رواية الترمذي، **قلتُ**: «فإن لم يكن من باب السهو فربما يقصد الحكيمَ الترمذي فقد ساقه الحكيم في كتابه: (نوادر الأصول في أحاديث الرسول)، باب في سبب زيادة العمر من حديث أنس؛ وكذلك وقفتُ علىٰ تخريج الشيخ الحويني للحديث في الفتاوىٰ الحديثية فلم يذكر الترمذيّ ضمن من خرَّجه. والله أعلم.

(٣) الترمذي (١٩٧٩)، الطبرانيّ في الأوسط(٧٨١٠)، وقال الألبانيُّ في الصحيحة (٢٧٦): «أخرجه الترمذي وقال: «حديث غريب من هذا الوجه» **قلت -أي الألبانيّ-**: وإسناده جيد، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الملك هذا، قال أبو حاتم: «صالح».».

(٤) **قلت**: رواية أحمد فيها: «يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»، أما رواية البيهقيّ فليس فيها قوله: «حُسْن الجوار»، ولفظها: «يُعَمِّرْنَ الدِّيَارَ وَيَزِدْنَ فِي الْأَعْمَارِ».

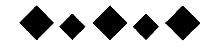
(٥) صححه الألبانيُّ في السلسلة الصحيحة، فقال: «وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن مهزم وقد وثقه ابن معين».

عائشة مرفوعًا: «صِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يُعَمِّرْنَ الدِّيَارَ وَيَزِدْنَ فِي الْأَعْمَارِ».

وأخرج القُضاعي[1] من حديث ابن مسعود مرفوعا: «صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ»، وإذا تقرر هذا فالعمرُ محدودٌ ومعلومٌ لا يتقدم ولا يتأخر؛ إلا إذا وصل الرجلُ رحِمَه مَدَّ اللهُ في عمره وزاده، وهكذا حُكْمُ سائر الأمور التي وردت الأدلةُ بأنها تزيد في العمر أو تنقص منه؛ لأنها خاصة والخاصُّ مقدَّم على العام» اهـ

ومنها: قال الخطيب[2]: الفرار من وجه الخطر هو أمرٌ مطلوب، فإذا نجا الناجي، فإنما نجا؛ لأنه لم يستوْفِ أجلَه بعدُ، وإذا هلك الهالك فإنما هلك لأنَّ أجلَه المقدُور له قد انتهى.

ومنها: أن الآية تدلُّ على ذمِّ الدنيا، والزجرِ عن حبها، والتهالكِ عليها، فإن من كان هذا حاله فإنه ينشغل بذلك عن استعداده للقاء الله. فالمقبل على الدنيا منشغِلٌ بها كأنه ينكر الموت ولقاءَ الله.



---

(١) مسند الشهاب القضاعي (١٠٠)، صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ. وبنجوه عند الطبراني في المعجم الكبير (٧٩٣٩)، والأوسط (٩٤٣)، وأيضًا في شعب الإيمان للبيهقي (٣١٦٨).

(٢) عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن (جـ١٥/ ١١٩٥).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **فوائد:**

منها: فضيلة العلم: فالعلم يوجبُ لصاحبه البصيرةَ فيجعله يُقْبِلُ علىٰ ما ينفعُهُ، ويبتعدُ عمَّا يُغضبُ اللهَ وعن رضاه يمنعُه. فلو كان القومُ يعلمون لبادَروا بالطاعاتِ قبل فواتِ الأوان. **قال الألوسيُّ:** «لو كنتم من أهل العلم لسارعتم لما آمُرُكم به لكنكم لستم من أهله في شيء، لذا لم تسارعوا».

ومنها: جواب «لو»: وجواب «لو» علىٰ وجهين: إما أن يتعلق بأول الكلام، أو بآخره.

قال الآلوسي[1]: قوله: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كنتم من أهل العلم لسارعتم لما آمركم به، لكنكم لستم من أهله في شيء، لذا لم تسارعوا، فجواب «لَو» مما يتعلق بأول الكلام، ويجوز أن يكون مما يتعلق بآخره. أي: لو كنتم من أهل العلم لعلمتم ذلك، أي: عدم تأخير الأجل إذا جاء وقتُه المقدر له. والفعل في الوجهين مُنَزَّلٌ منزلة اللازم.



(١) شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (حـ١٥/ ١١٢)، ط١/ ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

مائدة

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾

المعنى الإجمالي:

في هذه الآيات يرفع نوحٌ تقريرَه الدعويَّ بعد مُضِيّ ألفِ سنةٍ إلا خمسينَ في جهادِه مع قومِه وتبليغِ رسالة ربه، فيَعْرِض كيف بلَّغ رسالته، فإنه قد خاطب قومه في عموم الأوقات، وعلىٰ عموم الحالات بجهدٍ دائبٍ وإلحاحٍ ثابتٍ وإصرارٍ عجيب، فدعاهم في الليل والنهار، بالسر والإعلان، إلا أنهم أبَوْا إلا الضلال؛ فكلما ألحَّ في دعوته أصرُّوا علىٰ إعراضِهم وفرارِهم مِن سماعِ الحقِّ رغم أنه لم يطلب علىٰ ذلك أجرًا، وهذا هو سَقْفُ الغباءِ والضياع، يدعوهم إلىٰ الخير -وبدون مقابلٍ- لكنهم لا يريدون!، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾، وَأخرج عبد الرَّزَّاق وَعبدُ بن حميد وَابْنُ الْمُنْذر عَن قَتَادَة

فِي قَوْله: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ قَالَ: «بَلغنِي أَنه كَانَ يذهب الرجل بِابْنِهِ إِلَىٰ نُوحٍ فَيَقُول لِابْنِهِ: احذر هَذَا لَا يَغُرَّنَّك، فَإِنَّ أَبِي قد ذهب بِي وَأَنا مثلك فحذَّرني كَمَا حذَّرتُك».

ثم إنهم لما رأَوْا إصرارَه علىٰ تبليغ دينِه، ولم يستطيعوا الفرارَ اتجهوا إلىٰ إغلاق أسماعِهم وأبصارِهم، حتىٰ لا يتسلل ذلك النورُ الذي يحمله إليهم إلىٰ داخلهم جهلًا منهم وعنادًا، فكلما دعاهم نوحٌ ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾، إلا أنَّ باطنَهم كان أقبح من ظاهرهم فـ: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾، ورغم هذا الإعراض البالغ منتهاهُ لم ينفكّ عن السَّيْرِ في طريقه، فاستخدم كلَّ أساليبِ الدعوةِ المتاحة، فدعاهم بالإسرار تارة، ودعاهم بالجهر تارة، وجمع لهم بين الإسرار والجهر، فلم يرضوا بغير الضلال سبيلًا، فغيَّرَ من أُسلوبه فدعاهم بما يَستجلِبُ إذعانَهم، فخاطبهم بما يحبون؛ خاطبهم بحظِّهم من الدنيا، وماذا سيكون لهم من الخير إنْ هم أطاعوه، فأراد أن يُصحِّحَ لهم مفهومَهم الخاطئ، فالنجاةَ في الدنيا والآخرةِ إنما هي بيدِ الله لا بِيَدِ آلهتِكم المزعومة، فتوبوا إليه واستغفروه، فإن فعلتم نِلْتُمْ خيرَ الآخرةِ بمغفرةِ الذنوب والفوز برضا الرب سبحانه، ولن يمنعكم ذلك من نعيم الدنيا، ففي قربكم من ربكم تيسيرُ الأمور، وفتحُ بركات السماء والأرض، فينْزِلُ الغيثُ، وتكثُرُ الجِنانُ والخيراتُ والأموال والأولاد، فقال لهم: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ فأيُّ نعيمٍ بعد ذلك تريدون.

﴿ فائدة ﴾

في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ **فوائد:**

منها: أنَّ الرسلَ لا يملكون هدايةَ أحدٍ، كما قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ...﴾ [الشورىٰ:٤٨]، **وإن كانت الهدايةُ نوعين:** هداية دِلالة وهداية توفيق، فإن للرسل هدايةَ الدِّلالة فقط، أما التوفيق لما يحبه الله ويرضاه إنَّما يملكه مَن بيده قلوبُ العباد -سبحانه- فقد تفرَّد الله به وحده، فإن جميع الحوادث بقضاء الله وقدره.

ومنها: أن أشد الناس ابتلاءً هم الأنبياء، فالذين هم أولىٰ بإجابة دعوة الرسل هم أهلُه وأقرباؤه لمعرفتهم بهم وقربهم منهم، ورغم ذلك قُوبِل نوحٌ بالرفض مِن قومه، بل ومن أقرب الناس له، وما أشد ذلك علىٰ النفس، فكان ابتلاؤه شديدًا، فإنما تهون المسؤولية ويَسهُلُ حملُها إذا وُجِد من يُسانده ويؤازره، فرأينا زوجتَه وولدَه كيف كانوا في صفِّ الكافرين المعاندين له.

ومنها: أنَّ علىٰ الرسل أن يُبَلِّغوا جميعَ أقوامهم دون استثناء أحدٍ منهجَ الله، ويعرفوهم مرادَ الله منهم، فقال: ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ لأنهم لا يجتمعون جميعًا في وقت واحد، بل يُذَكِّر في كل زمان وفي كل مكان؛ بُغيةَ أن تصلَ الدعوةُ إلىٰ الجميع.

ومنها: أن دعوةَ الرسل مستغرقة لكل الأزمان ليست في وقتٍ دون وقت، فعَمَلُ الرسلِ دائبٌ من غير فتورٍ مستغرقًا به الأوقات.

ومنها: أن فيها إشارةً إلىٰ أنه إذا صَلَحَت الضمائرُ وصَفَتِ السرائرُ وقعت النصيحة موقعها.

ومنها: أن هناك من الناس من لا يريدون النجاة، وكأنهم يتمثلون بقول القائل: «إنَّ النجاةَ في الغَرَق».

ومنها: أن النفوس المنكوسةَ لا تستطيع أن تُميِّزَ بين ما ينفعها وما يضرها، فقد تهلك من حيث تريد النجاة.

ومنها: أن النصح شديدٌ علىٰ النفس ولا تقبله الأنفسُ المريضةُ وربما جلب العداوة، قال الخطابيُّ(١): «فَإِنَّ الْحَقَّ كَمَا قِيلَ مَغْضَبَةٌ وَبَعْضُ النُّصْحِ لِلْعَدَاوَةِ مَكْسَبَة» ثم قال: قال الريَّاشيّ:

وَكَمْ سُقْتُ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ
وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبُغْضَةَ الْمُتَنَصِّحُ

ومنها: أن فيها دليلًا علىٰ أن الراشد في الأمم الماضية كان قليلًا، والضلالة كانت كثيرة، كما قال تعالىٰ لنبيه: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

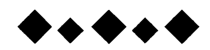
ومنها: أن في قوله: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾ نوعًا من أنواع البديع، يقول ابن عاشور(٢): «وهذا من الأسلوب المسمَّىٰ في علم البديع «تأكيد المدح بما

(١) أبو سليمان حمد بن محمد المعروف بالخطابي، العزلة، (ص ٣٠)، ط٢/ ١٣٩٩هـ، المطبعة السلفية – القاهرة.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور، (ج٢٩/ ١٩٤).

يشبه الذم»، أو تأكيد الشيء بما يشبه ضده، وهو هنا تأكيد إعراضهم المشبه بالابتعاد بصورة تشبه ضد الإعراض، ولما كان فرارُهم من التوحيد ثابتًا لهم من قَبْلُ كان قوله: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىَ إِلَّا فِرَارًا﴾ من تأكيد الشيء بما يشبه ضده». اهـ

ومنها: أنَّ فائدة الدعوة هي أن يحصل جميعُ المقصود أو بعضُه، وإنما دعا عليهم نوحٌ بالهلاك لأنه لم يتحصَّل جميعُ المقصود ولا بعضُه، فلم يبق لذلك فائدة.



وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ **فوائد:**

منها: أنها دليلٌ قويٌّ علىٰ مَدَىٰ بذل الوُسْع من الأنبياء في تبليغ رسالة ربهم، فقد تَحَيَّن نوحٌ الفرصةَ في إيصال الدعوة إليهم، مما ضيَّق عليهم سُبُلَ الهرب فلم يجدوا إلا غلق آذانِهم عن السماع، وأعينهِم عن البصيرة.

ومنها: أن فيها إشارةً إلىٰ أنه من أشد الابتلاءات وأنكاد الدنيا مخالطةُ من لا بُدّ من مخالطته، فرغم أفعالهم هذه إلا أنه لا يجوز لنبيٍّ ولا داعيةٍ أن يعتزل مَدْعُوِّيه ما لم يؤمر بذلك. قال المتنبي:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْحُرِّ أَنْ يَرَىٰ

عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

ومنها: أن من كَرِه أحدًا كرِه سماعَ صوتِه وكره النظرَ إلىٰ وجهه.

ومنها: أن ضعيفَ الحُجَّة لا يستطيع مواجهة خصمه، فيفر هربًا وضَعْفَ حِيلة.

ومنها: أنه يجوز تسمية الشيء بنتيجته وثمرته، فدعوة نوحٍ لهم بقوله: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ تدل علىٰ ذلك، إذ هو يدعوهم للتقوىٰ وطاعة النبيِّ، والذي يؤدي بالضرورة إلىٰ مغفرة الذنوب. فمغفرة الذنوب هي نتيجةٌ حتميةٌ وثمرة حقيقية للموحدين الطائعين.

ومنها: أنَّ ذِكْرَ مغفرةِ الذنوب كثمرةٍ كبرىٰ من ثمرات الإيمان دليلٌ علىٰ أنه إنما يقع العقابُ إذا كثرت المعاصي والسيئات، فإن قَلَّت أو اضمحلت فلا عذاب، فمغفرتها أي: محوها، فلا عقاب يقع ولا عِتاب يُعرض، وما أجمل أن يقفَ العبدُ بين يدىٰ الله يوم الحساب ولا يُذَكِّره بمعاصيه ولا يعاتبه عليها؛ لأنها قد محاها الله من صحيفته فلا عينٌ لها ولا أثر.

ومنها: قال الإمام النووي[1]: «قال العلماء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لا يَسقط عن المكلَّف الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر لكونه لا يُفيد في ظنه، بل يجب عليه فعلُه، فإنَّ الذكرَىٰ تنفع المؤمنين، فإنَّ الذي عليه إنما هو الأمرُ والنهي لا القبول».

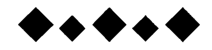
---

(١) أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (حـ٢/ ٢٣)، ط٢/ ١٣٩٢هـ، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

فهذا نوحٌ دعا قومه ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا، وما آمن معه إلا قليل. ورغم كل ذلك لم ينفك عن دعوته، وقد سبق كلامُ شيخِ الإسلام في ذلك في الفوائد العامة.

ومنها: أنه يجوز أن يُطلَق الكلُّ ويُراد البعضُ؛ وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾، فعبَّر عن الأنامل بالأصابع علىٰ سبيل المبالغة في إرادة سد المسامع، فكأنهم لو أمكنهم إدخال أصابعهم جميعها في آذانهم لفعلوا حتىٰ لا يسمعوا شيئًا مما يقوله نبيهم لهم(١).

ومنها: أن من وسائل تحصيلِ العلم ومعرفة الحق من الباطل الإصغاءَ إلىٰ الحق، ومجالسةَ أهل العلم الذين يحملون الحق الذي جاءت به الرسل. والأدلة علىٰ ذلك كثيرة: قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء :٣٦]، فذِكْرُ السمعِ والبصر بعد النهي عن التكلم بدون علم، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، وكأن الله يقول إن كنتم خرجتم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا فقد خلق لكم ما به تعلمون من سمعٍ وبصرٍ وفؤاد.



---

(١) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (حـ ١٥/ ١١٥)، طـ١/ ١٩٩٨م، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة.

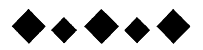
وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ **فوائد:**

منها: الإصرار: هو تحقيق العزم علىٰ فعلٍ، وهو مُشتَقٌّ من الصَّرِّ، وهو الشد علىٰ شيء والعقد عليه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ...﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وحُذف متعلقُ أصرّوا لظهوره، أي أصرُّوا علىٰ ما هم عليه من الشرك[١].

ومنها: أن الإصرار علىٰ المعصية رغم بذل النصيحة يورِّث الكِبْر، فالكِبْر ثمرةٌ من ثمرات الإصرار ونتيجة من نتائجه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾.

ومنها: الكِبْرُ عادةٌ تحول دون قبول الحق.

ومنها: أن الإصرارَ والاستكبار مرضان في قوم نوح، فقوم نوحٍ أصرُّوا علىٰ رأيهم الباطل، واستكبروا عن الحق الذي جاء من عند الله، ومن ابتُلِيَ بهما فقد تشبه بهم.



وفي قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ **فوائد:**

منها: أنه لا بد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل، وبذل آخر ما في طَوْقه ليستحق المَددَ من ربه، فالمددُ والنصرُ لا يأتي القاعدين المسترخين،

(١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (حـ٢٩/ ١٩٦)

الذين ينتظرون ولا يزيدون علىٰ الانتظار والأماني، فنوحٌ بذل كلَّ وُسعه لهداية قومه إلا أنهم أَبَوْا فأتىٰ نصرُ الله بنجاته وإغراق الكافرين.

ومنها: أن علىٰ الداعية أن يتدرج في مناصحته لمدعوِّيه فيبدأ بالأهون والترقي في الأشد فالأشد.

قال الزمخشريُّ(١): «فإن قلت ذَكَرَ أنه دعاهم ليلا ونهارا ثم دعاهم جهارا ثم دعاهم في السر والعلن، فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتىٰ يصحّ العطف، قلت: قد فعل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد، فالأشد، فافتتح بالمناصحة في السِّر، فلما لم يقبلوا ثنَّىٰ بالمجاهرة، فلما لم تؤثر ثلَّث بالجمع بين الإسرار والإعلان، ومعنىٰ «ثُم»: الدلالة علىٰ تباعد الأحوال؛ لأن الجهارَ أغلظُ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما».

ومنها: علىٰ الداعية أن يستعملَ الأسلوب الذي يتناسبُ مع المدعوِّين، فربما يحتاج في أمرِه بالمعروف ونهيِه عن المنكر أن يكونَ في حالةِ إسرار، أو قد لا تُعالَجُ بعضُ أمراضه القلبية إلا بالمجاهرة، أو عن طريق الجهر والإسرار، فعلىٰ الداعي أن يأتيَ بالأسلوب الذي يراه في مصلحة المدعوِّين.

ومنها: معرفة مدىٰ الجهد الجهيد المُضني الذي بذله نبي الله نوح -عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام- في دعوة قومه، فقد بذل كل ما يمكنه في سبيل

---

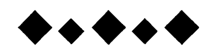
(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (حـ٤/ ٦١٦).

الدعوة إلى الله، وقد بين تعالى مدة مكثه فيهم على تلك الحالة في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤].

ومنها: أن نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما ترك وسيلةً في الدعوة إلا فعلها، وهذا من دلائل حرص الأنبياء على هداية أقوامهم، وتبليغهم دين ربهم.

ومنها: أن المجيئ بـ﴿ ثُمَّ ﴾ إما لتحكي لنا أنه دعا قومه على جميع الفترات الزمنية، فتكون هنا للتراخي الزماني، أو أنها تحكي مراتب دعوته، فيكون العطف رُتَبِي، وعليه فتكون «ثم» في الآية إما للتراخي الزماني، أو الرتبي، والمعنيان محتمَلان.

ومنها: أنه على قدر شدة الأعداء وتعددِ سُبُلِ احتمائهم وقوة مَنْعَتِهم يجبُ أن تتعدد طرقُ المواجهة وتتنوع حتى لا يُترك لهم مجالُ فرار، فنوحٌ رغم اعتراضهم، وغلق آذانهم وإعراضهم الشديد إلا أنه نوع صور الدعوة إليهم، فدعاهم جهارًا، ودعاهم في السر والعلن.



وفي قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ **فوائد:**

منها: أن التَّخْلِيَةَ قبل التَّحْلية، ودرءَ المفاسد قبل جلبِ المصالح والفوائد، فدَعْوَتُه لهم بالاستغفار أولًا لتخلية القلب مما يناقض الإيمان ليكونوا مستعدين للتحلية بالإيمان، ويكونوا قابلين للتحلية بالمحاسن الدينية بعد التخلية عن الأخلاق الدَنِيَّة.

ومنهـا: قـال القشـيريُّ(١): «لِيَعْلَمَ العـالمون: أنّ الاسـتغفار قـرعُ أبـواب النعمة، فمن وقعت له إلىٰ الله حاجةٌ فلن يصل إلىٰ مراده إلّا بتقديم الاستغفار. ويقال: من أراد التّفضّل فعليه بالعذر والتنصّل» اهـ

وقد كان ﷺ كثيرَ الاستغفار، فعن ابن عمر رضي الله تعالىٰ عنهما، قال: كنّا نَعُدُّ لرسول الله ﷺفي المجلس الواحدِ مائة مرةٍ: «ربِّ اغْفِرْ لي، وَتُبْ عَلَيَّ، إنَّكَ أنْتَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ»(٢).

ومنهـا: أن مَـن رُزق الاسـتغفار لـم يُحـرم المغفـرة، لقولـه تعـالىٰ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾.

ومنها: فيهـا دليـلٌ علىٰ سبب كثرة واستخدام الاستغفار في الاستسقاء، فبالاستغفار تُرسَلُ السماء بـالمطر. يقـول مجيـر الـدين المقدسـيّ(٣): «والاستسـقاء: هو الدعاء بطلب السُقيا علىٰ وجه مخصوص، فإذا أجدبت الأرض، وقحط المطـر، سُـنَّ الاستسـقاء بالاتفـاق». واختلفـوا في حكمـه، فقـال أبـو حنيفـة:

---

(١) عبـد الكـريم بـن هـوازن بـن عبـد الملك القشـيري، لطائف الإشـارات = تفسـير القشـيري، (جـ٣/ ٦٣٦).طـ٣: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) مسند أحمد (٤٧٢٦، وابن أبي شيبة(٢٩٤٤٣)، والترمذيّ في السنن(٣٤٣٤) بلفظ: «التواب الغفـور»، وغيـرهم، وبلفـظ: «التـواب الـرحيم» عنـد أبـي داود في السـنن(١٥١٦)، وابـن ماجـة (٣٨١٤)، وغيرهما، وهو حديثٌ صحيح.

(٣) مجيـر الـدين بـن محمـد العليمـي المقدسـي الحنبلـي، فـتح الـرحمن في تفسـير القـرآن، (جـ٧/ ١٧٣) طـ١/ ٢٠٠٩م، دار النوادر.

«لا صلاة في الاستسقاء، إنما الدعاء والاستغفار، وإن صلوا فُرادىٰ، فحسنٌ»، وقال صاحباه: «يصلي الإمام بالناس ركعتين بلا أذان ولا إقامة كالعيد بالتكبيرات الزوائد عند محمد»، وعند أبي يوسف: «لا يكبر سوىٰ تكبيرة الإحرام، وهو المشهور، ثم يخطب واحدة»، وقال مالك: «يصلي ركعتين، يكبر في كل ركعة تكبيرة واحدة كسائر الصلوات، ثم يخطب خطبتين كالعيد، ويجعل بدل التكبير الاستغفار»، وقال الشافعي: «يصلي ركعتين كالعيد، ولا يختص بوقته، يكبر في الأولىٰ بعد استفتاحه سبعًا، وفي الثانية بعد الرفع خَمْسًا، ويرفع يديه في الجميع، ويخطب كالعيد، لكن يستغفر الله بدل التكبير»، وقال أحمد: «وقتُها وصفتُها وأحكامُها كالعيد، فيصلي ركعتين، يكبر في الأولىٰ بعد استفتاحه ستًّا، وفي الثانية بعد الرفع خمسًا، ويرفع يديه مع كل تكبيرة، ثم يخطب واحدة يفتتحها بالتكبير كالعيد، ويكثر فيها الاستغفار والدعاء، والقراءة في الركعتين جهرًا بالاتفاق»، ويستحب للإمام تحويل ردائه بعد أن يستقبلَ القبلةَ، ويفعل الناسُ كذلك عند الثلاثة؛ خلافًا لأبي حنيفة، وأجازه محمد بن الحسن للإمام فقط، وإن خرج أهل الذمة، لم يُمنَعوا عند الثلاثة، ولم يختلطوا بالمسلمين، ولم يفردوا بيوم، ومنع أبو حنيفة وأصحابه من خروجهم». اهـ

ومنها: يقول ابن القيم [(١)]: «**الاستغفار نوعان:** مفردٌ، ومقرونٌ بالتوبة،

---

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، (حـ١/ ٣١٤)، ط٣/ ١٤١٦هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.

فالمفردُ: كقول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقترانِ إحدى اللفظتين بالأخرى، **فالاستغفار**: طلبُ وقايةِ شرٍّ ما مضى، **والتوبة**: الرجوع وطلبُ وقايةِ شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله». اهـ

ومنها: أن الله دائم المغفرة. قال الرازي[١]: «لِمَ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، ولم يقل: إنه غفار؟ قلنا المراد: أنه كان غفارًا في حق كل من استغفروه كأنه يقول: لا تظنوا أن غَفَّارِيَّته إنما حدثت الآن، بل هو أبدًا هكذا كان».

ومنها: أن الاستغفارَ والتوبةَ والعملَ الصالحَ قد يكونوا من أسباب تيسير الرزق.

ومنها: أن مَن أكثرَ الاستغفارَ حَباهُ الله ما يسُره، وحماه ما يضُره.

فعن الحسن -يعني البصري-: «أنّ رجلا شكا إليه الجَدْبَ فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقرَ، وآخر قلةَ النَّسْلِ، وآخر قلةَ رِيعِ أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له الربيع بن صبيح[٢]: أتاك رجال يشكون أبوابًا ويسألون

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، (جـ٣٠/ ٦٥٢).

(٢) الربيع بن صبيح السعدي، أبو بكر، و يقال أبو حفص، البصري، مولى بني سعد بن زيد مناة، العابد، الإمام، حدث عن: الحسن، ومحمد بن سيرين، وعطاء بن أبي رباح، وثابت البناني، وعنه: وكيع وابن مهدي وغيرهم، وكان من عُبَّاد أهل البصرة وزُهَّادهم، كان يشبه بيته بالليل بالنحل، إلا أن الحديث لم يكن من صناعته، فكان يَهِم كثيرا، واتهمه بعضهم

أنواعًا، فأمرتهم كلهم بالاستغفار! فتلا له هذه الآية».

ومنها: أنه سُبحانه يُعلِّلُ أَحْكامه وأفعالَه بأسمائه، وَلَو لم يكن لها معنىٰ لما كان التَّعْلِيلُ صحيحا، فقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾.

ومنها: أن علىٰ الداعية أن يُنوِّعَ في أسلوبه بين الترغيب والترهيب، فهنا رغَّبهم في التوبة بِكوْنِ الله سبحانه غفارًا للذنوب والمعاصي.

ومنها: أن الغفران صفةٌ ثابتةٌ تعهَّد الله بها لعباده المستغفرين، وأفاد ثبوتها لله بذكر فعل ﴿كَانَ﴾، وأفاد كمال غفرانِه بصيغةِ المبالغة بقوله: ﴿غَفَّارًا﴾. قاله ابن عاشور.

ومنها: أن المختار من لفظ الاستغفار ما رواه البخاري وغيره[1] عن شداد بن أوس، وليس له في الجامع غيره، عن النبي ﷺ قال: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» قَالَ ﷺ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ».

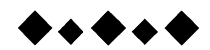
ومنها: فقه الاستغفار.

بالتدليس، توفي: بالسِّنْد، سنة ستين ومائة.

(١) البخاري (٦٣٠٦)، باب أفضل الاستغفار - واللفظ له-، أحمد (١٧١١١).

قال القرطبيُّ[1]: «قال علماؤنا: الاستغفار المطلوب هو الذي يَحُلُّ عُقَد الإصرار ويَثْبُتُ معناه في الجَنان، لا التلفظ باللسان. فأما من قال بلسانه: أستغفر الله، وقلبه مُصِرٌّ على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرتُه لاحقة بالكبائر. وقال: فإن الاستغفار باللسان من غير توبة لا ينفع» اهـ

فمن أناب إلي الله وتاب من ذنوبه متى صدقت العزيمةُ، وخلصت النية، وصحت التوبة، فإن الله يغفر ما عَظُمَ منها وإن كانت كزبد البحر.



وفي قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ **فوائد:**

منها: أن ثمرة الإنابة والطاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليست مقتصرة على خير الآخرة فقط، ولكن من أناب وأطاع فتحت له أبواب خيرات الدنيا قبل الآخرة، ففي الآية دلالة على أن الله يجازي عباده الصالحين بطيب العيش كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ [الأعراف:٩٦]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ...﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

---

(١) تفسير القرطبي، (٤/ ٢١٠).

ومنها: أن الله سبحانه أنزل غَيْثَيْنِ لعباده، أحدُهما أهمُّ من الآخر والناس يحتاجون إليه أشد من الآخر، **أما الغيث الأول**: فهو غيث القلوب بما أنزل الله من الوحي على رسله، وهذا الغيث مادةُ حياة القلوب وسعادة الدنيا والآخرة، وبه يُستجلَبُ الغيثُ الثاني، وهو غيث الأرض بما ينزله الله من المطر، ولقد خرجتم تستغيثون ربكم لهذا الغيث، وإنه لجدير بنا أن نهتم بالغيث الأول قبل الثاني؛ لأن به سعادة الدنيا والآخرة وحصول الغيث الثاني، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦] وقال تعالى على لسان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[1].

ومنها: أنه يجوز تسمية المطر بالسماء، قال القرطبيّ: **قيل**: السماء المطر، أي: يرسل المطر. **قال الشاعر**:

إذا سَقطَ السماءُ بأرضِ قومٍ رعَيناهُ وإنْ كانوا غِضَابا

ويجوز أن يكون فيها إضمارٌ، ويكون المعنى: يُرْسِل ماءَ السماء.

وقال الثعالبيُّ[2]: «العرب تُسمِّي الشيءَ باسم غيره إذا كان مُجاورًا له أو كان منه بسبب، كتسميتهم المطر بالسماء لأنه منها ينزل...» وروى

(١) محمد بن صالح العثيمين، الضياء اللامع من الخطب الجوامع، ط١/ ١٤٠٨هـ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

(٢) عبد الملك بن محمد أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، (ص:٢٢٥) ط١/ ١٤٢٢هـ، إحياء التراث العربي.

الشيخان[١] عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: «صلَّىٰ لنا رسُول الله ﷺ صَلاة الصُّبحِ بالحُدَيبيَة، علىٰ إِثرِ سَماءٍ كانتْ مِن الليلة...» أي: علىٰ إثر أمطار نازلة بالليل.

ومنها: «علىٰ رأي من قال أنه يُراد بها السماء الحقيقية ففيها أنها تُذكَّر وتؤنَّث، ولا يأبَىٰ تأنيثها وصفها بمدرار، إلا أن صيغ المبالغة كلها -كما صرح به سيبويه- يشترك فيها المذكر والمؤنث. وفي البحر أن «مِفعالًا» لا تلحقه التاء إلا نادرًا» قاله الألوسي[٢].

ومنها: أنه علىٰ الداعية أنْ يخاطبَ الناسَ بما هو أوقع في نفوسهم وأحبّ إليهم من المنافعِ الحاضرةِ والفوائد العاجلة، ترغيبًا في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين، فنوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بدأهم في وعده بأمر المطر، ثم ثنَّىٰ بالأموال والبنين، قال قتادة: «لأنهم كانوا أهلَ حُبٍّ للدنيا وتعظيمٍ لأمرها فاستَدْعَاهم إلىٰ الآخرة من الطريق التي يحبونها».

ومنها: أنَّ ذِكْرَ نوحٍ لهذه الأشياء دليلٌ علىٰ أن الإنسان مجبولٌ علىٰ محبة الخيرات العاجلة، ولو لم يكن ذلك ما ذكرها لهم.

ومنها: أن ما من أُمَّةٍ قام فيها شرع الله، واتجهت اتجاهًا حقيقيًا لله بالعمل

---

(١) البخاريُّ (٨٤٦)، (بَابُ يَسْتَقْبِلُ الإِمَامُ النَّاسَ إِذَا سَلَّمَ)، واللفظ له، ومسلم (١٢٥-٧١)، (بَابُ بَيَانِ كُفْرِ مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِالنَّوْءِ)، ولفظه: «صَلَّىٰ بِنَا... فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ...».

(٢) شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (حـ١٥/ ٨١)، ط١/ ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

الصالح والاستغفار المُنبِئ عن خشية الله، وما من أُمةٍ اتَّقتِ اللهَ وعبدته وأقامت شريعته، فحققت العدلَ والأمنَ للناس جميعًا، إلا فاضت فيها الخيرات، ومَكَّن اللهُ لها في الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء. وفي هذا المعنىٰ آياتٌ كثيرات، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

وقال الرازي[1]: «الاشتغال بالطاعة سببٌ لانفتاحِ أبوابِ الخيرات، **ويدل عليه وجوه:**

أحدها: أن الكفر سببٌ لخراب العالم علىٰ ما قال في كفر النصارىٰ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩١]، فلما كان الكفرُ سببًا لخراب العالم، وجبَ أن يكون الإيمانُ سببًا لعمارة العالم.

وثانيها: الآيات منها هذه الآية، ومنها قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ...﴾ [الأعراف:٩٦]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ...﴾ [المائدة: ٦٦]، ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، (حـ٣٠/ ٦٥١)، ط٣/ ١٤٢٠هـ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

[الطلاق:٢-٣]، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ...﴾ [طه: ١٣٢].

وثالثها: أنه تعالىٰ قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا اشتغلوا بتحصيل المقصود حصل ما يحتاج إليه في الدنيا علىٰ سبيل التبعية.

ورابعها: أن عُمَرَ خرَجَ يستسقي فما زاد علىٰ الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استسقيت، فقال: لقد استسقيت بمجاديح[1] السماء» اهـ

وبالمفهوم المخالف: فإن الأمم الفاسقة عن أمر ربها مهما أُوتيت من ثراءٍ وبَسطة في الرزق فإن حياتها دائمًا تكون متلبسةً بالقلق النفسي، والشقاءِ القلبي، والاكتئاب الذي يؤدىٰ إلىٰ فسادِ الحال واضطراب البال.

ومنها: في قوله: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ **قال المراغي**[2]: «ثَبتَ لدىٰ علماء الاجتماع أن النسلَ لا يكثرُ في أمةٍ إلا إذا استتبَّ فيها الأمنُ، وارتفع منها الظلمُ، وساد العدلُ بين الأفراد، وتوافرت لهم وسائل الرزق».

---

(١) قال صاحب اللسان (حـ٢/ ٤٢١) عن لفظة «مجاديح»: «قَالَ ابْنُ الأَثير: الْيَاءُ زَائِدَةٌ للإِشباع، قَالَ: وَالْقِيَاسُ أَن يَكُونَ وَاحِدُهَا مِجْداح، فأَما مِجْدَح فَجَمْعُهُ مَجادِحُ؛ وَالَّذِي يُرَادُ مِنَ الْحَدِيثِ أَنه جَعَلَ الِاسْتِغْفَارَ اسْتِسْقَاءً بتأَوّل قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرارًا؛ وأَراد عُمَرُ إِبطال الأَنْواءِ والتكذيبَ بِهَا لأَنه جَعَلَ الِاسْتِغْفَارَ هُوَ الَّذِي يُسْتَسْقَىٰ بِهِ، لَا الْمَجَادِيحَ والأَنواء الَّتِي كَانُوا يَسْتَسْقُونَ بِهَا. والمَجاديحُ: وَاحِدُهَا مِجْدَحٌ، وَهُوَ نَجْمٌ مِنَ النُّجُومِ كَانَتِ الْعَرَبُ تَزْعُمُ أَنها تُمْطَرُ بِهِ كَقَوْلِهِمُ الأَنْواء، وَهُوَ الْمُجْدَحُ».

(٢) أحمد بن مصطفىٰ المراغي، تفسير المراغي، (حـ٢٩/ ٨٤) ط١/ شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابىٰ الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٤٦ م

ومنها: أن فيها دليلًا علىٰ حرصهم علىٰ الدنيا، قال القرطبيُّ: قال قتادة: عَلِمَ نبيُّ الله ﷺ أنهم أهلُ حِرصٍ علىٰ الدنيا فقال: «**هَلمُّوا إلىٰ طاعةِ اللهِ فإنَّ في طاعةِ اللهِ درك الدنيا والآخرة**».

ومنها: أن التوبة والاستغفار يرفعان العذابَ والعقاب، كما أن الذنوبَ هي سببُ العذابِ والعقاب، كما ذهب بعضُ أهل العلم إلىٰ أن الله حَبَسَ عن قوم نوحٍ القَطْر وأعقم أرحام نسائِهم أربعين سنة. ورُوِيَ: سبعين، لما عصَوْه وكذَّبوا رسوله. فقوله: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ يكون معناه: إذا تبتم إلىٰ الله ورجعتم إليه رفع عنكم ما أصابكم من إمساكِ القطرِ عنكم وعُقْمِ نسائكم. والأخذُ بالبأساء والضراء إحدىٰ السُبُل التي تُستخدم في عودة العباد إلىٰ ربهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام :٤٢].

ومنها: معنىٰ: ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ يقول الزمخشريُّ: «والمِدرار: الكثير الدرور، ومِفْعال مما يستوي فيه المذكرُ والمؤنث، كقولهم: رجل أو امرأة مِعْطار ومِتْفال».



مائدة

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

وبعد أن دعا نوحٌ قومه بالترغيب في الآيات السابقات، دعاهم هنا في مفتتح هذه الآيات بالترهيب والزجر لعلهم يتقون، أو يُحْدِثُ لهم الترهيب ذِكْرَىٰ، فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ كيف لا تستشعرون في أنفسكم توقيرًا للجليل الذي خلقكم، وهذا أعجبُ وأنكر ما يقع من مخلوق! فكيف ذلك؟! والحال أنكم لو تأملتم في كيفية خَلْقِكم سَتَرَوْنَ تلك العِظمة له جلِيَّةً واضحة، فقد ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ طَورًا بعد طورٍ ومرحلةً بعد مرحلة، وخلَقَكُم مختلفين في الصورة والخُلُق، والذي عليه أكثرُ المفسرين أنها الأطوار الجنينية من النطفة إلىٰ العلقة إلىٰ المضغة إلىٰ الهيكل إلىٰ الخلق الكامل، ثم بدأ يوسِّع دائرةَ تأمُّلِهم لعلهم يتقون،

فانتقل من الدعوة إلىٰ التأمل في علوم الأنفس إلىٰ التأمل في علوم الآفاق من معدن ونباتٍ وحيوانٍ وإنسانٍ وسماء وأرضٍ وشموسٍ وأقمار؛ لأن كل هذا يَرَوْنَه، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، وهذا التوجيه يَكفِي لإثارةِ التطلُّعِ والتدبُّر فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرةٍ مبدعةٍ، فالسماء من فوقكم طباقًا بدون عَمَدٍ، وهذا القمر وتلك الشمس والذي فيهما من الآيات ما يبصره كل عاقل يدعو إلىٰ الخضوع للخالق سبحانه، وقد شبَّه الشمسَ بالسراج؛ لأنها تُزيل ظلمةَ الليل عن وجه الأرض كما يزيلها السراج عما حوله، ثم دعاهم إلىٰ التأمل في أصل خِلقتهم، فقد خُلِقوا من الأرض وفيها يدفِنون أمواتَهم، فلما دعاهم إلىٰ الاستشعار كيف خلقهم الله من الأرض وأنهم يعودون إليها إذا ماتوا، فإنه بذلك يدعُوهم إلىٰ توقع النشأة الآخرة، فالذي خلقكم أول مرةٍ قادرٌ علىٰ إعادتكم أُخرىٰ، وإن كان الأمر كذلك، فمنها ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾، فاستعدوا لعودتكم إلىٰ ربكم، وقد قَرَنَ اللهُ بين نشأةِ الإنسان ونشأةِ النبات في آياتٍ كثيراتٍ، وهو بذلك يبرهن علىٰ حقيقة الخَلْقِ والبعث، ومن أشهرها في آية واحدةٍ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٦]، فالإنسان بذلك نباتٌ من نبات الأرض.

ثم ذكَّرهم نوحٌ بكرم الله وتفضُّله عليهم، فبعد أنْ جعلهم يتأمَّلون في ملكوت السماء، نقلهم إلىٰ ملكوت الأرض مما يشاهدونه، لعلهم يتقون أو يُحدثُ لهم ذلك ذكرىٰ، فذكَّرهم بنعمِ اللهِ عليهم، وكيف جعل لهم الأرض منبسطة يستطيعون أن يعيشوا عليها، فقد يسرها لمعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم، والحال من ذلك كله إنْ هم فروا من كلام نوح فإنهم لا يستطيعون الفرار من هذه الحقائق التي بين أيديهم.

فائدة

في قوله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ **فوائد:**

منها: أن عدم قبول الحق والاستجابة لمن يحمل هذا الحق إنما هو من عدم توقير المَلِك سبحانه، **يقول التويجري**[(١)]: «ومن لا يوقِّر الله العظيم، كيف يوقر كلامَه ورسلَه ودينَه وأوامرَه؟ ومن كان كذلك فإن الله لا يُلقِي له في قلوبِ الناسِ وَقارًا ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم، وإن وقَّروه مخافةَ شرِّه فذلك وقارُ بُغْضٍ لا وَقارُ حبٍّ وتعظيم».

ومنها: قال البقاعيّ[(٢)]: «والخلق إنما تفاضلوا بالمعرفة بالله، لا بالأعمال، إنما سبقَ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الناسَ بشيء وَقَرَ في صدره، فإن بالمعرفة تزكو

---

(١) محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، موسوعة فقه القلوب، (حـ ٢/ ١٨١١)، بيت الأفكار الدولية.

(٢) إبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (حـ٢٠: ٤٤٠)، ط دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

الأعمالُ وتصلح الأقوالُ.

ومنها: كيف يكون تعظيمُ الله وتوقيرُه؟

يقول البقاعيّ -في نفس الموضع السابق-: «وإنما يصحُّ تعظيمُه سبحانه بأن لا ترىٰ لك عليه حقًّا، ولا تنازِع له اختيارًا، وتُعظِّم أمره ونهيه، بعدم المعارضة بترخيص جافٍ أو تشديد غالٍ أو حَملٍ علىٰ توهم الانقياد، وتعظيم حُكْمِه بأن لا تَبغِي له عِوجًا ولا تدافعه بعِلمٍ، ولا ينبغي له غَرَضٌ وعلة».

ومنها: أن شِدةَ الداعي وغلظَتَه أحيانًا وكشفَ عَوار مَدْعُوِّيه لا يتنافىٰ مع رحمة الأنبياء وحرصِهم علىٰ هداية أقوامهم.

ومنها: أن قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ للعلماء فيه أقوال: قال ابن الجوزيُّ[1]: «**فيه أربعة أقوال:**

أحدها: لا تَرَوْن لله عظمة، قاله ابن عباس.

والثاني: لا تخافون لله عظمة، قاله الفراء وابن قتيبة.

والثالث: لا تَرَوْن لله طاعة، قاله ابن زيد.

والرابع: لا ترجون عاقبةَ الإيمان والتوحيد، قاله الزّجّاج...» اهـ.

ومنها: **يقول ابن القيم**[2]: «الخوفُ مستلزِم للرجاء. والرجاء مستلزِم للخوف. فكل راجٍ خائفٌ، وكل خائفٍ راج، ولأجل هذا حَسُنَ وقوعُ الرجاء في

(١) جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (حـ٤/ ٣٤٢) تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١/ ١٤٢٢هـ، دار الكتاب العربي - بيروت

(٢) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين (حـ٢/ ٥١).

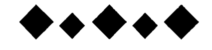
موضعٍ يحسن فيه وقوعُ الخوف. قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، **قال كثير من المفسرين:** المعنىٰ ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنىٰ الخوف.

والتحقيق أنه ملازم له، فكلُّ راجٍ خائف من فوات مَرْجُوّه، والخوف بلا رجاء يأسٌ وقنوط».

ثم قال: «فعَلَىٰ قدرِ رجائهم وخوفهم يكون فرحُهم في القيامة بحصول مَرجُوِّهم واندفاع مَخُوفِهم». اهـ

ومنها: أن فيها من البلاغة ما يسمىٰ (الكناية التلويحية).

قال محمد صديق خان(١): «والمراد: الحثُّ علىٰ الإيمان والطاعة، فهو من الكناية التلويحية؛ لأن من أراد رجاء تعظيم الله، وتوقيره إياه آمن به وعَبَدَه وعمل صالحًا وَمَن عمل الصالحات رجا ثواب الله وتعظيمه إياه في دار الثواب، فإن الحث علىٰ تحصيل الرجاء مسبوق بالحث علىٰ تحصيل الإيمان. فهو من باب مقدمة الواجب».اهـ



وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ **فوائد:**

منها: أنها إشارةٌ إلىٰ المراحل التي للإنسان في بطن أمه من النطفة والعلقة والمضغة، كما ذهب ابن عباسٍ وقتادة، **فقال قتادة:** «نُطفة ثُم علَقَة ثُم مُضغة ثُم خلقا آخَرَ».

---

(١) أبو الطيب؛ محمد صديق خان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن (حـ١٤/ ٣٣٥).

وقال جماعة من أهل التأويل: «هي إشارة إلىٰ العِبْرة في اختلاف ألوان الناس وخَلْقِهم وخُلُقِهم ومِلَلِهم».

والأطوار: الأحوال المختلفة. ومنه قول النابغة:

فـإنْ أفَـاقَ فقـدْ طَـارَتْ عَمَايَتُـه والمرءُ يُخلَقُ طَوْرًا بعدَ أَطْوار

والطَّوْرُ في اللغة: المَرَّة، وأطوارًا بمعنىٰ ألوانًا بلغة هُذَيل.

ورجح الشنقيطي في (أضواء البيان) الرأي الأول؛ **أيْ**: قول ابن عباس، بعد أن ذكر مذاهب أهل العلم في تأويلها فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إِذَا تَعَدَّدَتِ الْأَقْوَالُ فِي الْآيَةِ وَكَانَ فِيهَا قَرِينَةٌ دَالَّةٌ عَلَىٰ أَحَدِ الْأَقْوَالِ فَإِنَّهُ يُبَيِّنُهُ، وَهُنَا قَرِينَةٌ فِي الْآيَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ الْأَوَّلُ، وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ صَحِيحًا، وَالْقَرِينَةُ هِيَ أَنَّ الْآيَةَ فِي قَضِيَّةِ الْخَلْقِ وَهُوَ الْإِيجَادُ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّ مَا بَعْدَ الْإِيجَادِ صِفَاتٌ عَارِضَةٌ».

ومنها: أنها دليلٌ علىٰ أنه لا يستحق التعظيم والعبادة إلا الذي خلق -سبحانه- فإن كان سبحانه خلقكم طورًا بعد طورٍ وقَدَرَ علىٰ ذلك؛ فما بالكم لا ترجون طاعته وعبادته وخوفه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فكما أن له الخلق فكذلك له الأمر، **يقول السعدي**: «**فالخَلْق**: يتضمن أحكامه الكونية القدرية، **والأمر**: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية».

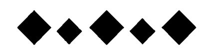
ومنها: أنه قد تكون هناك تداعيات الإيمان والأدلة الدامغة علىٰ قدرة الله سبحانه إلا أنك تجد من النفوس من يبغونها عِوجًا، **فالآيات الدالة علىٰ وجود**

---

(١) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (جـ٨/ ٣٠٨) طـ دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٩٩٥م.

الله ووحدانيته كثيرة: ففي الأنفُسِ كَخَلْقِ الإنسانِ طَورًا بعد طَوْر، وفي الكون كخلقِ السموات والأرض، والشمس فيها سراجًا والقمر نورًا، ورغم كل ذلك يقولون: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ...﴾.

ومنها: أن التأمل في آيات الذات وآيات الكون يُبَصِّرُ العبدَ بقدرةِ ربه مما يَحْمِلُه ذلك على الإيمان به، قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].



وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ **فوائد:**

منها: استخدام فعل «رأي» في جهة الإخبار كما يستخدم في جهة المعاينة، كقولك: ألم تَرَنِي كيف صنعتُ بفلانٍ كذا، **قال ابن القيم**: «**فالعيان والرؤية**: واقعٌ علىٰ المفعول لا علىٰ ذاتِ الفاعل وصفتِه ولا فِعلِه القائم به».

وقال مكي بن أبي طالب(١): «ومعنىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ﴾، **معناه**: اعلموا أن الله خلق ذلك، ولو كان علىٰ غير الأمر معناه؛ لقالوا: ما نرىٰ إلا واحدة، ولكن معناه الأمر، كما تقول: غفر الله لك، اللهم اغفر له، لأنك لست تخبره عن أمرٍ عَلِمْتَه، إنما هو دعاء يتمنىٰ كونه له، ومن هذا قول الرجل

---

(١) أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش القيرواني ثم الأندلسي القرطبي، الهداية إلىٰ بلوغ النهاية، (حـ١٢/ ٧٧٣٨)، طـ١/ ١٤٢٩هـ، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة.

للرجل: أَلَمْ تر أَنِّي لقيت زيدًا فقلت له: كذا، وقال لي: كذا؟. معناه: اعلم أني لقيتُ زيدًا فكان من أمره وأمري كذا وكذا». اهـ

ومنها: أنه علىٰ من أراد أن يثبت حقيقةً فَعَلَيْهِ بِذِكْرِ الأدلةِ والشواهد، فيبتدئ بالدليل الأوضح والأقرب إلىٰ الفهم، ففي خطاب نوحٍ هنا أراد أن يثبت حقيقة التوحيد، فبدأ بدلائل الأنفس؛ فإن دلائل الأنفس -كما يقول الرازي- حاضرةٌ، لا حاجة للعاقل إلىٰ التأمل فيها-، ثم ذكر بعدها دلائلَ الآفاقِ من سماءٍ وأرضٍ وشمسٍ وقمر، إلا أن ذلك ليس علىٰ الإطلاق، ولكن حسب ما يقتضيه سياق الحوار، وحال الحقيقة التي يريد إثباتها، ففي «الذاريات» بدأ بدلائل الأفاق ثم دلائل النفس، ثم عاد إلىٰ دلائل الآفاق، قال تعالىٰ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢٢].

ومنها: «أن قوله: ﴿طِبَاقًا﴾: دليلٌ علىٰ أن بعض السموات أعلىٰ من بعض، وذلك يقتضي أنها منفصلةٌ بعضُها عن بعض وأن بعضها أعلىٰ من بعض سواء كانت متماسَّة أو كان بينها ما يسمىٰ بالخلاء». قاله ابن عاشور.

وقال مكي بن أبي طالب الأندلسي[1]: «فالمعنىٰ: ألم تروا كيف خلق الله سماء فوق سماء مطابقة؟!. ويجوز أن يكون «طباقًا» «نعتًا» لـ«سبع»، جمع طبق». اهـ

ومنها: إذا كان سياق الآيات للاستدلال بالمعلوم المشاهَد علىٰ المجهول

---

(١) مكي بن أبي طالب، الهداية إلىٰ بلوغ النهاية (حـ١٢/ ٧٧٣٨).

الغيبي، فإن خَلْقَ الإنسانِ أطوارًا محسوسٌ مشاهَدٌ ومسلَّمٌ به، وإنباتُ الإنسان من الأرض بإطعامِهِ من نباتها، وإحياؤها بعد موتها، واهتزازُها، وإنباتُها النبات أمرٌ محسوس. فكيف يستدلون بالمجهول عندهم -وهو خلق السموات طباقًا- علىٰ المغيب عنهم؟

ناقش الشيخ الشنقيطي[1] هذه المسألة وذكر أنَّ ابنَ كثير تكلم ولكن لم يذكر حلًا للإشكال، ثم نقل كلام القرطبيِّ بأن ذلك علىٰ جهة الإخبار، ورجَّحَ الشيخُ هذا الرأي مستدلًا بخطاب القرآن للمشركين في مواضعَ أخرىٰ عن خلق السموات والأرض، وأنه خلق الأرض في يومين وقدَّر فيها الأقوات، رغم أن كلَّ ذلك أمورٌ غير محسوسة، ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلىٰ كلام القرطبي يَرِدُ السؤالُ الأول، إذا كان ذلك علىٰ جهة الإخبار، فكيف يُجْعَلُ الخبرُ دليلًا علىٰ خَبَرٍ آخر لا يُدْرَكُ إلا بالسمع»؟

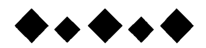
ثم أجاب على ذلك باحتمالين، فقال:

وحيث إن الله خاطبهم هنا ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ...﴾ فكان هذا أمرًا لفرط صدق الإخبار به، كالمشاهد المحسوس الملزِم لهم، وقد جاءت السُنّة، وبينت تلك الكيفية أنها سبعٌ طباقٌ، بين كل سماء والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، وسُمْكُ كل سماء مسيرة خمسمائة عام.

وقد يقال: إن الرؤية هنا في الكيفية حاصلةٌ بالعين، محسوسةٌ، ولكن في شخصية الرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج؛ حيث عُرِج به ورأىٰ السبع

(١) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (حـ٨/ ٣١٠: ٣١٢)

الطباق، وكان يستأذن لكل سماء، ومشاهدة الواحد من الجنس كمشاهدة الجميع، فكأننا شاهدناها كلها لإيماننا بصدقه ﷺ ولحقيقة معرفتهم إياه ﷺ في الصدق من قبل، والعلم عند الله تعالىٰ.



وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ **فوائد:**

منها: جواز التعبير عن البعض بالكل، فالقمرُ ليس في كل السموات ولكن في السماء الدنيا، **قال القرطبيُّ**[١]: «**كما يقال**: أتاني بنو تميم، وأتيت بني تميم، والمراد: بعضُهم، قاله الأخفش». **قال ابن كَيسان**: «إذا كان في إحداهن فهو فيهن».

فإنه لا يلزم من الظرف أن يملأه المظروف، كقولك أيضًا: زيدٌ في المدينة، وهو في جزء منها، ولم تقيَّدُ الشمسُ بظرف، **فقيل**: هي في الرابعة، **وقيل**: في الخامسة، **وقيل**: في الشتاء في الرابعة، وفي الصيف في السابعة، وهذا شيء لا يوقف علىٰ معرفته إلا من علم الهيئة. **وقال قطرب**: فيهن بمعنىٰ معهن.

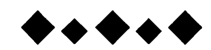
ومنها: قال الطاهر ابن عاشور[٢]: «وفي جعلِ القمر نورًا إيماءٌ إلىٰ أنَّ ضوء القمر ليس من ذاته، فإن القمر مظلِمٌ، وإنما يستضيء بانعكاسِ أشعة الشمسِ علىٰ ما يستقبلها من وجهه بحسبِ اختلاف ذلك الاستقبال من تَبَعُّضٍ وتمامٍ

---

(١) أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (حـ١٨: ٣٠٤)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢: ١٣٨٤هـ، دار الكتب المصرية - القاهرة.

(٢) التحرير والتنوير، (حـ٢٩/ ٢٠٤).

هو أثرُ ظهورِهِ هلالًا، ثم اتساع استنارته إلىٰ أن يصيرَ بدرًا، ثم ارتجاع ذلك، وفي تلك الأحوال يضيء على الأرض إلىٰ أن يكون المحاق، وبعكس ذلك جُعِلتْ الشمسُ سراجًا؛ لأنها ملتهبةٌ وأنوارُها ذاتية فيها، صادرةٌ عنها إلىٰ الأرض وإلىٰ القمر مثل أنوار السراج تملأ البيت وتلمع أواني الفضة ونحوها مما في البيت من الأشياء المقابلة، وقد اجتمع في قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ استدلالٌ وامتنان».



وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾

فوائد:

منها: أن بدايةَ الإنسان كانت من الأرض، فأولُ البشر آدمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خلق من طين، وقد صرح الله بذلك فقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام:٢]، وقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص:٧١]، **وهذا أحدُ أوْجِهِ التأويلِ في الآية، والتأويل الثاني: يقول الرازي:** «أنه تعالىٰ أنبتَ الكُلَّ من الأرض؛ لأنه تعالىٰ إنما يخلقنا من النطف وهي متولدةٌ من الأغذية المتولدةِ من النبات المتولد من الأرض».

ومنها: أنها دليلٌ علىٰ مراحلِ الإنسان التي يمر بها، فقد خُلِقَ من الأرض، وهو آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم يعود فيها كما بدأ، ثم يبعث، كما قال تعالىٰ: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:٢٥].

ومنها: «أن الأرواحَ في الأجساد في هذه الدار عاريةٌ ولا بُدَّ من أن تُسترد الأرواح من هذه الأجساد، وتُعاد الأجسادُ إلىٰ ما خُلقتْ منه وهو التراب، ووعد الله أن يعيد الأجساد من الأرض مرة ثانية ثم يَرُدُّ إليها الأرواحَ مرة ثانية تمليكًا دائما لا رجعة فيه في دار البقاء، قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:٢٥]، وقال: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾». قاله ابن رجب في لطائف المعارف[1].

ومنها: قال ابن رجب في (اللطائف) أيضًا: «أجسام بني آدم بل وسائر الحيوانات كنبات الأرض تنقلب من حال إلىٰ حال، ثم تجف وتصير ترابًا».

ومنها: أن نشأة الإنسان كنشأة النبات من عناصرها الأولية يتكون، ومن عناصرها الأولية يتغذىٰ، فهو نبات من نباتها كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾، فالإنسان والنبات كلاهما نبات من نبات الأرض، وكلاهما يرضع من هذه الأم شرابه وطعامه[2].

ومنها: أسباب قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، ولم يقل: «أنبتكم إنباتـا». والأصل أن تقول: «نَبَتَ نباتًا وأَنْبَتَ إِنْبَاتًا»: **وذلك لأحد الأسباب التالية:**

الأول: إنما جاء بهما هكذا لِيَجمع المعنيين الموجودين في الفعل والمصدر،

---

(١) زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف (ص:٩٨)، ط١، ١٤٢٤هـ، دار ابن حزم.

(٢) محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، موسوعة فقه القلوب (جـ١/ ٥٧٥)، بيت الأفكار الدولية.

فيأتي بالفعل للدلالة، ويأتي بالمصدر من فعل آخر من دلالة أخرىٰ، فيجمع بينهما حتىٰ يجمع المعنيين، فيكون المقصود هنا -والله أعلم- أن الله أنبتهم، ولكن ليُثْبِت نوحٌ أنهم ليسوا مُجْبَرين علىٰ أن يكونوا صالحين أو طالحين؛ جعل لهم حرية في قبول إنبات الله لهم، فينبتون علىٰ ما يريدون، حتىٰ لا يقولوا: إذا كان الله الذي أنبتنا إنباتًا، فإنه لا دخل لنا ولا حول لنا ولا قوة في مخالفتنا لك، ولكن نوحًا بهذا اللفظ أثبت لهم قبول إنبات الله لهم. فهم مخيرون لا مجبرون، حتىٰ لا يتحججوا بأنهم وجدوا آباءهم كذلك.

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ المفروض تبتّلًا، تبتيل مصدر بتّل، وبتّل غير تبتّل تمامًا، والمعنىٰ مختلف، فبدل أن يقول: وتبتل إليه تبتلًا، وبتِّل نفسك إليه تبتيلًا يقول: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ فيجمع المعنيين وهذا من أعجب الإيجاز.

الثاني: أنه لما كان المقام مقام إثبات وحدانية وقدرة الله بأدلة محسوسة، كان الابتعاد عن الغيبيات والأشياء الغير محسوسة أولىٰ، يقول الرازي[1]: «**والتقدير**: أنبتكم فنبتُّم نباتًا، **وفيه دقيقة لطيفة**: وهي أنه لو قال: «أنبتكم إنباتًا» كان المعنىٰ أنبتكم إنباتًا عجيبًا غريبًا، ولما قال: «أنبتكم نباتًا» كان المعنىٰ أنبتكم فنبتُّم نباتًا عجيبًا، وهذا الثاني أولىٰ؛ لأن الإنبات صفةٌ لله تعالىٰ، وصفةُ الله غير محسوسة لنا، فلا نعرف أن ذلك الإنبات إنباتٌ عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالىٰ، وهذا المقام مقام الاستدلال علىٰ كمال قدرة الله

(١) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير (جـ٣٠: ٦٥٤).

تعالىٰ فلا يمكن إثباته بالسمع، أما لما قال: «أنبتكم... نباتًا» علىٰ معنىٰ أنبتكم فنبتم نباتًا عجيبًا كاملًا كان ذلك وصفًا للنبات بكونه عجيبًا كاملًا، وكون النبات كذلك أمرٌ مشاهَدٌ محسوس، فيمكن الاستدلال به علىٰ كمال قدرة الله تعالىٰ، فكان هذا موافقا لهذا المقام» اهـ

وقال الجمل(١): «قوله: نباتًا، يجوز أن يكون مصدرًا لأنبتَ علىٰ حذفِ الزوائد، ويسمىٰ اسم مصدر، ويجوز أن يكون مصدرًا لنبتم مقدرًا. أي: فنبتّم نباتًا- فيكون منصوبًا بالمطاوع(٢) المقدر».

وأضاف ابن عاشور سببًا ثالثًا رائعًا فقال(٣): «وإنما لم يقل: إنباتًا؛ لأن نباتًا أخف، فلما تسنَّىٰ الإتيانُ به؛ لأنه مستعمل فصيح لم يعدل عنه إلىٰ الثقيل كمالًا في الفصاحة، بخلاف قوله بعده: ﴿إِخْرَاجًا﴾ فإنه لم يعدل عنه إلىٰ: خروجًا، لعدم ملاءمته لألفاظ الفواصل قبله المبنية علىٰ ألف مثل أَلِفِ التأسيس، فكما تعد مخالفتها في القافية عيبًا؛ كذلك تعد المحافظة عليها في الأسجاع والفواصل كمالًا». اهـ

ومنها: أن الناس ألوانٌ وأشكالٌ كما هو حال النبات، فمنه الحلو والمرّ

---

(١) حاشية الجمل علىٰ الجلالين (جـ٤) (ص:٤١٢)، نقلًا عن (التفسير الوسيط للشيخ محمد سيد طنطاوي (ح١٥/ ١٢٠).

(٢) **المطاوعة في الأفعال هي**: أن يدل أحد الفعلين علىٰ تأثير ويدل الآخر علىٰ قبول فاعله لذلك التأثير، مثل: علّمته فتعلّم، وهو حينئذ يتعدىٰ إلىٰ واحد، وعليه يكون فعل المطاوعة المقدَّر هنا هو: «فنبتُّم»، ويصبح المعنىٰ المقصود: «أنبتكم فنبتم».

(٣) التحرير والتنوير (حـ ٢٩/ ٢٠٥).

والطيب والخبيث، وأن لكل إنسان ما يُمَيِّزُه ويخصه كما هو حال النبات. وقد جعل الله ذلك من دلائل قدرته، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم:٢٢].

ومنها: أنه تعالىٰ لما كان قادرًا علىٰ الابتداء كان قادرًا علىٰ الإعادة، فقال تعالىٰ: ﴿ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾، فمن قَدَرَ علىٰ هذا الابتداء كان علىٰ الإعادة أعظم قُدرة.

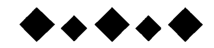
ومنها: قال الشنقيطي[1]: «في هذه الآية مع ما قبلها ثلاثة براهين من براهين البعث الأربعة التي كَثُرُ مجيئها في القرآن:

الأولى: خلق الإنسان: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس:٧٩].

والثانية: خلق السماوات والأرض: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧].

والثالثة: إحياء الأرض بعد موتها: ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾ [فُصِّلَت:٣٩].

والرابع: الذي لم يُذكر هنا هو إحياء الموتىٰ بالفعل، كقتيل بني إسرائيل: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة:٧٣]. ثم قال: «وهنا سياق هذه البراهين للرد علىٰ المكذبين بالبعث».



(١) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (حـ٨/ ٣٠٩، ٣١٠).

وفي قولـه تعـالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾

فوائد:

منهـا: أن التشويق في الخطاب مما يُسْتَملَح، فقولـه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ فيه تـأخيرُ المفعول به وهو الأرض، وإنَّ حقه التقديم قبل كلمة: ﴿لَكُمُ﴾؛ فإنها فَصَلَتْ بين الجَعْلِ ومفعولِه، فأَخَّرتِ المفعول حتىٰ تتشوق النفسُ لسماعه وتَرَقُّبِه، ذكر معناه أبو السعود في تفسيره.

ومنها: أن الأرض مهيأةٌ مسخَّرةٌ لأمر الإنسان كتسخير البِساط للرجل يتقلَّبُ عليه كما يشاء، ويُظهِرُ مواهبَه فيها.

ومنها: قوله: ﴿بِسَاطًا﴾ تشبيه بليغ، أي: جعلها لكم كالبِساط، وهذا لا يتنافىٰ مع كون الأرض كُروية؛ لأن الكرة إذا عظُمت جدًّا، كانت القطعة منها كالسطح والبساط في إمكان الانتفاع بها، والتقلب علىٰ أرجائها.

ومنها: بلاغة القرآن واستخدام الألفاظ حسب ما يقتضيه سياق الكلام.

فتجد قوله تعالىٰ في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:٣١]، وقوله هنا في سورة نوح: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾، فقدم الفِجاج علىٰ السُّبُل في الآية الأولىٰ، وأخرها عنها في آية نوح؛ وذلك أن **الفجّ في الأصل**: هو الطريق في الجبل أو بين الجبلين، فلما تقدمَ في آية الأنبياء ذِكْرُ الرواسي وهي الجبال،

قَدَّم الفجاجَ لذلك بخلاف آية نوح، فإنه لم يرد فيها ذكر للجبال فأخرها، فوضع كل لفظة في الموضع الذي تقتضيه[1].



(١) د. فاضل صالح السامرائي، أسرار البيان في التعبير القرآني (ص:٣٩).

مائدة

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

بعد أن عرض نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ تقريرَه المفصل عن عمله خلال فترةِ دعوتِه بعد استخدامه لجميع سبلِ التوجيه والتنوير، والإنذار والإطماع في خيري الدنيا والآخرة إلا أنهم عصوه، رفع نوح عندئذٍ شكواه إلىٰ ربه، الذي لا يكشف الضر سواه، ولا يستجيب لسؤال السائلين سواه، فقد جاءهم نوحٌ بالخير إلا أنهم عصوه، وليت الأمر توقف عند هذا الحد؛ بل اتبعوا أكابرهم ومترفِيهم أصحابَ الدنيا ومُلَّاك الأموال والأولاد -كعادة كل هالك لا يعرف سبيل نجاته-، ثم تمادَىٰ الأمرُ حتىٰ مَكروا مكرهم لإبطال دعوة نوحٍ ونَصَّبوا أنفسَهم دعاةً في طريق الضلالة والغواية، فصارتْ هناك دعوةٌ مضادَّة لدعوة نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو يدعوهم إلىٰ النجاة وهؤلاء القيادات يدعونهم إلىٰ الهلاك والضياع، يدعونهم لعدم الاستجابة لدعوة التوحيد، والإخلاص لدعوة الشرك والضلال: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ

﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾، مستغلِّين في ذلك ضَعفَ عقولهم، وإشعالَ حَمِيَّة الجاهلية في قلوبهم بقولهم على الإجمال: ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾ بهذه الإضافة البغيضة، ثم على التفصيل سَمُّوا لهم أشهرَ أصنامِهم: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ هذه الأصنام التي اتخذوها آلهةً من دون الواحد القهار، والذي جاء نوحٌ لإبطالِ عبادتهم لها، وصرفِهم إلى عبادة الله وحده، وكان أصحابُ تلك الأسماء أُناسًا صالحين، فلما ماتوا حَزِنَ عليهم الناسُ ثم زَين لهم إبليسُ تصويرَهم، فلما تمادى الزمان زَيَّن لهم عبادتَهم لتحصيلِ المنافعِ الدنيوية ببركاتهم، ثم نُسِي القوم الصالحون، وجُعِلوا أصنامًا آلهة من دون الله، وكانت عبادة هؤلاء أول عبادة للأوثان، فأرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لتبصيرهم بالطريق الصحيح.

وكان فعل هؤلاء الأكابر -على قول بعض المفسرين- ضلالًا وإضلالًا لأممٍ وجماعاتٍ كُثُر: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾؛ لأنهم أولُ من سَنَّ هذه السنة السيئة، فعليهم وزرُها ووزرُ من عَمِلَ بها إلى يوم القيامة.

أو -كما ذهب بعض المفسرين في تأويل الآية- إلى أن هذه الأصنام كانت سببًا في إضلال الكثير من الناس.

وعند هذا الحد، وبعد هذا الجهد المُضني في الدعوة من قِبَلِ نوحٍ، واعتقادِه الجازم بامتناع هدايتهم إما لإخبار الله له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦]، أو بسبب عِشْرته لهم تلك الفترة الطويلة وسَبْرِ أحوالِهم، ويقينه أنه لا خير فيهم ولا أملَ في الرجوع إلى ربهم، عند ذلك دعا عليهم وطلب هلاكَهم

وألا يزدادوا إلا ضلالًا فوق ضلالهم.

ثم جاءت تلك الحقيقة بين جُمَلِ دعاءِ نوح يقرر الله فيها أنه استجاب لنبيه، فإن المعاصي سببٌ للهلاك، وكان هلاكُهم أنْ أغرقهم الله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارًا﴾، فمن مات كافرًا كان مصيره إلىٰ النار، وذهب البعض أن هذه النار إنما المقصود بها عذاب القبر، وقال الثعالبيّ: «كانوا يغرقون في جانب ويحترقون في الماء من جانب». -والعلم عند الله - ولا ضير أن يجمع بين الأضداد، فهو علىٰ كل شيءٍ قدير:

لا تعجبنَّ لأضدادٍ إنِ اجتمعَتْ ... فالله يجمعُ بين الماءِ والنارِ

ومن كان هذا مصيره، والمعاقِبُ والمنتقم هو الواحد القهار فمن يمنعهم من بأس الله وعقابه: ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾.

فائدة

في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾ **فوائد:**

منها: لا تجوز الشكوىٰ إلا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ولذا شكىٰ نوحٌ قومَه إلىٰ ربه، وأنهم عصَوه ولم يتَّبعوه فيما أمرهم به من الإيمان.

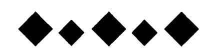
ومنها: أنه ليس كل من يأتيه الخيرُ يباشِره، وإنما هناك من لا يريد نجاة نفسه، إنما سعيُه وراء كلِّ شر، فنوحٌ أتاهم بالمواعظِ النافعةِ إلا أنهم عصَوْه واتبعوا أهل الضلال.

ومنها: ضرورة إعادة لفظ الحكاية إذا طال العهد بأول الحكاية، فهنا

أُعيد لفظ: ﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ لطول العهد بحكاية مناجاته لربه أي قال مناجيًا له تعالىٰ: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾.

ومنها: أن سنة الأمم السابقة مع رسلهم التكذيب، قال تعالىٰ: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون:٤٤].

ومنها: أن الضلال، والسفه والعناد طبيعةٌ غالبة علىٰ الإنسان، متمكنة في بنىٰ آدم، وأنَّ هذه الآفات ليست أمرًا عارضًا في قوم من الأقوام، أو أمة من الأمم، فهكذا كانت الأقوام مع رسلهم.



وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ **فوائد:**

منها: أنه لا ينفع مع الكفر شيء، ولا يستطيع دفعَ الضر إذ أنزله الله بالضالين مالٌ ولا ولدٌ، فلا مال ينفع ولا ولد يَدْفَع.

ومنها: أن ما يعتقد العبد فيه منفعته ربما تكون فيه مضرته وضياعه، فالمال -والمفترض أن يكون فيه شكلٌ من أشكال النفع- إذا به سبيل هلاك، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰٓ﴾ [عبس:٦-٧].

ومنها: أن الله قد يعذب بالنعمة من لا يُقبِل عليه بشكرها مؤديًّا حق الله فيها، فالمال والولد من نعم الله علىٰ خَلْقِه، إلا أن كفرَها يكون سبيلَ خُسرانٍ

لأهلها. **قال صاحب (بيان المعاني)**[١]: «فالأموال والأولاد وإن كانا من جملة المنافع في الدنيا إلا أنهما بسبب الكفر صارا سببًا للخسارة في الآخرة» فقلبُ النعمة مُوجبُ خَسارٍ وضلال.

ومنها: ربما تكون النعم من باب الاستدراج والإنظار، لا من باب الإكرام.

ومنها: أن سبب ضياع جملة الهالكين واجتنابهم الصراط المستقيم إنما هو اتباع أكابرِ القوم وسادتِهم ممن ليسوا على الجادّة، وقد حكى القرآنُ الكريم حواراتِ أولئك عند دخولهم النار، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧]، حتى تمنى الضعفاءُ منهم أن يسُومُهم الله أشدَّ العذاب، فقال تعالى على لسانهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾، ألم يعلم هؤلاء أنه كان لهم عقل يميزون به بين الحق والباطل؟! فكانت عاقبة الفريقين النار.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ...﴾ [سبأ:٣١-٣٣].

---

(١) عبد القادر بن ملا آل غازي العاني، بيان المعاني (حـ ٤/ ٢٦٨)، ط١/ ١٩٦٥م، مطبعة الترقي - دمشق.

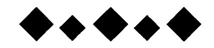
ومنها: أن التقليدَ من أكبر الحوائل التي تقف دون قبول المقلدين للحق ومعرفته، بل كثيرًا ما يدفع المقلد إلىٰ مناهضة الحق وأهله.

ومنها: إنما الربح ربح الآخرة، فمهما حصَّلَ المرءُ من دنياه لا يزيده ذلك عند ربه منزلةً إلا إذا كان في طاعته، فيبقىٰ الربح الحقيقيُّ وهو ربح الآخرة، فالدنيا في جنب الآخرة كالعدم.

ومنها: أن موازين أكثرِ الناسِ منكوثةٌ، فقوم نوح اتبعوا كبراءهم لوجاهتهم واتساع رقعة دنياهم من مالٍ وبنينٍ، وتركوا مَن جاءهم بالمنفعة الأبدية والخير الدائم.

ومنها: أن مخالطة الأشرار تُذهِبَ الفقه والفهم، قال الخطابيُّ: «قَالَ بَعْضُهُمْ: مُعَاشَرَةُ الْأَشْرَارِ تُورِثُ سُوءَ الظَّنِّ بِالْأَبْرَار» وهذا ما حدث، فمخالطتهم لأهل الشر جعلتهم لا يميزون بين البَّر والفاجر، كما ذُكر عن قتادة أنه قال: «كان الرجل يذهب بِابْنِهِ إِلَىٰ نوح فَيَقُول لِابْنِهِ: احذر هَذَا لَا يغرَّنَّك».

ومنها: بيان مدىٰ إهمالِ الناس، وتركِهم النظرَ والاعتبارَ فيما عدَّدَ الله عليهم من النعم، فبرغم كثرة النعم التي ذكَّرهم بها نوحٌ إلا أنهم لم يعتبروا، وأبَوْا إلا الكفر به سبحانه.



وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ **فوائد**:

منها: قال ابن الجوزيّ[١]: «**المَكْر**: السعيُ في الفساد: وذلك أن الرؤساءَ منعوا أتباعَهم عن الإيمان بنوح ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، أي: لا تَدَعُنَّ عبادتها، **وقيل**[٢]: «**المكر**»: هو التدبير في خفاءٍ لإنزال السوء بالممكور به.

ومنها: المكر من شأن الكافرين والظالمين.

ومنها: معنى ﴿كُبَّارًا﴾، **يقول الرازي**: «وَهُوَ مُبَالَغَةٌ فِي الْكَبِيرِ، فَأَوَّلُ الْمَرَاتِبِ الْكَبِيرُ، وَالْأَوْسَطُ الْكُبَارُ بِالتَّخْفِيفِ، وَالنِّهَايَةُ الْكُبَّارُ بِالتَّثْقِيلِ، وَنَظِيرُهُ: جَمِيلٌ وَجُمَالٌ وَجُمَّالٌ، وَعَظِيمٌ وَعُظَامٌ وَعُظَّامٌ، وَطَوِيلٌ وَطُوَالٌ وَطُوَّالٌ». اهـ

ومنها: أن العرب في عصر النبي ﷺ وقبله بقليل كانوا يتداولون بينهم أن هذه الأسماء هي أسماء معبوداتِ قومِ نوحٍ، ثم اقتبسوها وربما عرَّبوها وسمُّوا بها أصناما لهم، وكان ذلك في طَوْرٍ أقدم من طور العربيةِ الفُصحَىٰ التي نزل بها القرآنُ فاحتفظوا بها كما هي؛ لأنها دخلت في نطاق القُدسيّة الذي لا يَسْهُلُ تجاوزه[٣].

ومنها: أن وجود تلك الأصنام في العرب يدل علىٰ أنهم كانوا يتداولون قصة نوح وقومه، فكانت مشتهرةً عندهم وكأنهم نقلوها من كتب أهل الكتاب.

---

(١) جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (حـ٤/ ٣٤٤)، ط١، ١٤٢٢هـ، دار الكتاب العربي – بيروت.

(٢) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (حـ١٥/ ١٢٢).

(٣) دروزة محمد عزت، التفسير الحديث، (حـ٥/ ٢١٢)، ط دار إحياء الكتب العربية – القاهرة/ ١٣٨٣ هـ.

ومنها: أن فيها دليلًا على أهمية العلم الشرعي، والخسارة العظيمة بفقدانه، فما وقع هؤلاء في الشرك إلا بجهلهم، بشبهة تعظيم الصالحين، كما قال ابن عباس عند البخاريِّ: «... أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَىٰ الشَّيْطَانُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ»[١].

ومنها: أن من أهم الأمور سدَّ الذريعة إلىٰ المحظور، فقد كان هؤلاء قومًا صالحين -كما قال ابن عباس-، فلو لم يصوِّرُوهم في بداية الأمر إحياءً لذكراهم لَمَا اتُّخِذوا آلهة.

ومنها: أن من أصول الشرك بالله اتخاذَ القبورِ مساجدَ، كما اتخذ قومُ نوحٍ الأصنامَ ءالهةً من دون الله، والنبيُّ ﷺ نهىٰ عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، فقد روىٰ مُسلمُ من حديث عائشة وأبي هريرة وابن عباس، وجاء التصريح بالنهيِّ من حديث جندبٍ وفيه: «**وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»[٢].

---

(١) البخاري (٤٩٢٠)، كتاب التفسير، باب (وَدًّا وَلاَ سُواعًا، وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ).

(٢) مسلم (٢٣-٥٣٢)، باب النهي على بناء المساجد على القبور، وروىٰ نحوه البخاري (١٣٣٠)، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور.

ومنها: إذا كان التواصي بين أهل الباطل فيما بينهم أن لا يَذَرُوا آلهتهم استجابةً لما يدعو إليه نوحٌ؛ وهم لا حَظَّ لهم في الآخرة، فالأَولَىٰ أن يكون ذلك في أهل الحق، الذين لهم الحُسنَىٰ وزيادة، وعليهم إعمال قول الله سبحانه: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

ومنها: أنه في كل زمان ومكان مَن هو أشقىٰ القوم يحثهم علىٰ الباطل ويحملهم عليه، كما قال تعالىٰ عن شقيّ قوم صالح: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾؛ وكأنه يبحث عن حتفه بظَلْفِه. وهنا نرىٰ من قال: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ...﴾، بهذه الإضافة: ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾ لإثارة النخوة الكاذبة والحَمِيَّة الآثمة في قلوبهم.

ومنها: **قال ابن القيم**[1]: أن جملة الضلالات ترجع إلىٰ إنكارِ الأمرِ بعد الاعترافِ بالحقِّ، وإلىٰ الجنوحِ إلىٰ الهوَىٰ والرأي في مقابلة النص، والذين جادَلوا نوحًا وهودًا وصالحًا وإبراهيمَ ولوطًا وشعيبًا وموسىٰ وعيسىٰ ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم كلهم نَسَجُوا علىٰ مِنوال اللعين الأول -يعني إبليس- في إظهار شبهاته.

وحاصلها يرجع إلىٰ دفع التكليف عن أنفسهم وجَحْدِ أصحابِ التكاليفِ والشرائع بأسرهم إذ لا فرق بين قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن:٦] وبين قوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:٦١].

---

(١) ابن قيم الجوزية، الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة (٤/ ١٥٤٢)، ط ١، دار العاصمة، الرياض، ١٤٠٨هـ.

ومنها: سببُ البدعةِ هو عدمُ قدرةِ النفسِ علىٰ تحمل التكاليف، فيضعون تكاليف تتفق مع أهوائهم، **قال ابن عقيل**[1]: «لما صَعُبت التكاليفُ علىٰ الجُهَّال والطِّغام، عَدَلُوا عن أوضاعِ الشرع إلىٰ تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم».

ومنها: أن لإبليسَ صورًا يتلاعب بها علىٰ الخَلْقِ فيتلاعب بكلِّ قومٍ علىٰ قدر عقولِهم، فمِن تلك الصور تلاعُبه مع قوم نوحٍ بدعوتهم إلىٰ عبادة الأصنام من جهةِ تعظيمِ الموتىٰ، لذلك نهىٰ النبيُّ ﷺ أمَّته أن يتخذوا قبره عيدًا، وقال: «**اشتدَّ غَضبُ اللهِ عَلَىٰ قومٍ اتَّخَذُوا قبورَ أنبيائِهم مَساجِدَ**»[2] وأمر بتسوية القبور، وطَمْسِ التماثيل.

ومنها: أن أكثر أهلِ الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان، ولم يتخلص منها إلا الحُنَفَاءُ، أتباعُ ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعبادتُها في الأرض من قَبْلِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومنها: أن الشركَ إذا وقعَ وخالط القلوبَ صعُبَ رفعُه وزوالُه؛ فإنَّ أصنامًا

---

(١) ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: محمد الفقي (حـ١/ ١٩٥)، ط مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

(٢) الموطأ (٨٥)، (باب جامع الصلاة)، مصنف عبد الرزاق (١٥٨٧)، مصنف ابن أبي شيبة (٧٥٤٤)، وهو حديث مرسل، وقال ابن عبد البر في شرح الموطأ: «فهذا الحديث صحيح، عند من قال بمراسيل الثقات وعند من قال بالمسند، لإسناد عمر بن محمَّد له، وهو ممن تقبل زيادته...» ونقل الشيخ شاكر كلامًا نفيسًا حول الحديث في تحقيق المسند فليرجع إليه.

عُبدت علىٰ وقتِ أولِ الرُّسل ما كسرها إلا آخرُهم، فهذه الأصنامُ عبدَتْها قريشٌ، فإن نوحًا مع كمال بيانه ونُصْحِه ودعوتِه إياهم ليلًا ونهارًا وسرًا وجهارًا، قَضىٰ ألفَ سنة إلا خمسين عامًا ما أجابه إلا قليل، ومع ذلك أَغرَقَ اللهُ أهلَ الأرض كلَّهم من أجله، ومع ذلك تلك الأصنام الخمسة مازالت حتىٰ بُعث محمد ﷺ وكسرها[1].

ومنها: مدىٰ سفاهة وخَبَال قوم نوح، يدعوهم إلىٰ التوحيد فيأبون إلا السفاهة.

قال مبارك الجزائري[2]: «استمَرُّوا علىٰ هذا الضلال عدةَ أجيالٍ، يوصي فيها السلف الخلف؛ بأن يعضوا بالنواجذ علىٰ وثنيتهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣].

وأخذ الخَلَفُ بوصية السلف، فلم يستمعوا لنبيِّهم علىٰ قوة حُجَّته، ولم يتأثروا بآدابه علىٰ طول مدته، ولما لم يجدوا مدفعًا لبرهانه، واستبطؤوا عقوبة الله لهم بطوفانه، قالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود:٣٢]. فانظر إلىٰ هذا السفة والخبال.

ومنها: كيف استمر ذلك الدين والعبادة الوثنية من لدن نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ زمن النبيّ ﷺ، وأكثر سكان أطراف المعمورة عليه، ولا يجوز وقوع ذلك

---

(١) محمد بن إبراهيم آل الشيخ، شرح كشف الشبهات (ص:٢٦)، ط١، ١٤١٩هـ.

(٢) مبارك بن محمد الميلي الجزائري، رسالة الشرك ومظاهره (ص:١١١)، ط١، ١٤٢٢هـ، دار الراية.

من العقلاء، فالعقل يقول: أن ذلك الصنم وتلك الخشبة لم تَخْلُقْ شيئًا؟ قال **الرازي مجيبًا علىٰ ذلك**[1]: «فوجب حمل هذا الدين علىٰ وجه لا يُعْرَفُ فساده بضرورة العقل، وإلا لما بقي هذه المدة المتطاولة في أكثر أطراف العالم، ثم ذكر عدة تأويلات، وبها ضل كل من حاد عن سبيل الله، فقال -بتصرف-:

أحدها: تولدت من مذهب القائلين بأن الله جسم وفي مكان، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

الوجه الثاني: اعتقاد جماعة الصابئة بأن الإله خَلَقَ هذه الكواكب، وفوَّض تدبيرَ هذا العالم السفلي إليها، فاتخَذوا أصنامًا علىٰ صُوَرها واشتغلوا بعبادتها.

الثالث: أن القوم الذين كانوا في قديم الدهر، كانوا منجِّمين علىٰ مذهب أصحاب الأحكام، في إضافات سعادات هذا العالم ونُحُوساتها إلىٰ الكواكب، فاتخذوا أشكالًا موافقة للكواكب وعبدوها.

الرابع: أنه كان يموت أقوامٌ صالحون فكانوا يتخذون تماثيلَ علىٰ صورهم ويشتغلون بتعظيمها، ليكونوا شفعاء لهم عند الله.

الخامس: أنه ربما مات مِلِكٌ عظيم، أو شخصٌ عظيم، فكانوا يتخذون تمثالًا علىٰ صورته تخليدًا لذكراه، وجاء الذين بعد ذلك ظنُّوا أن آباءَهم كانوا يعبدونَها فاشتغلوا بعبادتها لتقليد الآباء.

السادس: الذين يقولون إنه تعالىٰ جسم، وإنه يجوز عليه الانتقالُ والحُلُول.

---

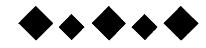
(١) أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير (حـ٣٠/ ٦٥٧).

الوجه السابع: لعلهم اتخذوا تلك الأصنام كالمحراب، ومقصودهم بالعبادة هو الله».

وكل هذه الصور جاء الإسلام ليبطلها، ويثبت وحدانيةَ وعظمةَ الخالق سبحانه.

ومنها: عِلَّةُ تكرار: ﴿لَا﴾، في قوله: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ﴾ وعدم تكرارها مع ﴿وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

يقول الطاهر ابن عاشور[1]: «وتكرير لا النافية في قوله: ﴿وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ﴾ لتأكيد النفي الذي في قوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، وعدم إعادة ﴿لَا﴾ مع قوله: ﴿وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾؛ لأن الاستعمال جار على أن لا يزاد في التأكيد على ثلاث مرات.



وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ **فوائد**:

منها: أن في تأويلها قولين: **قال ابن الجوزي**[2]: «**أحدهما**: وقد أضلت الأصنامُ كثيرًا من الناس، أي: ضلوا بسببها. **والثاني**: وقد أضلَّ الكبراءُ كثيرًا من الناس».

ومنها: أنه يجوز عطفُ الجملة الخبرية على الإنشائية والعكس، فهذه الجملة جملةٌ خبريةٌ ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾، ومعطوفةٌ على التي قبلها، وهي جملةٌ

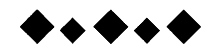
---

(١) التحرير والتنوير (حـ ٢٩/ ٢١٠).

(٢) جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (حـ ٤/ ٣٤٤)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، ١٤٢٢هـ، دار الكتاب العربي – بيروت.

إنشائية، ففي ذلك يقول أبو حيان الأندلسيّ[١]: «ولا يُشترَط التناسب في عطفِ الجمل، بل قد يعطف جملةُ الإنشاء علىٰ جملة الخبر والعكس، خلافًا لمن يدَّعِي التناسب». اهـ

ومنها: أنه ربما يَسري شرُّ أحدِ الناسِ في أزمنةٍ متواصلةٍ فتدوم أوزارُه لِمَا سَنَّه مِن شر، فإنهم أضلوا كثيرًا في زمانهم وزمانِ مَن بعدَهم، كما هو الحال في ابن آدم في سُنَّة القتل.



وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ **فوائد:**

منها: قال القرطبيُّ[٢]: «قال ابن العربيّ: وكان هذا أصلًا في الدعاء علىٰ الكافرين في الجملة، فأما كافر معين لم تُعْلَم خاتمتُه فلا يُدْعَىٰ عليه؛ لأن مآله عندنا مجهولٌ، وربما كان عند الله معلومُ الخاتمةِ بالسعادة، وإنما خَص النبيُّ ﷺ بالدعاءِ عُتبةَ وشَيْبةَ وأصحابَهما[٣]، لعلمه بمآلهم وما كشف له من الغطاء عن حالهم. والله أعلم».

---

(١) أبو حيان الأندلسيّ، البحر المحيط (حـ ١٠/ ٢٨٧).

(٢) تفسير القرطبيّ، (حـ١٨: ٣١٢).

(٣) والمقصود به قول رسول الله ﷺ من حديث ابن مسعود في مستخرج أبي عوانة (٦٧٧٦): «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَام، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ».

وقال في موضع آخر[١] في تفسير سورة البقرة: «أما لعن الكفار جملةً من غير تعيين فلا خلاف في ذلك، لما رواه مالك[٢] عن داود بن الحصين أنه سمع الأعرج يقول: «مَا أَدْرَكْتُ النَّاسَ إِلا وَهُمْ يَلْعَنُونَ الكَفَرَةَ فِي رمضَان». **قال علماؤنا:** «وسواء كانت لهم ذمة أم لم تكن، وليس ذلك بواجب، ولكنه مباح لمن فعله، لجحدهم الحق وعداوتهم للدين وأهله؛ وكذلك كل من جاهر بالمعاصي كشُرَّاب الخمر وأَكَلَة الربا، ومن تشبه من النساء بالرجال ومن الرجال بالنساء، إلىٰ غير ذلك مما ورد في الأحاديث لَعْنُه»».

ثم قال في موضعٍ آخر: «قال ابن العربي: وأما لعن العاصي مطلقًا فيجوز إجماعًا، لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ، فَتُقْطَعُ يَدُهُ**...»[٣]، وذكر أيضا أن لَعْنَ العاصي المُعَين لا يجوز اتفاقا، لما روي عن النبي ﷺ أنه أُتِي بشارب خمرٍ مِرارًا، فقال بعضُ مَن حضره: لَعَنَهُ الله، ما أكثرَ مَا يُؤْتَىٰ بِه، فقال النبي ﷺ: «**لاَ تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيطَانِ عَلَىٰ أَخِيكُمْ**»[٤] فجعل له حرمة الأخوة.

---

(١) في تفسير قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ من سورة البقرة.

(٢) الموطأ (٣٨١)، ما جاء في قيام رمضان.

(٣) البخاري (٦٧٨٣)، باب لعن السارق إذا لم يسم، صحيح مسلم (٧-١٦٨٧)، باب حد السرقة ونصابها، كلاهما من حديث أبي هريرة.

(٤) البخاري (٦٧٨١)، بَابُ (مَا يُكْرَهُ مِنْ لَعْنِ شَارِبِ الخَمْرِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنَ المِلَّةِ).

وذهب بعضهم لجواز لعن المُعَين ما لم يُقَم عليه الحد، فإن أُقيم عليه الحد فلا ينبغي لعنه.

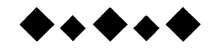
ومنها: لزوم ذكر العلة عند إصدار الأحكام ليكون أوفق لقبول النفس، فنوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هنا في قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ ...﴾، وَضَعَ الظاهر وهو ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ محل الضمير، أي: لم يقل: ولا تزدهم، كما هو الحال في بداية الآية بالخطاب بالضمير، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾، وقوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ كان ذلك لتعليل الدعاء عليهم، كأنه يقول: إنما أدعو عليهم لظلمهم؛ وكذلك استُخدِمَ مثلُها في الآية التالية: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾ فكان غرقُهم بسبب خطاياهم، وإن كان الله لا يجب عليه ذكرُ علل أحكامه، ولكن ليعلمنا ذلك.

ومنها: أنه مَن عُلِمت خاتمةُ أمره فيجوز التعامل معه بمقتضى هذا العلم لا بمقتضى الحال الذي عليه دون انتظار للنهايات والنتائج الأخيرة، لأنها واقعةٌ ولا بُدّ، فإن نوحًا لما أخبره ربه بهلاك قومه وهم لا يزالون في عافيةٍ؛ لم يُصبهم شيء تعاملَ بمقتضى هذا العلم، فكان منه الدعاء عليهم، ولكن نقول إذا كان ذلك فيما يخص الحكم على الناس في أمر آخرتهم فقد انتهى ذلك بوفاة النبيّ ﷺ الذي كان يخبر بأحوال الناس، ولا يدري بخاتمة أحدٍ أحدٌ، فيجب أن يُحْتَرَز من مثل ذلك، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، ولكن يجوز أن يستخدم ذلك في الأمور الدنيوية.

ومنها: **قال الرازي**(١): «إنما بُعث -أي نوح- ليصرفهم عن الضلال فكيف يليق به أن يدعو الله في أن يزيد في ضلالهم؟

الجواب: من وجهين: الأول: لعله ليس المراد الضَّلال في أمر الدين، بل الضلال في أمر دنياهم، وفي ترويج مكرهم وحيلهم، **والثاني: الضلال**: العذاب لقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ اهـ

وقال الزمخشريُّ(٢): «**قلت: المراد بالضلال**: أن يُخذَلوا ويُمنَعوا الألطاف، لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم؛ وذلك حَسَنٌ جميل يجوز الدعاء به، بل لا يحسن الدعاء بخلافه، ويجوز أن يريد بالضلال: الضياع والهلاك، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ اهـ



وفي قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ...﴾ **فوائد:**

منها: أن الخطايا والمعاصي كما أنها سبب ضياع الأفراد فكذلك هي سببُ هلاك الأمم.

ومنها: أن هناك من العقوبات ما يكون من النوع العام، وهي التي يشترك الناس في أسبابها، ووقعوها على الوجه العام فيه من الحِكَمِ ما الله به عليم. **قال ابن القيم**(٣): «قد أغرق الله أهل الأرض كلهم بخطايا قوم نوح، وفيهم الأطفال

(١) الرازي، مفاتيح الغيب التفسير الكبير (حـ٣٠/ ٦٥٨).

(٢) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (حـ٤/ ٦٢٠).

(٣) ابن قيم الجوزية، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص:٢٥١)، طـ١، ١٤٢٢هـ، دار الحديث، القاهرة.

والبهائم، ولم يكن ذلك ظلما منه سبحانه، فالعقوبة الإلهية التي اشترك الناس في أسبابها تأتي عامة، وقد كُسِرَ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ يوم أحد بذنوب أولئك الذين عصوا رسول الله ﷺ وأخلوا مركزهم، وانهزموا يوم حُنين لَمَّا حَصَل لبعضهم من الإعجاب بكثرتهم، فعمَّت عقوبة ذلك الإعجاب، وهذا عين العدل والحكمة، لِمَا في ذلك من المصالح التي لا يعلمها إلا الله تعالىٰ».

ثم قال: «العقوبة العامة التي تبقىٰ آية وعبرة وموعظة لو وقعت خاصة لارتفعت الحكمة المقصودة منها، وفاتت العبرة، ولم يظهر للناس أنها بذلك السبيل، بل لعل قائلًا يقول: قَدَرًا اتفق، وإذا أصاب العذاب من لا يستحقه، فمَن يثاب في الآخرة معجلٌ له الراحةُ في الدنيا بالموت الذي لا بد منه، ويتداخل الثواب في الآخرة، ومن لا يثاب كالبهائم التي لا بد من موتها فإنها لا تتعجل الراحة وما يصيبها من ألم الجوع والعطش، فهو من لوازم العدل والحكمة مثل الذي يصيبها من ألم الحر والبرد والحبس في بيوتها التي مصلحتها أرجح من مفسدة ما ينالها، وهكذا مصلحة هذه العقوبة العامة وجعْلها عبرةً للأمم أرجح من مفسدةِ تَأَلُّم تلك الحيوانات».

ومنها: أن الهلاك نوعان: هلاكٌ حسيٌّ وهلاكٌ معنويٌّ، **يقول التويجري**(١):

«الهلاك الحسي، هلاك الاستئصال كما وقع لبعض الأمم الخالية كقوم نوحٍ

---

(١) محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، موسوعة فقه القلوب (جـ٤/ ٣٤٧٨)، بيت الأفكار الدولية.

وعادٍ وثمود... وقد ينتهي بالهلاك المعنوي، هلاك الهزيمة والضياع، وهو ما يقع للأمم إما لفترة تعود بعدها للحياة، وإما دائمًا فتضمحل، وتنمحي شخصيتُها، وتنتهي إلىٰ اندثارها كأمة، وإن بقيت كأفراد.

وكل أولئك وفق سنة الله التي لا تتبدل مصادفة ولا ظلمًا. فالأمم التي تأخذ بأسباب الحياة تحيا، والأمم التي تنحرف عنها تضعف أو تَضْمَحلّ أو تموت بحسب انحرافها». اهـ

ومنها: عِلَّةُ قراءة بعض القراء: ﴿خَطِيٓـَٔاتِهِمْ﴾، وبعضهم: «خَطَايَاهُم».

قال مكي بن أبي طالب[1]: «وقد قرأ أبو عمرو: «خَطَايَاهُم»، جعله جمعًا مكسرًا، واختاره؛ لأنه مبني للتكثير، والجمع المسلم الذي بالتاء[2]: الأغلب في كلام العرب أن يكون للقليل، وليس خطايا قومٍ كفروا ألفَ سنةٍ بقليلة. وعلة من قرأ بالجمع المسلم بالتاء أنه يقع للكثير كمَا يقع للقليل[3]، وتختص الكثرة إذا عُلم المعنىٰ. وقد قال الله: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧]، وقال ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ [الكهف:١٠٩]، فهل هذا جمع قليل في قول أحد؟ بل هو كثير، إذ قد علم المعنىٰ، فكان ذاك، وقد قيل: إن الخطيئات جمع خطايا أيضًا، فهو جمع الجمع، وجمع الجمع بابه الكثير». اهـ

---

(١) مكي بن أبي طالب، الهداية إلىٰ بلوغ النهاية (حـ١٢/ ٧٧٤٧).

(٢) الجمع المكسر، يعني جمع التكسير، و(المسلَّم الذي بالتاء) يعني: جمع المؤنث السالم.

(٣) قال الكرمانيُّ في (غرائب التفسير) (حـ٢/ ١٢٥٧): والصحيح أنهما يستعملان في القلة والكثرة، بدليل قوله: «كَلِمَاتُ رَبِّي».

ومنها: أن قوله: ﴿أُغۡرِقُواْ﴾ يقول ابن القيم[1]: «قد يترتب علىٰ خلق من يَكْفُرُ به ويُشْرِكُ به ويعاديه من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة ما لم يكن يحصل بدون ذلك، فلولا كُفرِ قومِ نوح لَمَا ظهرت آية الطوفان، وبقيت يتحدث بها الناس علىٰ مَرّ الزمان».

ومنها: أن إغراقَ قومِ نوحٍ دليلُ عدْلِ الله وصدقِ نبوة نوح، يقول ابن القيم في (شفاء العليل) في الموضع السابق، في معرض الحديث عن صور إهلاك المكذبين من أقوام الأنبياء، قال: «وظهر بها[2] فضلُ الله وعدلُه وحكمتُه وآياتُ رسله وصدقُهم، فمعارضة الرسل وكسر حججهم ودحضها والجواب عنها، وإهلاك الله لهم من أعظم أدلة صدقهم وبراهينه»».

ومنها: أن حكمة الله تتجلىٰ في كل أفعاله، حتىٰ أفعال الانتقام، يقول ابن القيم في (شفاء العليل) في الموضع السابق: «وتأمل ما حصل بالطوفان وغرَقِ آلِ فرعون للأمم من الهدىٰ والإيمان الذي غمر مفسدة من هلك به حتىٰ تلاشت في جنب مصلحته وحكمته، فكم لله من حكمة في آياته التي ابتَلَىٰ بها أعداءه وأكرم فيها أولياءه وكم له فيها من آية وحجة وتبصرة وتذكرة».

ومنها: أن قوله: ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارًا﴾ استدل به بعضهم علىٰ أنها دليلٌ علىٰ

---

(١) ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص:٢٢٣)، ط دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٧٨م.

(٢) أي: بآيات إهلاك الأمم السابقة كريحِ عاد وصيحة ثمود، ومنها إهلاك قوم نوحٍ بالغرق.

عذاب القبر إذا كان المقصود بأنها نارٌ دخلوها بعد غرَقهم، أو أنها دليلٌ علىٰ قرب العذاب أو النعيم ممن مات، فاستخدام فاء التعقيب دليل علىٰ هذا الاقتراب وتحقق وقوعه لا محالة، لقوله تعالىٰ: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٣].

ومنها: أنه علىٰ القول السابق بأن قوله: ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ المقصود به: عذاب القبر، فإنه يستفاد من ذلك أن الغرق وما شابه لا يمنع عذاب القبر عن الهالكين، قال الزمخشريُّ[(١)]: «ومن مات في ماءٍ أو في نارٍ أو أكلته السباع والطير: أصابه ما يصيب المقبور من العذاب. وعن الضحاك: كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب. وتنكير النار إما لتعظيمها، أو لأن الله أعدَّ لهم علىٰ حسب خطيئاتهم نوعًا من النار» اهـ

وأنشد ابن الأنباري:

الخَلقُ مجتمِعٌ طورًا ومفترِقٌ ... والحادثاتُ فنونٌ ذاتُ أطوارِ

لا تعجَبنَ لأضدادٍ إذا اجتمَعَتْ ... فالله يجمعُ بين الماءِ والنار

ومنها: أن فيها ردًا علىٰ الجبرية الذين يقولون: «ليست الأعمالُ والسيئات والكفر عندهم أسبابًا للهلاك ولا مقتضيه له، وإنما هو محض المشيئة»، والقرآن يُكذِّب ذلك في آياتٍ كثيرة، فإن العذاب ينزل بسبب الجُرْم وهكذا. فهنا كان هلاكهم بسبب خطيئاتهم.

---

(١) أبو القاسم محمود بن عمرو، الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (حـ٤/ ٦٢٠)

ومنها: علة تقديم ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾، يقول ابن عاشور: «قدم ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ على عامله لإفادة القصر، أي أُغرقوا فأُدخلوا نارًا من أجل مجموع خطيئاتهم لا لمجرد استجابة دعوة نوح التي ستذكر عقب هذا؛ ليعلم أن الله لا يقر عبادَه على الشرك بعد أن يرسل إليهم رسولًا، وإنما تأخر عذابُهم إلى ما بعد دعوةِ نوحٍ لإظهار كرامته عند ربه بين قومه ومسرة له وللمؤمنين معه وتعجيلا لما يجوز تأخيره».

ومنها: أن الله لا يظلمُ الناسَ شيئًا.

يقول شيخ الإسلام: «فإن عقاب المجرمين عدلٌ؛ لذنوبهم، لا لأنا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب، والحديث الذي في السنن: «**لو عَذَّبَ اللهُ أهلَ سَماوَاتِه وَأرْضِه لَعَذَّبَهُم وهُو غيرُ ظَالِمٍ لَهُم، ولَوْ رَحِمَهُم لَكانَتْ رَحْمَتُه لَهُمْ خَيرًا مِنْ أَعْمَالِهِم**»[1]، يبين أن العذابَ لو وقع لكان لاستحقاقهم ذلك، لا لكونه بغير ذنب، وهذا يبين أن من الظلم المنفي عقوبةَ من لم يذنب؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر:٣٠-٣١]؛ يبين أن هذا العقاب لم يكن ظُلمًا لاستحقاقهم ذلك، وأن الله لا يريد الظلم». اهـ

---

(١) مسند أحمد (٢١٥٨٩)، وسنن أبي داود(٤٦٩٩)، وصححه الألبانيُّ، وابن ماجة (٧٧) بلفظ: «**لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ...**» وغيرهم بلفظ: «**لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وأَرْضِهِ...**». كل ذلك موقوفٌ من حديث أبي بن كعب وغيره، ومرفوعٌ من حديث زيد ابن ثابت عند ابن أبي شيبة في المسند(١٣٠)، وأحمد (٢١٦١١).

ومنها: أن الله يأخذ كل أمة من الأمم المكذبة بذنبها، ويعاقبها على قدر جُرمِها، عدلًا منه سبحانه.

يقول التويجري(١): «وما كان وما ينبغي وما يليق بالله تعالى أن يظلم أحدًا؛ لكمال عدله، وغِناه التام عن جميع الخلق، ولكن هؤلاء ظلموا أنفسهم فمنعوها حقَّها التي خلقها الله من أجله، فهي مخلوقةٌ لعبادةِ الله وحده، وهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي عن الإيمان والطاعات، فضَرُّوها أعظم الضرر من حيث ظنوا أنهم ينفعونها».

ومنها: أن رحمةَ الله لا تتنافي مع عزته وانتقامه، فلا يَبقَ مع الكفرِ وجهٌ من وجوه الرحمة، روى ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَوْ رَحِمَ اللهُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ أَحَدًا، لَرَحِمَ امْرَأَةً، لَمَّا رَأَتِ الْمَاءَ حَمَلَتْ وَلَدَهَا ثُمَّ صَعِدَتِ الْجَبَلَ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ صَعِدَتْ بِهِ مَنْكِبَهَا، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ مَنْكِبَهَا وَضَعَتْ وَلَدَهَا عَلَىٰ رَأْسِهَا، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ رَأْسَهَا رَفَعَتْ وَلَدَهَا بِيَدِهَا، فَلَوْ رَحِمَ الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة»**(٢).

ومنها: أن نعلم أن القوة الحقيقية في هذا الوجود إنما هي قوة الله سبحانه، فلا يتعرض العبد لسخطه وغضبه ومعصيته وإلا أهلكه كالذين من قبل.

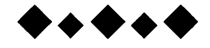
---

(١) محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، موسوعة فقه القلوب (حـ ٣/ ٢٥٥٩)، بيت الأفكار الدولية.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، (١٨٩٩٨).

يقول التويجري(١): «أنه لا بدَّ للبشر من معرفة حقيقة القوىٰ في هذا الوجود، ليعرف الناسُ أين يتوجهون؟، وعلىٰ من يتوكلون؟، ومن يعبدون؟ فلا تخدعهم قوة الحكم والسلطان، ويحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض، فيتوجهون إليها، ويخشونها ويفزعون منها، ويترضَّوْنها ليكُفُّوا عن أنفسهم أذاها، أو يضمنوا لأنفسهم حِماها، ولا تخدعهم قوة المال، فيحسبونها القوة المسيطرة علىٰ أقدار الناس، وأقدار الحياة، فيسعون للحصول عليها، ليستطيلوا بها، ويتسلطوا علىٰ الرقاب كما يحسبون، ولا تخدعهم قوة العلم الإنساني، فيحسبونها أصل القوة، وأصل سائر القوىٰ التي يصول ويجول بها من يملكها، فلا تخدعهم هذه القوىٰ الظاهرة، سواء كانت في أيدي الأفراد أو الجماعات أو الدول، فيدورون حولها ويتهافتون عليها كما يتهافت الفراش علىٰ النار.

إن المؤمن لا بدَّ أن يعلم أن القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوىٰ الصغيرة والكبيرة، وتَمْلِكها وتُوَجِّهها، وتُسَخِّرُها حيثما تريد كما تريد، إنما هي قوة الله وحده: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]».



وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ **فوائد:**

منها: أنه من كان بعيدًا عن الله كان بعيدًا عن الناصر له، ومن خذله الله فلن ينصره أحد، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ

---

(١) موسوعة فقه القلوب (حـ ٣/ ٢٥٦١).

نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٣].

ومنها: من عوّل علىٰ شيء غير الله تعالىٰ خُذِل.

ومنها: أن الآلهة التي تتخذ من دون الله لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، فضلًا علىٰ أنها لا تملك للذين اتخذوها من دون الله نفعًا ولا ضرًا.



مائدة

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ۝٢٨﴾

المعنى الإجمالي:

استأنف نوحٌ دعاء ربه، وسؤالَه بإهلاك قومه الذين كفروا به ولم يعظِّموا أمره، فبالغ في الدعاء طالبًا استئصال شأفتهم، دون الإبقاء على أحدٍ مما يسكن الديار أو يدور في الأرض منهم: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، معللًا ذلك الطلب بِسَبْرِه لأحوالهم وطبيعتهم، فبقاءُ هؤلاء الضُّلال الذين أتاهم الحقُّ واضحًا جليًّا فأبوا إلا الضلال، بقاؤهم ضلالٌ لغيرهم وفتنةٌ للمؤمنين ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ إما بقوتهم الغاشمة، أو بفتنة قلوبهم بما يرون من سلطانِ الظالمين وتركِهم من الله في عافية، ثم إن ضلالهم لن يتوقف عند هذا الحدّ، ولكنهم إن أنجبوا، فإن أبناءهم سيتربّون في هذه البيئة المظلمة الضائعة، فلن يكون حالهم بأفضل من حال آبائهم، فإنهم سيكونون هم وآباؤهم في الكفر والفجور سواء: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

ثم ختم نوحٌ هذه المسيرة الطويلة وهذا الدعاء الصادر عن قلبٍ جاهدَ طويلًا، ختمه بهذا التواضع منه، حيث طلب مغفرةَ ذنوبه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾، فأي ذنوبٍ عند نبيٍّ كان هذا حاله، ولكنه تواضع الأنبياء، ومعرفتهم بربهم الكبير المتعال، ولم ينسَ نوحٌ حقوقَ الخلق عليه، فدعا لأبويه بارًا بهم: ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾، وللأقربين ممن عاصروه ودخلوا بيته وركبوا معه سفينة النجاة: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾، ثم عمم دعاءَه للمؤمنين: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وسيظل أثر دعائه باقيًا للمؤمنين حتىٰ تقوم الساعة؛ لأنه كما دعا علىٰ الكافرين فاستجاب الله له، فسيستجيب دعاءه للمؤمنين، ولما أعلن ولاءَه للمؤمنين بدعائه لهم كان لِزامًا أن يُعلِن براءته من الكافرين فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ هذه العقيدة التي لا يستقيم إيمانُ عبدٍ إلا بها؛ «عقيدة الولاء والبراء»، وهكذا أنهىٰ نوحٌ تلك المقالة وخلاصة تجربته بإعلان أنه لا غِنىٰ له طرفة عينٍ عن ربه رغم ما قدَّم من أعمال.

فائدة

في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ **فوائد:**

منها: أن قول نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا يتنافىٰ مع حرص الأنبياء علىٰ هداية أقوامهم فإنه لم يقل ذلك إلا لسببين:

الأول: أنه لم يَدْعُ عليهم هذا الدعاء إلا بعد أن تحدوه ويئِسَ منهم، أما تحديهم ففي قولهم: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود:٣٢].

الثاني: أن الله تعالىٰ أعلمه أنّه ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦]، فاستجاب الله فيهم دعاءه وأهلكهم. كما دعا موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ قومه فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨].

ومنها: أن الاستقراء دليلٌ معتبرٌ في الحكم.

فنوح؛ لاستقرائه لواقع قومه دعا عليهم بالهلاك، وكذلك موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ...﴾ الآية؛ وكذلك نبينا ﷺ فالاستقراء هو ما جعله يمتنع أن يستجيب لمَلَكِ الجبال في أمر أهل الطائف؛ لأنه علم من قومه استجابتهم للحق، يقول الشنقيطي[1]: «دليل الاستقراء لرسول الله ﷺ في قومه، استدل به علىٰ عكس الأقوام الآخرين، حينما رجع من الطائف، وفعلَتْ معه ثقيف ما فَعَلَتْ فأدمَوْا قدميه، وجاءه جبريلُ ومعه ملَكُ الجبال، واستأذنه في أن يُطْبِقَ عليهم الأخشَبَيْن، فقال: «**لا، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول: لا إله إلا الله**»[2] وذلك أنه ﷺ علم باستقراء حالهم أنهم لا يعلمون، فهم يمتنعون عن الإيمان لقلة تعلمهم، وأنهم في حاجة إلىٰ التعليم، فإذا علموا تعلموا، وأن طبيعتهم قابلة للتعليم لا أنهم كغيرهم في

---

(١) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان (حـ٨/ ٣١٤).

(٢) هذا النص الذي ساقه المؤلف، لم أقف عليه مجموعًا في رواية واحدة، ولكنه مؤلَّف من حديثين، فالجملة الأولىٰ في غزوة أحد لما كُسرت رباعيته ﷺ: «**اللهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**» في شعب الإيمان (١٣٧٥) مرسلة، وضعفه الألبانيُّ، أما قوله: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا...**» فهي في الصحيحين في حادثة الطائف، البخاري (٣٢٣١)، ومسلم(١١١-١٧٩٥). والله أعلم.

إصرارهم؛ لأنه شاهد من كِبَارهم إذا عرض عليهم القرآن، وخوطبوا بخطاب العقل، ووعوا ما يخاطبون به، وسلِموا من العصبية والنوازعِ الأخرىٰ، فإنهم يستجيبون حالا كما حدث لعُمَرَ وغيرِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلا من أعلمه الله بحاله مثل: الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:١١-٢٦] فعلم ﷺ حاله ومآله، ولذا فقد دعا عليه يوم بدر، ومثله أبو لهب لما تبين حاله بقوله تعالىٰ: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد:٣-٤]، فلِكون العرب أهل فطرة، ولِكون الإسلام دين الفطرة أيضا كانت الاستجابة إليه أقرب» اهـ

ومنها: أنه لا يظن ظان أن هذا الموقف الذي وقفه نوحٌ من قومه فيه جفاءٌ لهم، وغلظةٌ عليهم، ولكن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان أكثر أنبياء الله صبرًا وحِلمًا، واحتمالًا... فما من نبي ظل في موقف الدعوة، يحارب أهل الضلال مثل هذا الأمد الطويل الذي وقفه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومنها: أن الآيات تحكي مدىٰ النعمة التي تغمُر أمةَ محمدٍ ﷺ متمثلةً في إرساله إليهم رسولًا رحيمًا بهم، لا يدعو عليهم بالهلاك الشامل؛ وذلك لما قدَّره الله من الرحمة بهم وإمهالهم إلىٰ حين، فلم تصدر من نبيهم دعوةٌ كدعوة نوح.

ومنها: عدم الدعاء علىٰ معين إنما يكون الدعاء علىٰ العموم، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، فلا نحكم علىٰ معين بجنةٍ ولا بنارٍ إلا ما جاء به الدليل، كما بينا ذلك قبلُ في فوائد قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾.

ومنها: أن ديَّارًا من الأسماءِ المستعملةِ في النَّفيِ العام، **يقالُ:** ما بالدارِ ديَّارٌ أو ديُّورٌ، كقيَّامٍ وقَيُّومٍ، **أيْ:** ما فيها أحد، وهو فَيعالٌ من الدُّورِ أو من الدَّارِ أصلُهُ دَيْوَارٌ، قاله أبو السعود[(١)].

وقال ابن جزي[(٢)]: «ووزنه فَيْعال، وكان أصله دَيْوار، ثم قلبت الواو ياءً وأُدغِمت في الياء، وليس وزنه فَعَّال؛ لأنه لو كان كذلك **لقيل:** دوَّار؛ لأنه مشتق من الدور أو من الدار».

ومنها: «أن الدُّعَاء علىٰ الْكَفَرَة مُبَاحٌ إِجْمَاعًا، وإنما اعتذر نوحٌ عن الشفاعة لأهل المحشر، إذ تَذَكَّر ذنبه أنه دعا علىٰ قومه؛ لأَن الأكابر يصَيِّرون بعض الْمُبَاحَات ذنوبًا من بَاب الأولىٰ والأحرىٰ.

ويحتمل أن يعده ذنبًا لكونه لم يُؤمَر به، كما عدَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قتل الكافر ذنبًا لكونه لم يُؤمر به فيقول قتلت نفسًا لم يأمُرْنِي الله بقتلها»[(٣)].

ومنها: أنه لكيْ تأتي الدعوة أُكُلَها يجب إزالة العقبات من طريقها، فنوحٌ دعا علىٰ قومه ليزيلهم من طريق الدعوة، وليستطيع المؤمنون أن يعبدوا الله

---

(١) أبو السعود العمادي (المتوفىٰ: ٩٨٢هـ)، إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، (حـ٩/ ٤١)، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) أبو القاسم، محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل (حـ٢/ ٤١٦)، ط١، ١٤١٦هـ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت.

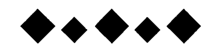
(٣) أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي المعروف بـ «ابن خمير»، تنزيه الأنبياء عما نَسب إليهم حثالة الأغبياء، المحقق: محمد رضوان الداية، (ص:٨٤)، ط١، ١٤١١هـ، دار الفكر المعاصر- لبنان.

علىٰ بينة، بدون منغصات، فهم يفتنونهم إما بالقوة الغاشمة، أو بفتنة قلوبهم بما ترىٰ من سلطان الظالمين وتركهم من الله في عافية.

ومنها: أن في دعاء نوحٍ علىٰ قومه إشارةً إلىٰ أنه قد لا ينجع العلاج ولا يفيد، ويكون آخره الكي، كما هو الحال في الأعضاء التي تُبتر؛ لأن علاجها معدوم وقد تفسد غيرها.

ومنها: أن البلاء يعم بالذنوب العامة؛ لأن الله تعالىٰ أغرق معهم أطفالهم وحيواناتهم.

ومنها: أن يتعلم العبدُ عدم الإفراط في الحظوظ الدنيوية، فمن أخذ حظَّه في الدنيا فماذا سيبقىٰ له في الآخرة، فنوح كبقية الأنبياء دعَا دعوته المستجابة في الدنيا فليس له في الآخرة هذه الدعوة، ليس كحال النبيِّ محمدٍ ﷺ ادَّخَر دعوته ليوم القيامة، فقد روىٰ البخاريُّ ومسلم[1] من حديث أَبِي هريرة وغيره -واللفظ لمسلم-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**».



(١) صحيح البخاري (٦٣٠٤)باب: لكل نبيٍّ دعوة مستجابة، صحيح مسلم (٣٣٨-١٩٩)، باب: (اخْتِبَاءِ النَّبِيِّ ﷺدَعْوَةَ الشَّفَاعَةِ لِأُمَّتِهِ).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ **فوائد:**

منها: أن من عاشر قومًا مدةً طويلة وكان عاقلًا، فإنه يستطيع الحكمَ عليهم ووصفَهم بما قد يكون منهم، فنوحٌ لما طلب استئصال قومه بقوله: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، رُبَّما لو تُركوا لكان من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا إلا أنه جَرَّبهم واستقرأ أحوالَهم للمدة الطويلة التي مكثها فيهم؛ وكذلك كلُّ عاقلٍ قد يعلم ما تصير إليه الأمور عن طريق استقراء الواقع، ولا يطَّلع علىٰ غيبِ الله إلا من أراد من رسله.

أو أنه قال ذلك بعدما أوحىٰ الله إليه: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ كما نقل الطبريُّ، والله أعلم.

ومنها: التعليل بين يدي الطلب هو أدعىٰ لإجابة الطلب وإسقاطٌ لوجوه الملامة، فنوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما طلب من ربه أن يُهلِك الكافرين علَّل طلبه بقوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ...﴾.

ومنها: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما فيه مصلحة الدين، لذلك طلب استئصالهم.

ومنها: **الفجور**: هو الفعل البالغ للنهاية في الفساد والقبح.

ومنها: أن للبيئة الضالة دورَها في ضلال من ينشأ فيها، فقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ إنما يحدث ذلك؛ لأن مَن وُلِد سيتربىٰ في بيئةٍ هذا حالُها.

ومنهـا: أن تعلـم إن لـم تُصـلح قرينَـك فإنـه سيفسـدك، فـإن بقـاء هـؤلاء الضالين ضلالٌ للآخرين، قال الخطابيُّ: «قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: إِنَّكَ لَنْ تَصْلُحَ أَبَدًا حَتَّىٰ تُصْلِحَ جَلِيسَكَ قَالَ: وَأَنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ:

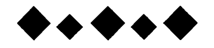
إِذَا كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْعَفَافِ فَلَا يَكُنْ ... قَرِينُكَ إِلَّا كُلَّ مَنْ يَتَعَفَّفِ...»

اهـ

ففيه إشارةٌ إلىٰ اعتزالِ الفجرة والساقطين والمبتدعين؛ لأن في خُلطتهم مفاسدَ جمَّة.

ومنها: قال ابن عاشور عن دعاء نوح[1]: «وفي كلام نوحٍ دلالةٌ علىٰ أن المصلحين يهتمون بإصلاح جيلهم الحاضر ولا يهملون تأسيسَ أسسِ إصلاح الأجيال الآتية، إذِ الأجيال كلُّها سواء في نظرهم الإصلاحي. وقد انتزعَ عمرُ بن الخطاب من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ [الحشر: ١٠] دليلًا علىٰ إبقاء أرض سواد العراق غير مقسومة بين الجيش الذي فتح العراق وجعلها خراجًا لأهلها؛ قصدًا لدوام الرزق منها لمن سيجيءُ من المسلمين».

ومنها: فائدة نَحْوية عن خبر: «إنك»: يقول ابن عاشور -في الموضع السابق-: «خبر إنك مجموع الشرط مع جوابه الواقع بعد «إن»؛ لأنه إذا اجتمع مبتدأ وشرطٌ رَجَحَ الشرطُ علىٰ المبتدأ فأُعْطِيَ الشرطُ الجوابَ، ولم يُعْطَ المبتدأُ خبرًا لدلالة جملة الشرط وجوابه عليه».



(١) التحرير والتنوير (جـ٢٩/ ٢١٤).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ **فوائد:**

منها: أن العبد كلما قرب من ربه عظمُت هيبتُه في صدره، وازداد خوفًا منه، وبدأ بطلبِ المغفرة، فالأنبياء يخافون ربَّهم بقدر قربهم منه، لذلك طلب المغفرة من ربه.

ومنها: أن من آداب الدعاء أن يبدأ الداعي بالدعاء لنفسه قبل دعائه لغيره فإنه أقرب إلىٰ الإجابة، إذ هو أخلصُ في الاضطرار، وأَدخلُ في العبودية، وأبلغُ في الافتقار، وأبعدُ عن الزهو والإعجاب؛ وذلك سنة الأنبياء والرسل، فهنا قال نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، ومن أمثلة ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ...﴾ [الحشر:١٠].

ومنها: أن طلبَ نوحٍ للمغفرة إنما هو من أدب الأنبياء، والذي يجب أن نتمثل به.

ومنها: أن البر بالوالدين هو من أدب الأنبياء وأدب الصالحين.

ومنها: الأقربون أولىٰ بالمعروف، فقد خص بالدعاء أوّلا من يتصل به، لأنهم أولىٰ وأحق بدعائه، ثم عَمَّ المؤمنين والمؤمنات.

ومنها: أنه -ربما- فيها دليلٌ علىٰ أن أبوَيْ نوحٍ كانا مؤمنين، قال ابن جزي في تفسيره: «قال ابن عباس: لم يكن لنوحٍ أبٌ كافرٌ ما بينه وبين

آدم عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ»[١]، «ودعاؤه لوالديه... هو بِرُّ النُّبوَّة بالوالدين المؤمنين -كما نفهم من هذا الدعاء- ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع في شأنِ ولدِه الكافر الذي أُغرق مع المُغرَقين».

وقيل: المقصود آدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ.

ومنها: «أنك لا تجد في القرآن الكريم البِرَّ أو الدعاءَ أو التوصيةَ إلا بذكر الوالدين لا الأبوين، والأمثلة على ذلك كثيرة، كقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام:١٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١]، وهنا قال تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾، ولم يَرِد استعمالُ «الأبوين» في موضع ذكرِ البر، كما في آية المواريث، وآيةِ الكهف، حيث نَصيبُ الأبِ أكثر من نصيب الأم، أو التساوي في الأنصبة، لكن في البر والتوصية والدعاء لم يأت إلا بلفظ الوالدين إلماحًا إلى أن نصيب الأم ينبغي أن يكون أكثرَ مِن نصيبِ الأب، فالوالدُ من الولادة، والولادة تقوم بها الأم، وهذه إشارة إلى أن الأم أولى بالصُّحْبة وأولى بالبر قبل الوالد». قاله د: فاضل السامرائي في إحدى لقاءاته.

ومنها: فضيلة الدعاء بظهر الغيب، وأنه من سنن الأنبياء، فنوحٌ دعا للمؤمنين والمؤمنات، وفي صحيح مسلمٍ[٢]، عن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنه

---

(١) لم أقف على هذا الأثر في كتب الحديث المعتمدة.

(٢) صحيح مسلم (٢٧٣٢)، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب.

سمع النبي ﷺ يقول: «مَا مِنْ عبدٍ مسلمٍ يَدْعُو لأخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ إِلاَّ قَالَ المَلَكُ: وَلَكَ بمثلٍ».

وفي المسند[1] من رواية أم الدرداء أن النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ دَعْوَةَ الْمُسْلِمِ مُسْتَجَابَةٌ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ».

ومنها: أنه كما في قوله: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ برَّ المؤمن بالمؤمن وحبَّ الخير لأخيه كما يحبه لنفسه. ففيه دليلٌ على أن للصحبةِ حقًّا وإن كانت قصيرة، فقد دعا نوحٌ لمن دخل بيته مؤمنًا كامتدادٍ لكرم الضيفان.

ومنها: أن في تقييده بالإيمان في الدعاء لمن دخل بيته دليلًا على الاحتراز والدقة في الكلام والمعاملة، والمقصود بمن دخل بيته مؤمنًا أي: دخل دخولًا مع تصديق القلب مُؤْمِنًا، وبهذا القيد خرجت امرأتُه وابنُه كنعان.

ومنها: «أن قوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فيه أيضًا بِرّ المؤمن بالمؤمنين كافة في كل زمان ومكان. وشعوره بآصرة القُرْبَىٰ علىٰ مدار الزمن واختلاف السكن، وهو السر العجيب في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها برباط الحب الوثيق، والشوق العميق، علىٰ تباعد الزمان والمكان، السر الذي أودعه الله هذه العقيدة، وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط العقيدة». قاله صاحب الظلال.

ومثله ما حكاه القرآنُ عن المؤمنين الذين يأتون بعد عصر الصحابة وحتىٰ

---

(١) مسند الإمام أحمد، (٢١٧٠٧).

قيام الساعة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

ومنها: أن من مات على الإيمان فهو داخل تحت دعاء نوحٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فإنه لا شك قد استجاب الله له، وقد دعا بمثل هذه الدعوات إبراهيمُ ومحمدٌ -عليهما الصلاة والسلام-؛ وكذلك الملائكة. **قال ابن جزّي الكلبيّ**[1]: «**قال بعض العلماء:** إن الإله الذي استجاب لنوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فأغرقَ بدعوتِه جميعَ أهلِ الأرض الكفار حقيقٌ أن يستجيب له، فيرحم بدعوته جميع المؤمنين والمؤمنات».

قال الله تعالى على لسان إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ [إبراهيم:٤١]، وقال الله جل ذكره لمحمد ﷺ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، وقال تعالى مخبراً عن الملائكة: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٥].

ومنها: أن في هذا الدعاء تحقيقًا لعقيدة الولاء والبراء، فإن نوحًا لما دعا للمؤمنين قد ختم دعاءه بالدعاء على الظالمين الكافرين فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾، ففي مقابل الحب للمؤمنين يكون الكُرْهُ والبغض للكافرين والظالمين.

ومنها: «قوله: ﴿إِلَّا تَبَارَۢا﴾ أي: هلاكًا ودمارًا وكل شيء أُهلك فقد تبَر، وقال قتادة: خسارًا، كقوله تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾ [الإسراء:٧]، فإنه يقول:

(١) ابن جزي الكلبي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل (جـ٢/ ٤١٦).

وليدمِّروا ما غلبوا عليه من بلادكم تدميرا، يقال منه: دمَّرت البلد: إذا خرّبته وأهلكت أهله، وَتبَرَّ تبْرًا وتبارا، وتبَّرتُه أُتبِّره تتبيرًا». قاله الطبريُّ[1].

ومنها: أن في دعاء نوح علىٰ قومه بالبوار والهلاك الحرصَ علىٰ سلامة المجتمع الإنساني من شوائب المفاسد وتطهيرَه من العناصر الخبيثة. كما قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨].

ومنها: أن الدعوة إلىٰ الله والصبرَ عليها، وتحملَ الأذىٰ في سبيلها هو الطريقُ الوحيدُ الذي ينتهي بالبشرية إلىٰ أقصىٰ الكمال المقدر لها في هذه الأرض.

ومنها: إن فيها جواز ذكر العام بعد الخاص، كما نقل الزركشيّ، فقال: «ومنه: إخبارًا عن نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾[2].

وآخر الفوائد: أن علىٰ الإنسان أن لا يُعَلِّق رجاءَه إلا بالله، فمهما بلغ من العمل والطاعة، لا يظن أن في ذلك نجاتَه، إنما النجاةُ في رضا الله عنه، فإن الله لا يُدخلُ أحدًا الجنةَ بعمَلِه ولكن بفضله، فإن فعلت خيرًا فاتَّهِم نفسك

---

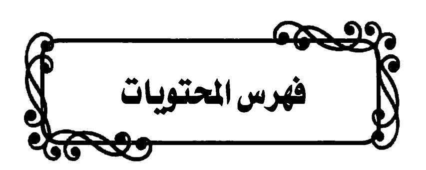
(١) الإمام الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (جـ١٤/ ٥٠٤).
(٢) البهان في علوم القرآن (جـ٢/ ٤٧٢).

بالتقصير، وقل يا رب هذا جُهد المُقِلّ، فجازِ بالإحسان إحسانًا وبالسيئات عفوًا وغفرانًا. فختم نوحٌ هذا الجهد الجهيد منه بإعلان الافتقار إلىٰ رضا الله وغفرانه، فكذلك فكن. تقبل الله منا ومنكم.

هذا وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمدٍ وآله، والحمد لله رب العالمين..

وقد جاءت السورة علىٰ خمس موائد، يندرج تحت كل مائدةٍ جُملةٌ من الفوائد مجموعها مئتان وعشرون فائدة. والله نسأل أن يتقبل منا وأن يجعلها من الباقيات الصالحات.





فهرس المحتويات

فهرس الجزء الأول

المقدمة ٥

الجزء الأول : سورة محمد ٩

مقدمة الجزء الأول.............................. ١١

بين يدي السورة.................................. ١٣

المائدة الأولى ، الآيات (١: ٣) والمعنى الإجمالي ١٩

فائدة.. ٢٠

المائدة الثانية ، الآيات (٤: ٦) والمعنى الإجمالي.......... ٢٨

فائدة.. ٢٩

المائدة الثالثة ، الآيات (٧ : ١٢) والمعنى الإجمالي......... ٤٥

فائدة.. ٤٦

المائدة الرابعة ، الآيات (١٣ :١٥) والمعنى الإجمالي........ ٦٥

فائدة.. ٦٦

المائدة الخامسة ، الآيات (١٦: ١٩) والمعنى الإجمالي........ ٧٨

فائدة.. ٨٠

المائدة السادسة ، الآيات (٢٠ :٢٤) والمعنى الإجمالي ١٠٣

فائدة.. ١٠٥

المائدة الخامسة ، الآيات (٢٥: ٣١) والمعنىٰ الإجمالي ١٣٧
فائدة ١٣٩
المائدة السادسة ، الآيات (٣٢ :٣٨) والمعنىٰ الإجمالي........... ١٦٢
فائدة ١٦٤

فهرس الجزء الثاني

الجزء الثاني : سورة نوح.............................. ١٨١
مقدمة الجزء الثاني.................................. ١٨٣
بين يدي السورة...................................... ١٨٥
الفوائد العامة في السورة ١٩١
المائدة الأولىٰ ، الآيات (١: ٤) والمعنىٰ الإجمالي ١٩٤
فائدة ١٩٥
المائدة الثانية ، الآيات (٥: ١٢) والمعنىٰ الإجمالي ٢١٤
فائدة ٢١٦
المائدة الثالثة ، الآيات (١٣ : ٢٠) والمعنىٰ الإجمالي........... ٢٣٤
فائدة ٢٣٦
المائدة الرابعة ، الآيات (٢١: ٢٥) والمعنىٰ الإجمالي ٢٥١
فائدة ٢٥٣
المائدة الخامسة ، الآيات (٢٦: ٢٨) والمعنىٰ الإجمالي ٢٧٦
فائدة ٢٧٧
فهرس المحتويات ٢٩١